حرّان في تاريخ الشرق القديم

الأستاذ الدكتور عيد مرعي
قسم التاريخ
جامعة دمشق

حرّان في تاريخ الشرق القديم

Harran in the history of Ancient Near Eeast

الأستاذ الدكتور عيد مرعي

قسم التاريخ

جامعة دمشق

Prof. Aid Mari
Department of history
University of Damascus

حرّان مدينة قديمة يُعرف موقعها الحالي بالاسم نفسه قرب منابع نهر البليخ على بعد نحو أربعين كيلو متراً جنوب شرقي الرها (أورفة الحالية، شانلي أورفة" أورفة المقدسة) في تركيا بالقرب من الحدود السورية . اكتسبت حرّان أهمية كبيرة في تاريخ الشرق القديم لسببين، الأول هو وقوعها على طرق التجارة الدولية القديمة الواصلة بين سورية وبلاد الرافدين، وبين بلاد الرافدين والأناضول .(الشكل ١) .

ويعني اسمها "خرّانو" Harranu(m) باللغة الأكادية (باللغة السومرية uruKASKAL ki) "طريق، رحلة، قافلة"(١). وربما كان هذا انعكاسا لأهميتها التجارية المعروفة منذ الألف الثاني قبل الميلاد على الأقل . إذ كانت محطة مهمة على طريق التجارة التي كانت تربط آشور في شمالي بلاد الرافدين مع كاروم كانيش Karum Kanish المستوطنة الآشورية المشهورة قرب قيصرية في وسط بلاد الأناضول . وكانت كذلك محطة مهمة على الطريق الواصلة بين كركميش في سورية في الغرب ونينوى وآشور في شمالي بلاد الرافدين في الشرق .

والسبب الثاني لنيل حرّان أهمية كبيرة في تاريخ الشرق القديم هو كونها مركزاً لعبادة سين إله القمر الرافدي المشهور الذي شاعت عبادته في مناطق واسعة من الشرق القديم بدءاً من الألف الثالث قبل الميلاد . يضاف إلى ذلك أنها كانت آخر مدينة آشورية . إذ لجأ إليها آشور أوباليط الثاني آخر ملك آشوري بعد سقوط نينوى في العام ٦١٢ ق . م بيد تحالف بابلي –ميدي . وحاول منها خلال سنتين أن ينقذ الامبراطورية الآشورية الحديثة من الضياع، غير أنه فشل في ذلك على الرغم من المساعدة التي قدمها له الفرعون المصري بسامتيخ الأول (٦١٠- ٥٩٥)، وسقطت حرّان بأيدي البابليين في العام ٦١٠ ق . م ٠ حاول آشور أوباليط الثاني، الذي كان قد انسحب منها العودة إليها بمساعدة من بقي معه من الآشوريين وبعض الوحدات المصرية القوية، فحاصر المدينة لمدة شهرين (حزيران – تموز ٦٠٩ ق٠م)، إلا أن المحاولة فشلت، واختفى آشور أو باليط الثاني، وسقطت معه الإمبراطورية الآشورية الحديثة إلى الأبد (٢).

بدأ الآثاري D.S.Rice الحفريات في موقع حرّان القديم في العام ١٩٥١(الشكل ٦) وتبين له من دراسة الفخار المكتشف أن المدينة كانت مسكونة دون انقطاع منذ ٣٠٠٠ ق . م على الأقل . إلا أن وقوع الطبقات الأثرية الأقدم تحت آثار القلعة والجامع الكبير من العصور الاسلامية حال دون دراسة تلك الطبقات . غير أن الاكتشاف الأهم كان العثور في آب – أيلول ١٩٥٦ في أرضية المسجد على أنصابٍ حجرية كانت تستخدم كدرجات عند المداخل الشمالية والشرقية والغربية، وتحمل نقوشاً تعود إلى نابونيد آخر ملك حكم بابل (٥٥٦ – ٥٣٩ ق.م) وإلى أمه أدًا – جوبِّي كبيرة كاهنات سين في حرّان (٣) .

سنعود للحديث عن هذه النقوش فيما بعد .

إن أقدم ذكر لحرّان في النصوص المكتوبة يرد في محفوظات إبلا (٤)٠ ويرد كذلك في الألواح الآشورية القديمة المكتشفة في كبادوكيا في وسط الأناضول والتي تعود إلى

القرن التاسع عشر قبل الميلاد . والتي تظهر حرّان من خلالها مدينة مزدهرة ومهمة على طريق التجارة التي كانت تربط آنذاك مدينة آشور بالمستوطنات التجارية التي أسسها التجار الآشوريون في كبادوكيا وأشهرها كاروم كانيش .

كما تذكر حرّان في أحد نصوص ماري (القرن ١٨ ق. م). (ARMT XV,125) .

وحسب جورج دوسان Dossin أول باحث قام بدراسة نصوص ماري كانت حرّان في عصر زمري ليم ملك ماري المشهور(١٧٨٢- ١٧٦٩ ق٠م) مركزاً لملك صغير يدعى Asditakim، وكان يوجد فيها معبداً لسين عقدت فيه معاهدة .

وتظهر أيضا في نص يعد دليلاً للسفر في العصر البابلي القديم . إذ تُذكر فيه مدن مختلفة كمحطات على الطرق التجارية المعروفة آنذاك [٥] .

ويتبين من المعاهدة التي عقدها الملك الحثي المشهور شوبيلوليوما الأول (١٣٨٠- ١٣٤٦ ق٠م) مع ملك مملكة حوري – متياني شاتيوازا Shattiwazza (نحو ١٣٦٠)، والتي يُذكر فيها سين حرّان، أن حرّان تعرضت للحريق من قبل الجيش الحثي بقيادة بياشيلي Piyashshiliأثناء سيره باتجاه العاصمة الحورية واشوكاني٠ وتظهر حرّان في نصوص آشورية متعددة كمركز لعبادة سين إله القمر . فأدد نيراري الأول (١٣٠٧ – ١٢٧٥ ق.م) وابنه شلمنصّر الأول (١٢٧٤ – ١٢٤٥) يذكران في حولياتهما أنهما "فتحا منطقة شودو ومنطقة حرّان وكركميش". وخضعت حرّان أيضاً لتيجلات بيليصر الأول (١١١٧ – ١٠٧٧) وابنه آشور بيل كالا (١٠٧٤- ١٠٥٧).

إن تسمية "مقاطعة حرّان" أو "أرض حرّان" تُظهر أن المدينة كانت تعد المركز السياسي للمنطقة في هذه الحقبة [٦] .

أصبحت حرّان في العصر الآشوري الحديث (نحو ١٠٠٠ – ٦١٢ ق. م) جزءاً أساسيا من الامبراطورية الآشورية تدار من قبل أحد موظفي الامبراطورية الأربعة الكبار . وحظي معبد سين فيها المعروف باسم

E– hul – hul (إى–هُل–هُل = معبد الهلال) برعاية كبيرة فقد رممه شلمنصّر الثالث (٨٥٨ – ٨٢٤ ق.م) وشاروكين الثاني (٧٢٢ – ٧٠٥ ق. م) وآشور بانيبال (٦٦٧ – ٦٢٧ ق.م) . وقام آشور بانيبال بتعيين أخيه الأصغر آشور–إتيل–شَمي–إرصيتي–بالِّيتسو
Assur – etil – same –rseti – ballitsu كاهناً (urigallu) فيه . وقام أيضاً بإصلاحات أوبنى بيت أكيتي bit akiti لسين معبد احتفالات رأس السنة ومعبداً لنينغالNingal (السيدة الكبيرة زوجة سين) ومعبداً لنوسكو Nusku إله النور والنار وابن سين .
وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية مدينة حرَّان الدينية آنذاك .
وهناك نص يذكر معبداً مبنياً بخشب الأرز في محيط حرَّان أُقيم لعبادة سين ونوسكو بمناسبة زيارة الملك الآشوري أسر حدّون للمدينة (٧) .
وعلى الرغم من تغير الحكام وسقوط الممالك والامبراطوريات القديمة وظهور قوى وإمبراطوريات جديدة فإن حرَّان لم تفقد أهميتها وبقي معبد سين فيها قبلة للملوك وموضعاً لاهتمامهم . فهذا نابونيد آخر ملك بابلي
(٥٥٦ – ٥٣٩ ق. م) يولي معبد سين في حرَّان اهتماماً كبيراً، فيعيد تشييد بنائه الذي كان قد تهدم على أيدي الميديين والكلدانيين. وكان هذا نتيجة تأثير والدته أدّا– جوبّي، Adda - guppi التي كانت الكاهنة الكبرى لسين في حرَّان . وقد ترك نقشاً يتحدث عن ذلك يقول فيه: " أنا نابونيد، ابن وحيد ليس له أحد، لم يكن في ذهنه تسلم العرش الملكي. الآلهة والإلهات صلّوا من أجلي، ودعوني لتسلّم الحكم . في الليل جعلني (سين) أرى حلماً (قال لي فيه) مايلي: "إهْلُهُل معبد سين في حرَّان شَيده بسرعة. أريد أن أعطيك كل البلاد في يدك" (٨) . كما عيَّن ابنته كاهنة لسين في أور. ونشاهد نابونيد على النصب الذي نُقش فيه النقش (الشكلان ٢، ٣)، والذي يبلغ ارتفاعه نحو مترين، وعرضه متراً واحداً، وسمكه عشرين سنتمتراً، نشاهده واقفاً بخشوع يحمل صولجاناً، وأمامه رموز القمر والشمس والزُهرة . وقد رُمِز إلى القمر بدائرة كاملة

يوجد هلالٌ في أسفلها، وإلى الشمس بقرص صغير يحيط به شكل رباعي الأطراف يشبه الصليب، وإلى الزهرة بنجمة سباعية داخل دائرة ٠ والآلهة المقصودة بذلك هي سين وشماش وعشتار ٠

ونعلم من نقش أدا-جوبّي أن نينغال Ningal (السيدة الكبيرة) زوجة سين وأولاده عشتار إلهة الحب والحرب، وشماش إله الشمس، ونوسكو إله النور والنار قد عبدت أيضاً في حرّان . كما تظهر آلهة أخرى مثل نابو[٩]٠

كان الهلال رمز الإله سين الذي يظهر على العديد من الأوابد والأختام الاسطوانية . وحيوانه المقدس الثور، وقرناه هما رمز الألوهية . (الأشكال ١٠-١٢) ٠

ومن مراكز عبادة سين الأخرى مدينة أور في جنوبي بلاد الرافدين، وتيماء في شمال غربي شبه الجزيرة العربية . التي انتقل إليها نابونيد وعاش فيها عشر سنوات .

ويظهر "سين حرّان" باسم "بعل حرّان" في وثائق ونقوش من خارج بلاد الرافدين . فهناك نص آرامي من زنجرلي (شمأل) في شمال غربي سورية (النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد) منقوش على نصب (نصب الكاتب) يظهر فيه الملك برراكب ملك شمأل جالساً على كرسي العرش وفوقه الهلال رمز سين " بعل حرّان " (سيد حرّان) ويخاطب الإله سين بقوله:

"سيدي بعل حرّان . أنا برراكب بن بناموا " [١٠].

وذكر سين إله القمر من حرّان في نصوص حثية هيروغليفية (تصويرية) من الألف الأول قبل الميلاد .

لم تفقد حرّان ولا سين أهميتهما بعد سقوط بابل بيد الفرس الأخمينيين(٥٣٩ ق٠م) ومن ثم استيلاء الاسكندر المقدوني عليها(٣٣١ ق٠م) وكذلك سلوقس الأول نيكاتور(٣١٢ ق٠م) . وتحولت في العصر الهللنستي (٣٢٣-٣٠ ق٠م) إلى مركز لنشاط ثقافي وديني كبير امتزجت فيه المعتقدات الدينية البابلية والآشورية القديمة مع

الأفكار الفلسفية الاغريقية، وهو الأمر الذي نتج عنه بعد ظهور المسيحية المعتقد الذي عُرف باسم معتقد الصابئة Sabianism .

وجرت بالقرب منها معركة Carrhae (الرها) التي أُسر فيها القائد الروماني كراسوس Crassus من قبل الفرثيين في العام ٥٣ ق.م . وقامت في منطقة حرّان في هذه الفترة مملكة صغيرة تدعى أُوسرويني Osrhoene وعاصمتها الرها (Edessa)، والتي كانت تتبع الإمبراطورية الفرثية. وبعد ظهور المسيحية تطورت فيها عبادة ثالوث إلهي مؤلف من سين وعشتار وشماش . وقد مُثلوا على شكل هلال مع نجمتين . وهناك نقود رومانية تُظهر تأثيراً حرّانياً (الشكل ١٣). وقد حاول لوكيوس فيروس L. Verus، مساعد الإمبراطور الروماني(١٦١-١٦٩ م) ضم هذه المملكة إلى روما، وحقق انتصاراً بالقرب من نصيبين، إلاّ أن انتشار وباءٍ كبير جعل هذه المهمة غير ممكنة . ولكن على الرغم من ذلك أقيم نصب نصرٍ في إفيسوس تظهر حرّان فيه مدينة تابعة لروما (الشكل ١٥) .في العام ١٩٥ م تمكّن الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس S. Severus (١٩٣-٢١١ م) من ضمِّ حرّان فعلاً إلى الإمبراطورية الرومانية. ويمكن رؤية بيوت حرّان المخروطية الشكل المقببة (الباقية نماذجها حتى اليوم لم تتغير) على قوس نصر سبتيميوس سيفيروس في الفوروم رومانوم في روما (الشكل ١٦).ومنح كراكلاّ Caracalla خليفة سبتيميوس سيفيروس حرّان مرتبة مستعمرة Colonia(٢١٤ م)، وزارها في نيسان العام ٢١٧، لأنه أراد زيارة معبد سين فيها، وبعد عودته من الزيارة اغتاله الضابط مكرينوس Macrinus الذي أصبح الإمبراطور الجديد .

وفي العام ٣٦٣ أظهر الامبراطور يوليان احترامه لمعبد سين في حرّان وقدم له الأضاحي .

فتح العرب المسلمون حرّان في العام ٣٩ هـ / ٦٣٩ م في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وعُرفت بأنها تقع في ديار مضر وأصبحت مع الرها والرقة أهم ثلاث

مدن في منطقة الجزيرة الفراتية . ووُصِف سكانها بأنهم مزارعون أنباط ومهاجرون إغريق .

واتخذها مروان بن محمد (٧٤٤ – ٧٥٠ م) عاصمة له في أواخر أيام بني أمية (الشكلان ٧–٨). وتمتعت بأهمية كبيرة في العصر العباسي وانتقلت إليها مدرسة الطب والفلسفة من الاسكندرية .

سادت فيها اللغة السريانية وأتقن سكانها الاغريقية . وبرز منها علماء كبار أدوّا دوراً كبيراً في حركة الترجمة من الاغريقية والسريانية إلى العربية وأشهرهم أبو الحسن ثابت بن قرة وولده سنان، ومحمد البتاني الفلكي الشهير، وابن وحشية صاحب كتاب الفلاحة النبطية وغيرهم .

ظهر مصطلح "صابئة حرّان" في أواخر القرن التاسع الميلادي وكان يُشار إليهم قبل ذلك باسم " كلدانيين أو حرانيين أو نبطيين" .

وصف الكتّاب المسلمون هؤلاء الصابئة بعد عصر المأمون بأنهم أناس يعبدون الكواكب والنجوم والأصنام ويوجدون في مدينة حرّان [١١].

في العصر الصليبي في العام ١١٠٤ جرت في وادي البليخ معركة بالقرب منها تعرف باسم معركة حرّان بين الصليبيين والسلاجقة .

ضرب حرّان زلزالان، الأول في العام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م والثاني في العام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م ثم دمرها المغول بالكامل بقيادة هولاكو في العام ١٢٦٠ م . وتشرد من بقي من سكانها وكان منهم الفقيه المعروف أحمد بن تيمية .

وعلى الرغم من أن المماليك استعادوها فيما بعد إلا أنها فقدت أهميتها وتحولت إلى قرية صغيرة مهملة .

ويصفها أبو الفدا بأنها مدينة خربة (القرن ١٣) .

كانت حرّان محاطة بسورٍ طوله ٤كم جرى ترميمه مرات متعددة عبر العصور المختلفة التي مرت بها المدينة، كان آخرها في عهد الإمبراطور البيزنطي يستنيان

(القرن السادس الميلادي) • ولا تزال أجزاء كبيرة منـه قائمـة حتـى الآن • وتـم التعرف على مواقع أكثر من ١٨٧ برجاً كانت قائمة عليه • ولم يبـق مـن بوابـات المدينة الستة (بوابة حلب، وبوابة الأناضول، وبوابة الموصـل، وبوابـة أرسـلانلي، وبوابة بغداد، وبوابة الرقة) إلا بوابة حلب •

أقيمت فوق موقع معبد إهلهل القديم قلعة في العصور الوسطى ما تزال آثارها باقيـة حتى اليوم •(الشكل ١٤) •

أخيراً نقول إن محاولات العثور على آثارٍ تؤكد رحلة ابراهيم التوراتية من أور إلـى حرّان لم تكلل بالنجاح حتى الآن•

الهوامش

١- von Soden. W. Akkadisches Handwoerterbuch, I-III, Wiesbaden 1965,1972, 1981. I S. 326-327.

٢- مرعي، عيد، **موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم**، بيشة (السعودية)، ١٤٢٤ ه، ص ١١٣ .

٣- Ancient Near East , Harran, from Seminary George Fox Website .

٤- مرعي، عيد، إيلا، **تاريخ وحضارة أقدم مملكة فـي سـورية**، دمـشق ١٩٩٦، ص٦٢٠

٥- Postgate. J.N., Harran, in : Reallexikon der Assyriologie , vierter Band, Berlin-Newyork 1972-1975, S. 122-125, S. 123.

٦- Ibid.

٧- Ibid. S. 124.

٨- مرعي، عيد، **بابل في عهد نابونيد آخر ملوكها**، مجلة دراسات تاريخية، العددان ١٩٦٣- ١٩٦٤، ١٩٩٨، ص ٣٥ .

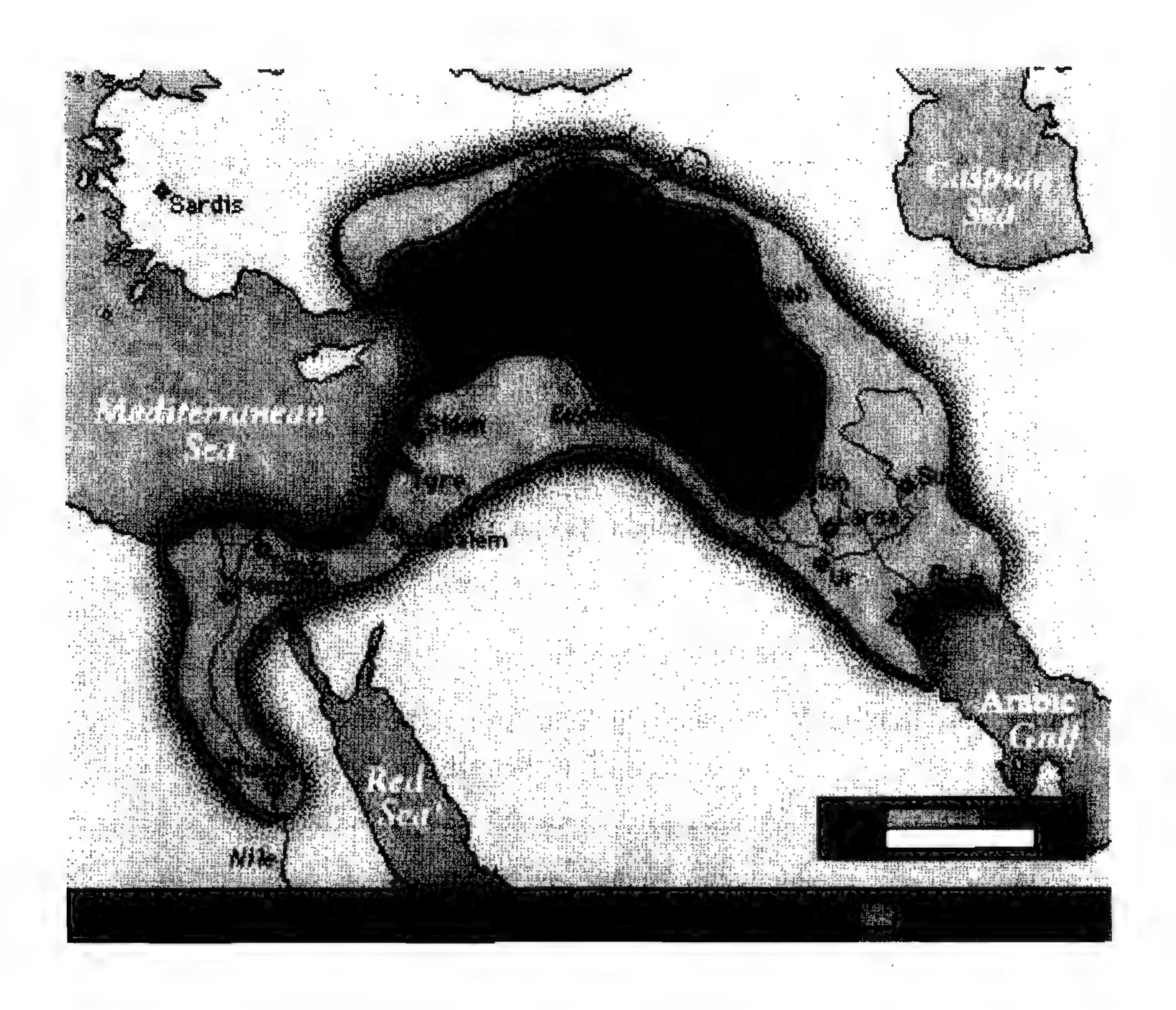
٩- Ancient Near East, Harran ..... P. 3 ff.

١٠- Donner. H. – Roellig. W. Kanaanische und Aramische Inschriften . Band II, Wiesbaden 1964, 237.

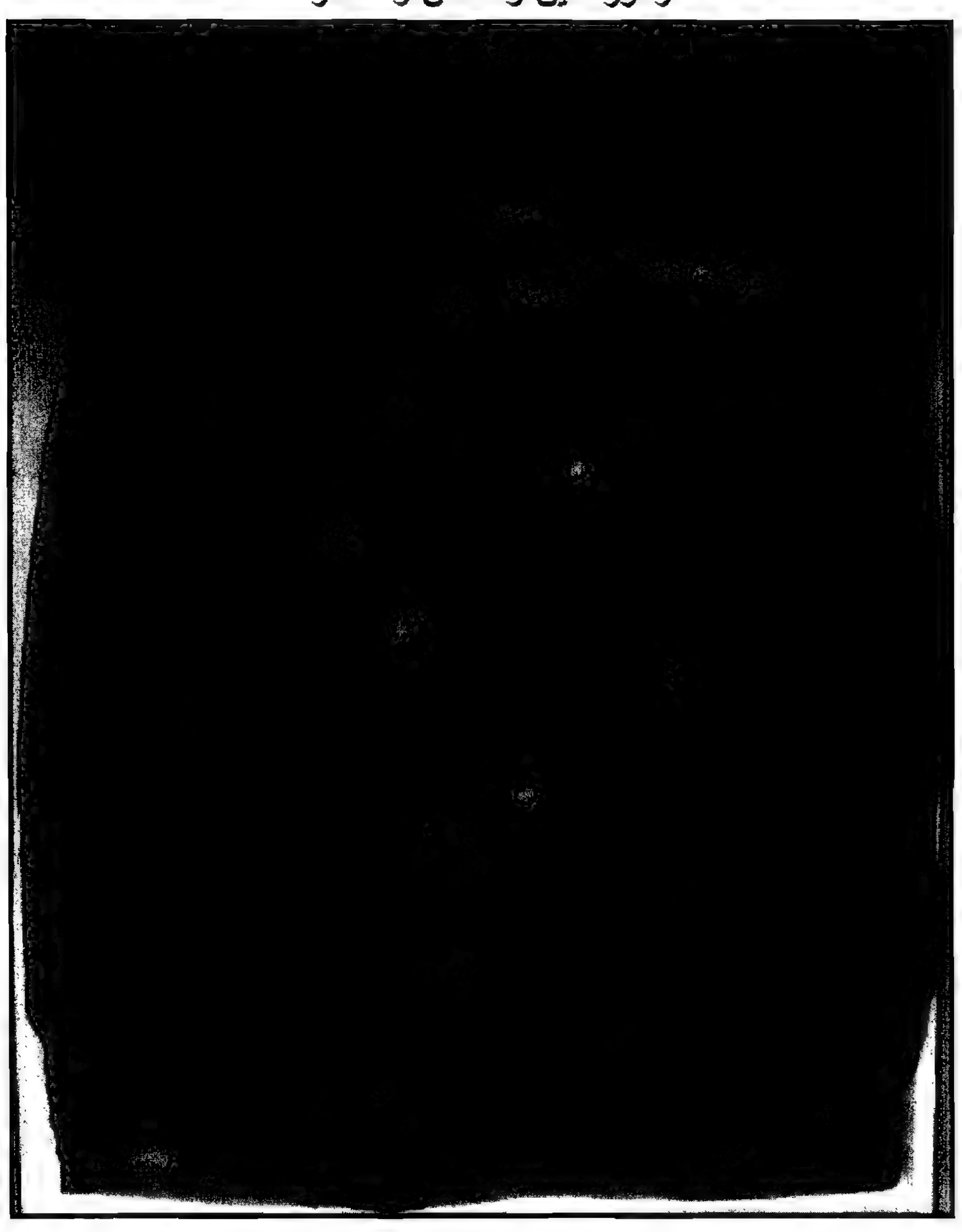
اسماعيل، فاروق، **اللغة الآرامية القديمة**، جامعة حلب ١٩٩٧، ص ٢٨٨- ٢٨٩ .

١١- انظر على سبيل المثال : الشهرستاني، **الملل والنحل**، تحقيق محمد عبد القـادر الفاضلي، صيدا- بيروت ٢٠٠٣، القسم الثاني ص ٥٣ .

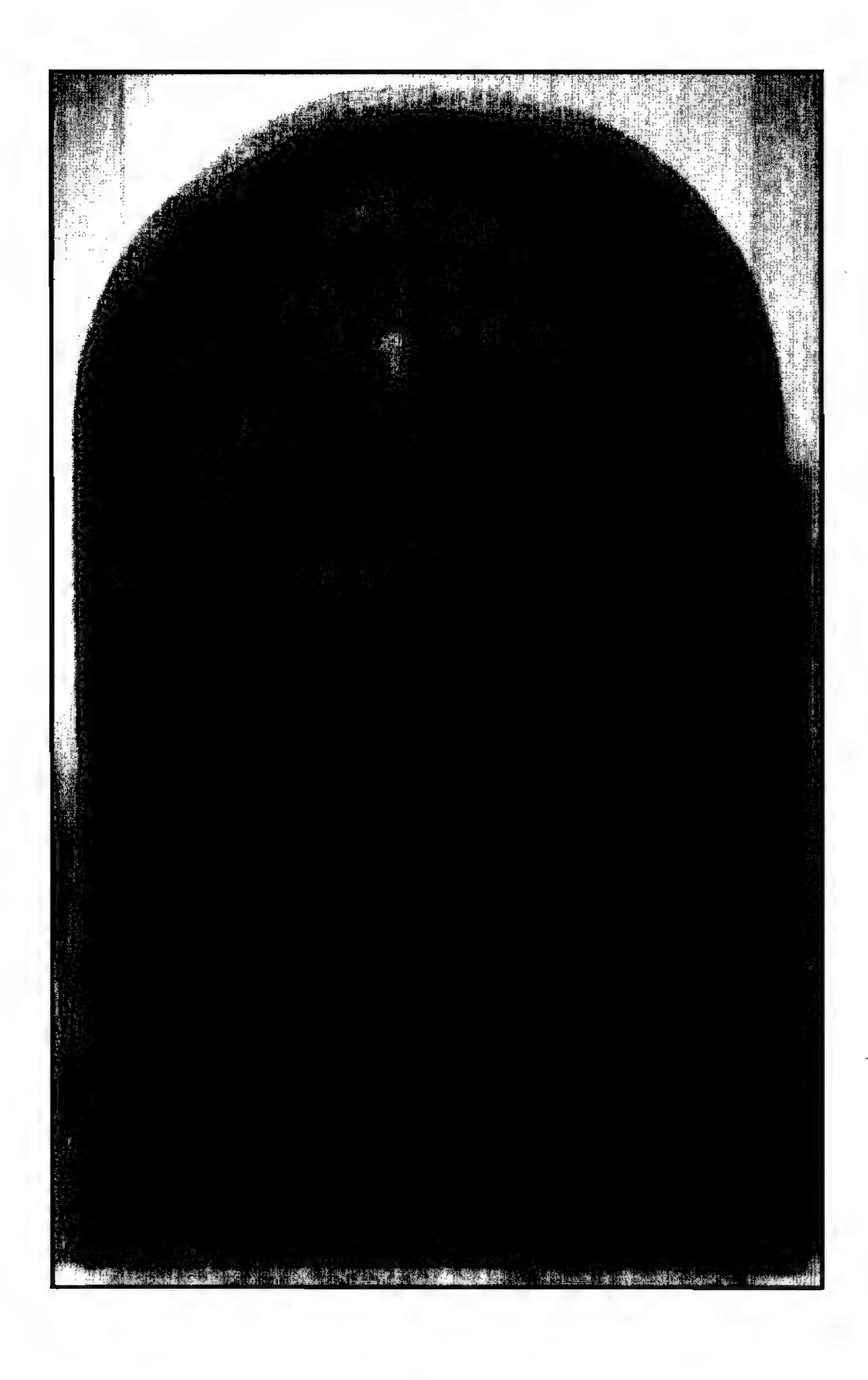
١- مصور الإمبراطورية الآشورية في مختلف عصورها



٢- القسم العلوي من نصب نابونيد الذي يظهر فيه نابونيد واقفاً أمام رموز سين وشماش وعشتار.



٣- نصب نابونيد آخر ملوك بابل



٤- منحوتة لمحارب آشوري يحمل قوسا



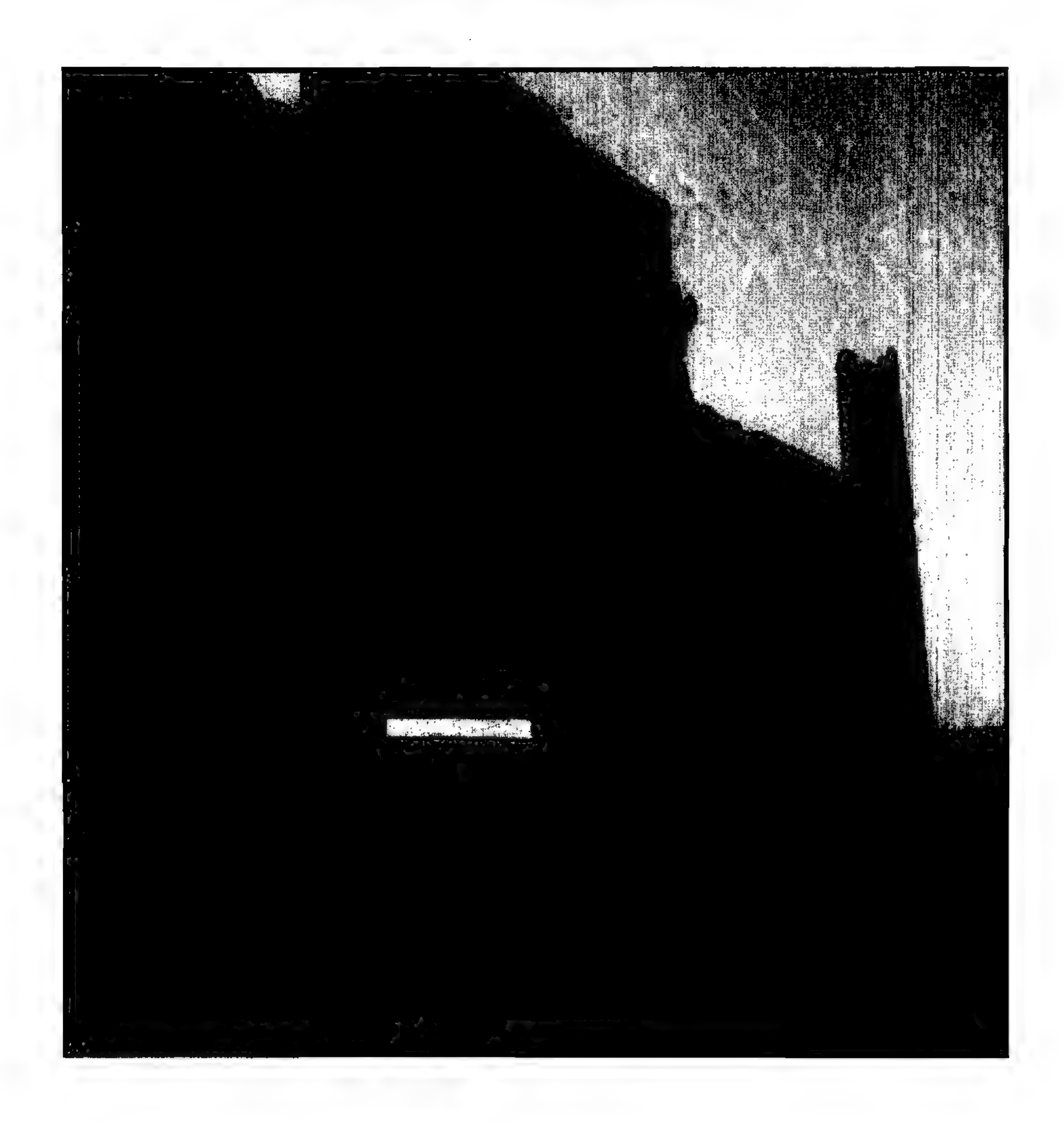
٥- منحوتات صخرية من العصر المسيحي



٦- موقع حرّان القديمة



٧- بقايا واجهة مسجد من العصر الأموي



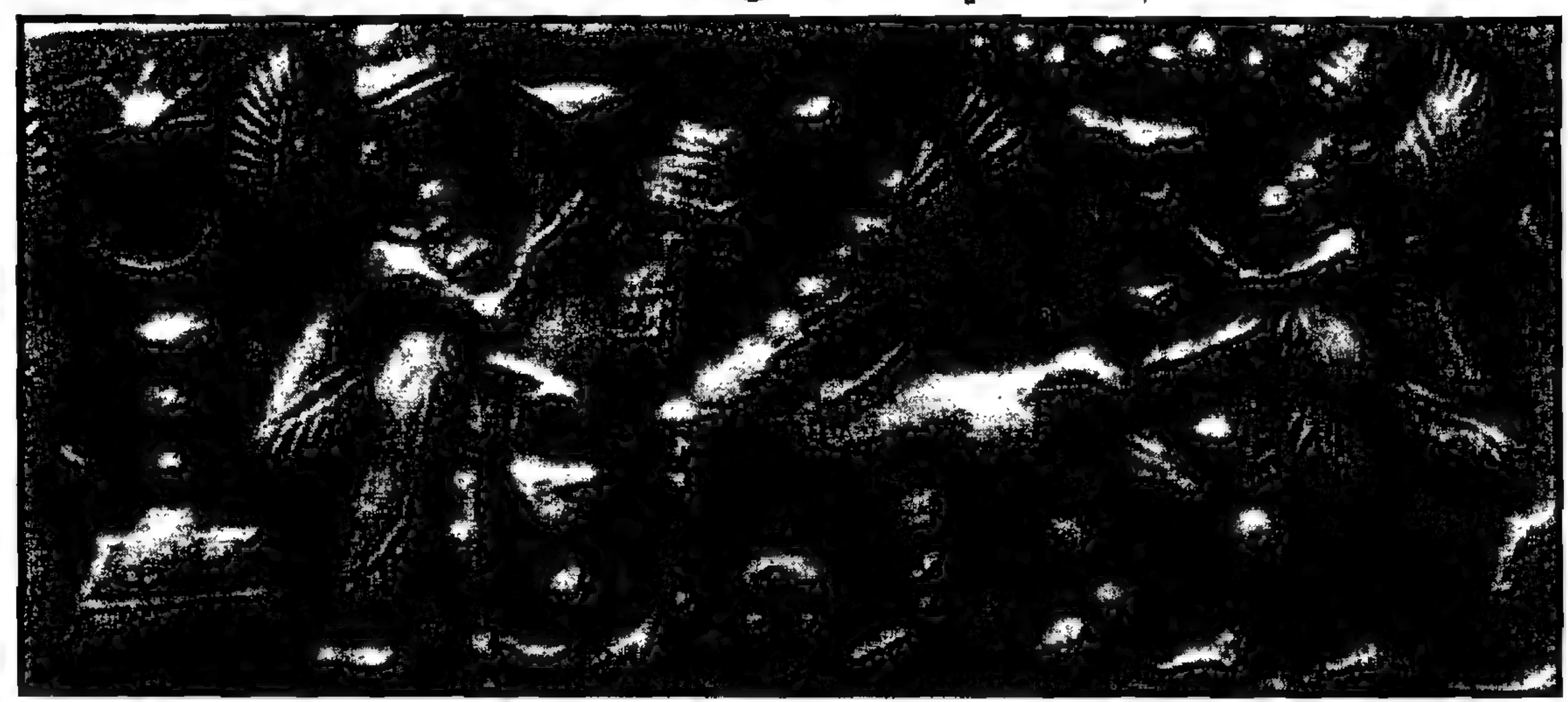
٨- بقايا مئذنة من العصر الأموي



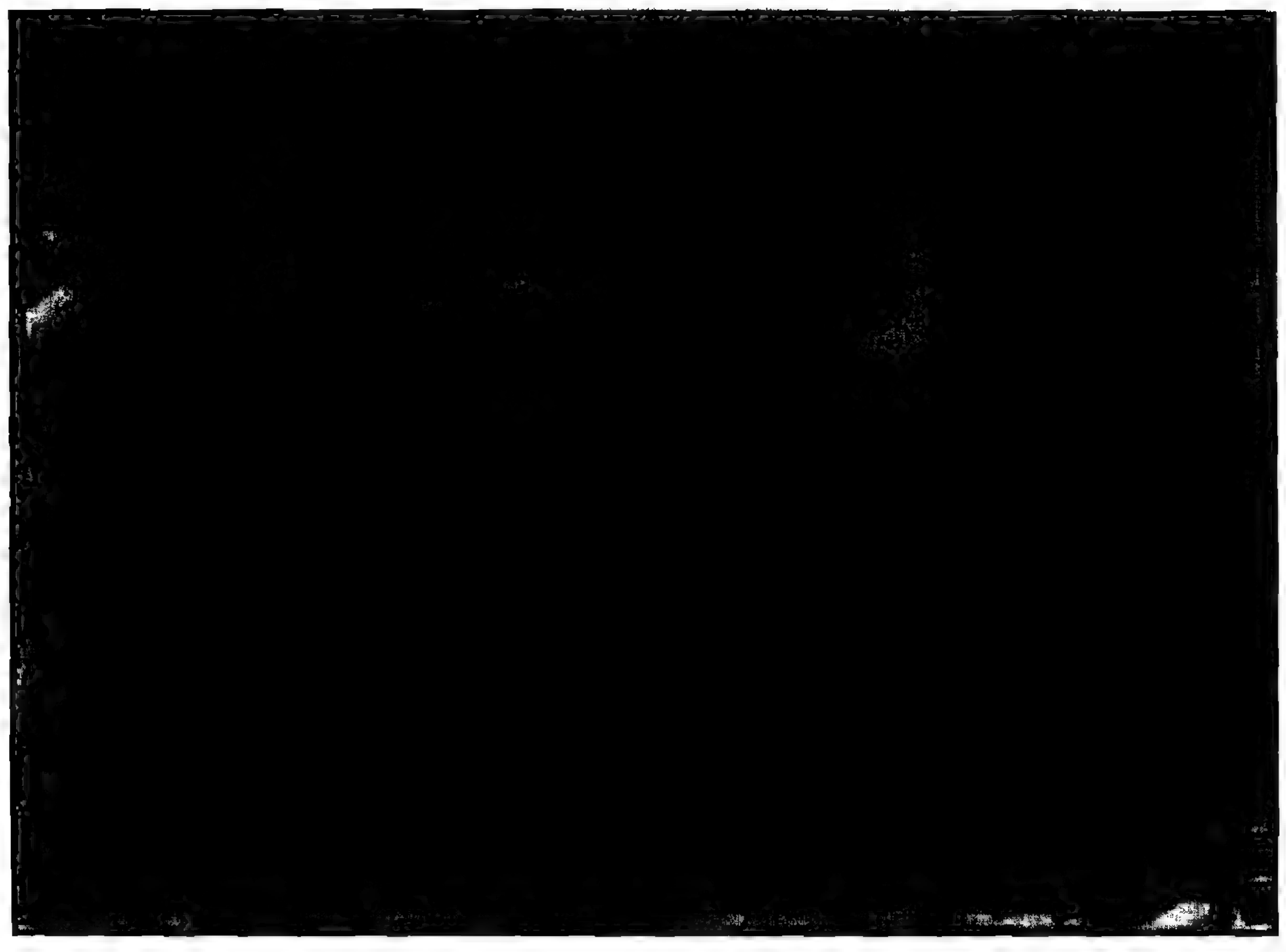
٩- منظر من حرّان الحالية



١٠- طبعة خاتم اسطواني يظهر على جهتها اليسرى الهلال رمز سين

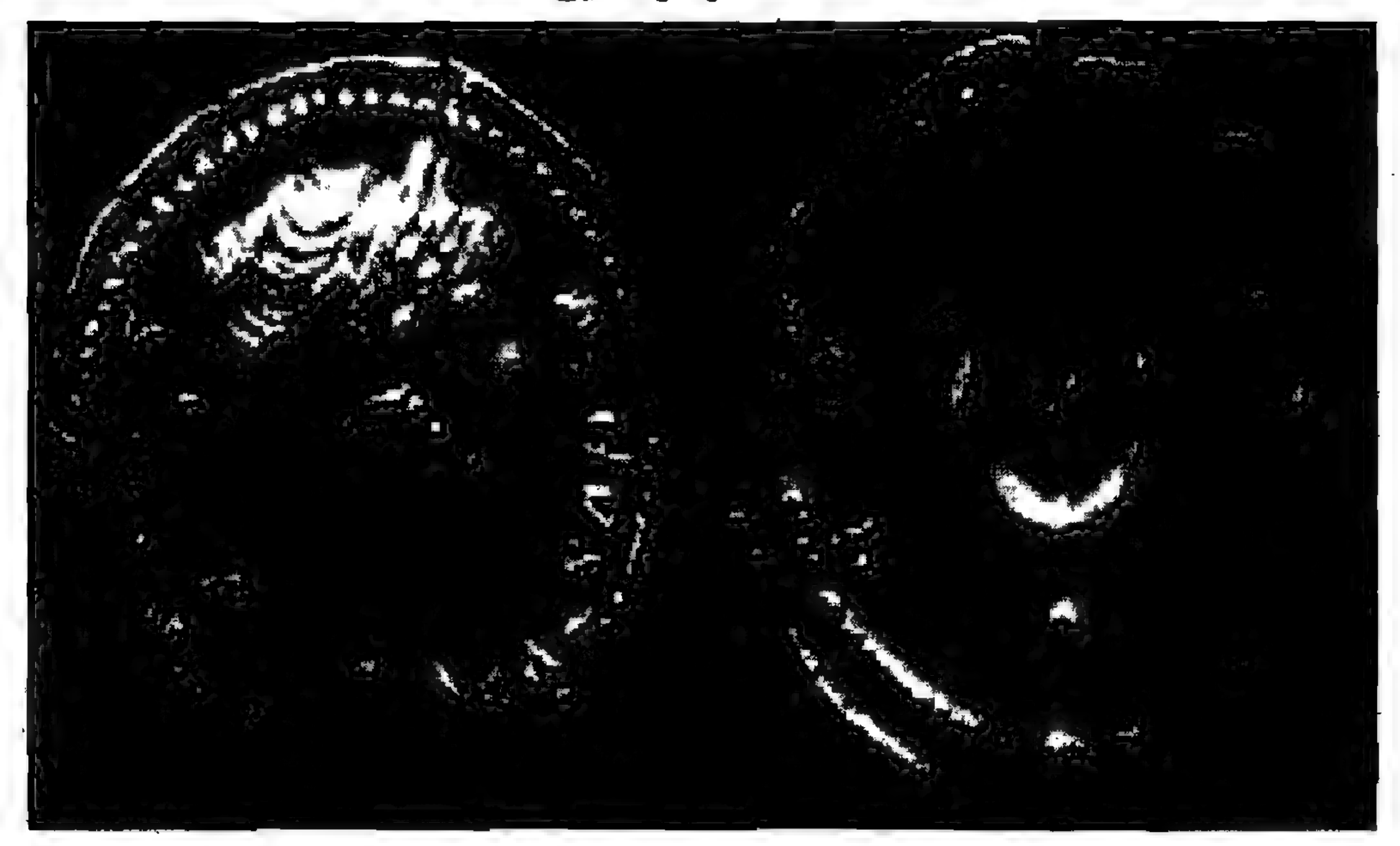


١١- طبعة خاتم أسطواني من عهد أورنامو مؤسس سلالة أور الثالثة يظهر فيه الإله سين جالساً وأمامه ثلاث حوريات وفوقه الهلال رمزه ٠



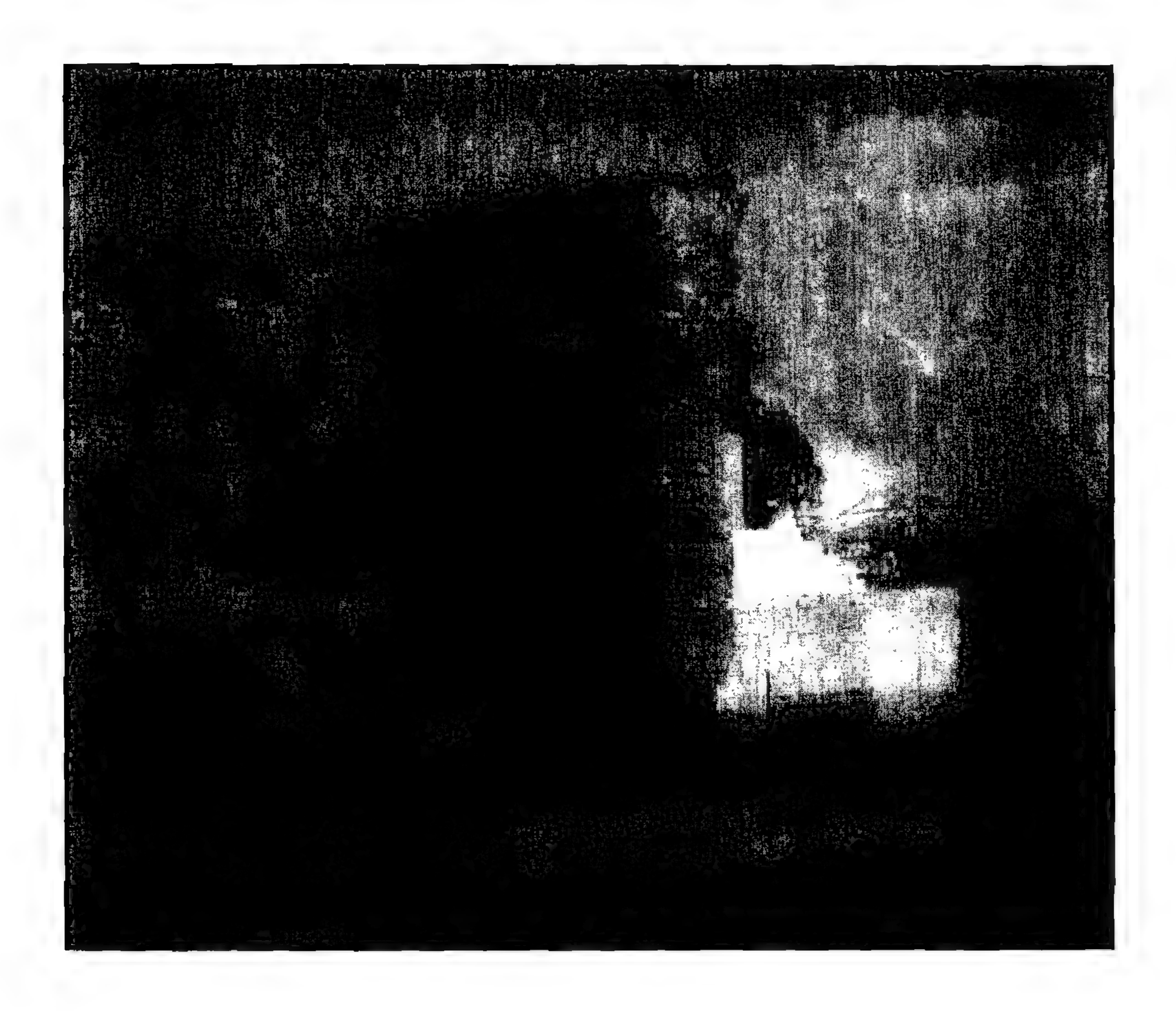


١٢ – رمز سين



١٣– نقد روماني من عصر الإمبراطور هدريان (١١٧–١٣٨ م) يظهر على ظهره الهلال رمز سين ٠

١٤- بقايا القلعة التي بنيت في العصور الوسطى فوق معبد سين



١٥ - الهلال رمز سين حران على نصب روماني أقيم في مدينة إفيسوس .



١٦ - نموذج بيت حراني على قوس نصر سبتيميوس سيفيروس .



العلاقات بين بلاد الرافدين والجزيرة العربية في ضوء الكتابات المسمارية

الدكتور فاروق إسماعيل
جامعة حلب

العلاقات بين بلاد الرافدين والجزيرة العربية في ضوء الكتابات المسمارية

الدكتور فاروق إسماعيل

جامعة حلب

يقصد بمصطلح "بلاد الرافدين، أو بلاد ما بين النهرين Mesopotamia " الإطار الجغرافي الطبيعي الذي يمكن تحديده بالجزء الشرقي من سلسلة طوروس الجبلية في الشمال الغربي، وجبال زغروس في الشمال الشرقي والشرق، والساحل الشمالي للخليج العربي في الجنوب، ونهر الفرات في الغرب. ويشكل نهرا الفرات ودجلة أبرز مَعلَمين طبيعيين فيه، وهما الرافدان المقصودان لأنهما يرفدان معاً مياه الخليج العربي بعد توحّدهما في شط العرب.

أما الجزيرة العربية أو شبه الجزيرة العربية Arabian peninsula فإطارها الجغرافي أكثر وضوحاً وتحديداً ؛ ولاسيما في الجهات المائية الثلاث (الخليج العربي، بحر العرب، البحر الأحمر). وهي تتميز عن بلاد الرافدين بسواحلها الطويلة وجبالها الداخلية العالية، ولكنها تخلو من الأنهار، وتشكل القسم الأعظم منها مناطق صحراوية قاحلة وبوادٍ تتخللها واحات منعزلة ؛ ولاسيما في الشمال والشمال الغربي منها.

إن اتصال المنطقتين جغرافياً عبر الخليج العربي والبادية العربية – السورية يثير إمكانية حدوث تواصل حضاري وعلاقات متنوعة بينهما منذ أقدم العصور التاريخية. ولاشك في أن المنهج العلمي لاستقراء ذلك يتطلب العودة إلى المصادر الأثرية

الكتابية والمادية المكتشفة في المنطقتين، ومن ثم استخلاص المعلومات المختلفة المباشرة وغير المباشرة منها، ودراستها وتحليلها. ولكن اللافت للانتباه في هذا السياق هو وجود تفاوت وفروق واضحة بين المصادر المكتشفة فيهما، من حيث طبيعتها ووفرتها وتواترها وقدمها التاريخي؛ فالشواهد المادية على حضارة بلاد الرافدين ترقى إلى عصور ما قبل التاريخ، وقد تنوعت وكثرت بدءاً من الألف الثالث ق.م (معابد، قصور، تماثيل مجسمة، منحوتات، أختام، قطع فخارية.. إلخ)، وتضاف إليها شواهد الكتابة المسمارية التي تمّ إبداعها في أواخر الألف الرابع ق.م، ثم دوّنت بها آلاف النصوص ذات الموضوعات المتنوعة، وبدأ الكشف عنها في مواقع كثيرة منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. ويدل هذا القدم التاريخي على استقرار مبكّر وتفاعل خلاق مغ الظروف البيئية، مما أثمر حضارة مزدهرة في شتى المجالات. وتساعد وفرة المصادر وتنوعها على إمكانية تقصي أخبار البلاد السياسية وتطوراتها الحضارية بشكل مفصل واف.

أما الجزيرة العربية فلا نعرف إلا القليل عن عصور ما قبل التاريخ فيها، ولم يكشف فيها إلا عن شواهد مادية قليلة نسبياً وتقتصر على مواقع معينة. كما لم يكشف إلا عن كتابات مسمارية قليلة في جزيرتي البحرين وفيلكه، تعود إلى الألف الثاني ق.م، بينما تعود كتاباتها المدونة بخط المسند في بلاد اليمن أو المدونة بالخطين الآرامي والعربي في شمال غربي الجزيرة العربية إلى الألف الأول ق.م، وهي تضم في الغالب نصوصاً موجزة فقيرة بالمعلومات التاريخية المباشرة. ولعل من أسباب ذلك صعوبة الظروف البيئية التي أثرت في تأخر الاستقرار البشري قديماً، وكذلك في تأخر الاهتمام بالتنقيب الأثري حديثاً.

ولهذا كله فإن من الطبيعي أن تعتمد دراسة العلاقات بين المنطقتين – بشكل أساسي – على المصادر الرافدية؛ ولاسيما الكتابات المسمارية. وسنقوم فيما يأتي بدراسة طبيعة

العلاقات بين المنطقتين في العصور القديمة وفق تسلسلها التاريخي اعتماداً على تلك الكتابات، مع الإشارة إلى بعض الشواهد الأثرية المادية المفيدة.

العلاقات خلال الألف الثالث ق.م:

ثمّة دلائل أثرية تبين حصول استيطان بشري على سواحل الجزيرة العربية الشرقية منذ الألف السابع ق.م، وأن بحّارة بلاد الرافدين وصلوا إلى هناك في الألفين الخامس والرابع ق.م، وخلّفوا في بعض المواقع القريبة نماذج من فخارياتهم المتميزة التي تعرف بـ " فخار العبيد".

وتعدّ بلاد ديلمون (أو: تيلمون) أقدم مناطق الجزيرة العربية ذكراً في الكتابات المسمارية، والراجح بين الباحثين أنها تتطابق وجزيرة البحرين الحالية؛ وإن كان بعضهم يذهب إلى أن تسمية ديلمون كانت تدل على منطقة شمال شرقي الجزيرة العربية (البحرين، الكويت، شمال شرقي المملكة العربية السعودية).

بدأ ذكرها يتردد منذ الفترات الأولى من إبداع الكتابة المسمارية (أواخر الألف الرابع ق.م) في النصوص، ولاسيما في الوثائق الإدارية الاقتصادية. كما ذكرت معها بلاد ماجان التي يعتقد أنها شملت مناطق ساحل خليج عُمان ومضيق هرمز، وكذلك بلاد ملوخّا في شمالي خليج عُمان وعلى امتداد ساحل بلوشتسان ووادي السند في جنوبي باكستان.

تفيد الكتابات بأن ديلمون كانت منذ زمن مبكر مركزاً تجارياً وثيق الصلة بجنوبي بلاد الرافدين وبمناطق وادي السند (الهندوس). ولعل أقدم ذكر لها – حتى الآن – هو الذي يرد في مجموعة نصوص أوروك (الوركاء) العتيقة التي تؤرخ بنحو ٣٢٠٠ – ٣٠٠٠ ق.م ؛ وذلك ضمن قوائم معجمية ووثائق اقتصادية، نتبين منها نشاطاً تجارياً مع جنوبي بلاد الرافدين في مجال المعادن والحبوب والثياب [١]. ولكن أهميتها التجارية المبكرة تظهر بازدياد بدءاً من أواسط الألف الثالث ق.م، وذلك من خلال علاقاتها الوثيقة مع مدينة لجش (تل الهبة). لقد ذكرت نقوش أورنانشه ملك لجش

(نحو ٢٥٢٠ ق.م) سفناً تجارية ديلمونية، وأشارت إلى استيراد الأخشاب من هنـــاك. ويبدو أن العلاقات تطورت أكثر في النصف الأول من القرن الرابع والعشرين (نحو ٢٤٠٠ - ٢٣٥٠ ق.م) ولاسيما في عهد حكم لوجال أندا، وكان ثمة تاجر يدعى أور إنكي يلعب دوراً رئيسياً في ذلك، إذ تذكر النصوص أنه أحضر مرة ما يعادل حـــوالي مئة كغ من النحاس من ديلمون إلى زوجة الحاكم (إنزي) لجـــش[٢]، كمـــا أحـــضر النحاس للحاكم أيضاً [٣].

وهناك نص يصف الطريق بين لجش وديلمون، ويذكر أن أور إنكي نقل من ممتلكات حاكم لجش كمية من الحبوب والدقيق والمنتجات الحيوانية للمتاجرة بها في ديلمون[٤]. ويتضح من نصوص عدة أن الكتّان الديلموني كان مشهوراً ومرغوباً، وتنـــسج منـــه أثواب خاصة بالأسرة الحاكمة، ترتديها النساء في الاحتفالات الدينية الخاصـــة، مثـــل عيد الإلهة بابا [٥]. كما تؤكد نصوص تتحدث عن الأوضاع الزراعية في لجش على أهمية نوعين من الثوم يوصفان بالثوم الديلموني (في الســـومرية: sum. dilmun ki، tud. sum. dilmun ki) [٦] .

لقد كان تأسيس الإمبراطورية الأكّدية منعطفاً بارزاً في تاريخ بلاد الرافدين، ونجمـــت عنه تطورات كثيرة في المجالات المختلفة داخليـــاً وخارجيـــاً. وارتـــبط مجـــد هـــذه الإمبراطورية باسم مؤسسها الملك شرُّكين (سرجون) الذي حكم بين نحـــو ٢٣٤٠ - ٢٢٨٤ ق.م، وحيكت حول شخصيته أساطير عدة تبرز أهميته وتفرده بسمات خاصة. يؤكد شركين في النص الذي يروي فيه سيرته الذاتية على انتصاراته العـــسكرية فـــي الجهات المختلفة، ويذكر أنه فتح ديلمون شخصياً، ويقول: " خربتُ جبالاً قوية بوساطة بلطاتٍ برونزية، صعدت الجبال العليا وعبرت الجبال السفلى، حاصرت بـــلاد البحـــر ثلاث مرات، فتحت يداي ديلمون..."[٧]. كما يذكر في نقش لـــه يـــصف إنجازاتـــه العسكرية والعمرانية أنه أنشأ في عاصمته أكّد - التي لم تكتشف بعد - ميناء علـــى نهر الفرات، وشهد الميناء حركة تجارية نشطة مع مناطق الخلـــيج العربـــي بـــشكل

خاص. يقول فيه: "شرّكين ملك الجميع خاض أربعاً وثلاثين معركة، وخرج منها ظافراً. لقد دمر أسواراً حتى في مناطق شاطئ البحر، وجعل سفناً من ملوخّا وسفناً من ماجان، وسفناً من ديلمون، ترسو على الرصيف النهري لمدينة أكّد.." (٨).

كان شركين، طامحاً إلى السيادة على منطقة الشرق القديم كلها، وسارت حملاته في الاتجاهات كافةً ؛ إذ حارب مملكة إبلا في سورية، ووصلت قواته حتى بلاد الأناضول لحماية التجارة الأكدية، وأخضع بلاد سوبرتو في الشمال، وهاجم قبائل اللولوبين في الشمال الشرقي، وسار إلى شرقي الخليج العربي لمحاربة العيلاميين. وكان حفيده نرام سين (٢٢٦٠ – ٢٢٢٣ ق.م) خير من سار على خطاه، وهو يدعي أيضاً أنه " سار إلى ماجان، ووصلت يداه إلى مَنّو دَنّو ملك ماجان" (٩). ويعدّ ملك ماجان هذا من ملوك الجزيرة العربية القلائل الذين يرد ذكرهم في الكتابات المسمارية، مما يدل على شهرته وأهميته. ولعل ذلك يتوافق مع نتائج المكتشفات المهمة في موقع أم النار في عُمان، وهي تؤرخ بنحو ٢٥٠٠ – ٢٠٠٠ ق.م.

يلاحظ – بشكل عام – في نقوش الملكين الأكديين الاهتمام بمناطق الخليج العربي، والحرص على تجاوز حدود ديلمون نحو المناطق الأبعد، ولعل من أهم الدوافع إلى ذلك:

أ- الطموح إلى السيادة على مناطق الشرق القديم كلها.

ب- الأهداف الاقتصادية المتمثلة بالسعي إلى تأمين معادن ومواد لا تتوافر في بلاد الرافدين؛ ولاسيما النحاس الذي اشتهرت به ماجان، وقد كشف في عصرنا عن وجوده في عُمان. كما يعتقد أن حجر الديوريت الذي شُكّلت منه تماثيل الملوك كان يحضر من هناك أيضاً.

ج- كان الصراع السياسي مع مملكة عيلام الإيرانية على الساحل المقابل يدفع ملوك أكّد إلى تقوية نفوذهم وعلاقاتهم في الساحل الجنوبي. وكانت عيلام تعادي تلك

العلاقات؛ ولاسيما الاقتصادية، كما ينعكس بوضوح في المقاطع الأخيرة من الأسطورة السومرية المعروفة باسم " أسطورة إنكي ونظام الكون" (١٠).

يلاحظ بدءاً من مطلع عصر سلالة أور الثالثة (٢١١١ - ٢٠٠٣ ق.م) ازدياد دور مدينة أور (تل المقير) في أقصى الجنوب الرافدي، بحيث أضحت المركز الرئيس لمراقبة التجارة البحرية مع الجزيرة العربية. لقد اهتم ملوك سلالة أور بالنشاط العمراني والحياة الاقتصادية، وانصرفوا إلى تجهيز المعابد والقصور وتزيينها، مما تطلب سيطرة الدولة على التجارة الخارجية وتوسيع نطاق التجارة البحرية.

وبرزت في أور فئة من التجار التابعين للدولة، إذ كانوا يستلمون من مخازن الدولة منتجات ومواد معدنية، ويبحرون إلى مناطق الخليج، ولاسيما إلى ديلمون. ويبادلونها هناك بالنحاس والذهب والسبج (لابيس لازولي) والعاج وغيرها من المواد النفيسة. وكان قسم كبير من هذه المواد يرد إلى ديلمون من مناطق أبعد ؛ ولاسيما من ماجان وملوخا. وهكذا تحولت ديلمون إلى محطة تجارية تربط بين بلاد الرافدين والمناطق الجنوبية من ساحل الخليج العربي ووادي السند، ومن ثم ازداد السكن والاستقرار فيها، وازدهرت وكبرت مساحتها. وقد كشف في البحرين عن عدد ضخم من القبور الدائرية (أكثر من ١٥٠ قبر) التي تعود إلى أواخر الألف الثالث ومطلع الثاني ق.م، ويعتقد باحثون أن هذا العدد الضخم كان يزيد بالتأكيد على عدد سكان ديلمون، ولذلك فهم يفترضون أن أموات مناطق الخليج القريبة كانوا ينقلون للدفن في ديلمون أيضاً، وذلك لأنها كانت تمثل في أذهان الناس مكاناً مقدساً وتوصف بأنها "بوّابة الفردوس" (١١). كما كشف الأثريون في مواقع متفرقة من البحرين عن آثار من العقود الأخيرة من الألف الثالث ق.م، تمثل المرحلة الأولى من مملكة ديلمون (٢٠٥٠ - ٢٠٠٠ ق.م)، ومنها تحصينات عمرانية ومعابد عدة أبرزها معبد موقع سار ولقى أثرية متنوعة (أختام، أوزان، قطع فخارية...)، وهي تظهر في جوانب عدة تأثراً بحضارة وادي السند (الهندوسية) إلى جانب الحضارة الرافدية. وتعود إلى هذه المرحلة أقدم

الكتابات المكتشفة في ديلمون، وهي تمثل كتابة هندوسية مدونة على أختام عثر عليها في قلعة البحرين، مما يمكن أن يدل على استخدام الكتابة الهندوسية في ديلمون آنذاك ولو ضمن إطار محدد (١٢).

وثمة أسطورة سومرية طويلة (٢٧٠ سطراً) تعود نسخها المكتشفة إلى العصر الأكدي وعصر سلالة أور الثالثة، تعرف بأسطورة ديلمون أو أسطورة إنكي ونين خورساج. وهي تعد من النصوص الأدبية القديمة المتميزة بدلالاتها الرمزية وصعوبة فهمها، ولذلك برزت بين الباحثين آراء مختلفة في تفسيرها.

تتخذ الأسطورة بلاد ديلمون مسرحاً لأحداثها، مما يعبر عن مكانتها الخاصة في التصورات الذهنية لسكان بلاد الرافدين. إنها تتحدث عن الصراع بين إنكي إله الماء وزوجته نين خورساج إلهة الأرض والخلق، إذ تذكر أنهما عاشا في مطلع الأزمان على أرض ديلمون التي توصف بأنها " مكان طاهر، مكان نظيف، مكان مضيء. لا يفترس فيه الأسد ولا الذئب أحداً، لا يعرف أحد رمد العين ولا وجع الرأس، لا يشتكي الرجل من الشيخوخة، ولا تشتكي المرأة من العجز، ليس فيها منشد يندب ولا جوّال ينوح "، ثم تمضي لتبين حلول الجفاف الذي أنهى الأمان والرفاه، ونشر المرض والمنازعات. ولكن الإلهة ترجو زوجها أن ينقذ البلاد، فيجري مياهه فيها وترتوي المزروعات وتخضر الأرض، ويسود الوئام والحب بين الزوجين زمناً طويلاً، ويصير لهما خلاله حفداء. ولكن الزوج يخونها ويرتكب المعصية مع حفيدته، فتثور عليه زوجته وتلعنه لعنة مؤثرة، قائلة : " حتى آخر أيامك لن أنظر إليك نظرتي إلى الأحياء". تستوطن في جسده بتأثير اللعنة ثمانية أمراض، ويعود الجفاف ليعم البلاد. فذعرت الآلهة وراحت تبحث عن الإلهة نين خورساج، وعندما حضرت إلى مجمع الآلهة راحت الآلهة تمسك بأطراف عباءتها راجية منها إزالة أثر اللعنة والعفو عن زوجها. تستجيب الإلهة، وتحاور زوجها لمعرفة طبيعة آلامه، ثم تستولد ثماني إلهات

للشفاء بعدد أمراضه، فيسترد صحته، وتعود الحياة في بلاد ديلمون إلى حالتها السابقة[١٣].

العلاقات خلال الألف الثاني ق.م :

استقرت في بلاد الرافدين منذ أواخر الألف الثالث ق.م قبائل بدوية قادمة من أطراف البادية السورية (بادية الشام)؛ ولاسيما من المناطق المحيطة بجبل بَسَر (جبل البشري غربي مدينة دير الزور). وقد عرفت في المصادر السورية باسم مارتو، وفي الأكدية باسم أمورو (أي: الغربيين)، وهم المعروفون في المراجع العربية بالأموريين.

اختلط الأموريون بسكان بلاد الرافدين، وتأثروا بحضارتها وتفاعلوا معها، حتى أنهم صاروا يسهمون فيها. كما نمت أهميتهم السياسية والعسكرية بسرعة، وتمكن بعض أفرادهم من الوصول إلى عرش الحكم في عدد من مدن البلاد قبل انتهاء سيادة حكام سلالة أور الثالثة في البلاد؛ كما حدث في إيسين (إيشان بحريات) ولارسا (تل السنكرة) وإشنونا (تل أسمر). وتوطد حكمهم فيها أكثر بعد سقوط حكم أور.

كما ظهرت ممالك لهم في مطلع الألف الثاني ق.م في مراكز حضارية متميزة في بلاد الرافدين وسورية (بابل، آشور (قلعة الشرقاط)، شبت إنليل (تل ليلان)، ماري (تل الحريري)، خلب (حلب)، قطنا (تل المشرفة)...). وهكذا انتشرت سيادتهم في أصقاع شاسعة ودامت قروناً عدة، ولذلك يمكن عدّ العصر البابلي القديم (نحو ٢٠٠٠ – ١٦٠٠ ق.م) عصر السيادة الأمورية في بلاد الرافدين وأجزاء من سورية.

إن الوثائق الكتابية المسمارية المكتشفة التي تصور العلاقات بين بلاد الرافدين والجزيرة العربية خلال العصر البابلي القديم قليلة[١٤]، ولكنها مفيدة وتعكس استمرار العلاقات التجارية السابقة؛ ولاسيما مع ديلمون. ولعل أقدم شاهد على ذلك من بواكير هذا العصر هو ما ورد في أحد نصوص مجموعة من موقع إيسين تتحدث عن تصنيع الجلود، حيث يشير النص إلى تعبئة بضائع لإرسالها إلى ديلمون.

ومن الشواهد الأخرى مجموعة نصوص من أور، منها قوائم تتحدث عن هدايا في هيئة سبائك نحاسية مستلمة من أناس ديلمونيين، وأخرى من أشخاص عادوا من رحلة تجارية قاموا بها إلى ديلمون. ومنها تمرين مدرسي يتضمن عقداً تجارياً يرد فيه ذكر رحلة ينوي بعضهم القيام بها إلى ديلمون لشراء المعدن الذي كانوا يسمّونه " عين السمك na 4. igi. ku 6 " أي اللؤلؤ. وفي نص آخر نقرأ أن عدداً من التجار تشاركوا وجمعوا حوالي كغ واحد من الفضة، وحوالي ١٢٠٠ ليتر من السمسم، وثلاثين قطعة قماش، وهم ينوون أيضاً الإبحار إلى ديلمون لاستيراد النحاس منها. ومن النصوص المهمة نص يشير إلى وجود مراعٍ لتربية الأبقار خاصة بالديلمونيين في جنوبي مدينة أور. ويمكن أن يستخلص من ذلك نشوء مستوطنات ديلمونية في أقصى الجنوب الرافدي، كان يقيم فيها ديلمونيون اختصوا بممارسة التجارة بين المنطقتين، كما وجد بين سكان الجنوب الرافدي من اختص بذلك، وكان من أشهرهم تاجر يدعى إيا ناصر، ويتكرر ذكره في النصوص مراراً.

إن هذه الشواهد البابلية القديمة المعدودة من إيسين وأور تبين اعتماد حكام بلاد الرافدين على ديلمون في تأمين النحاس اللازم لهم. ولم يكن لهم بدّ من ذلك ؛ طالما أن العلاقات مع مملكة عيلام على الساحل المقابل ظلت متوترة، ونظراً لصعوبة الوصول إلى جزيرة ألاشيا (قبرص)، لبعد المسافة ووجود كيانات سياسية أخرى في المناطق السورية. ويبدو أن مدن الجنوب كانت تلعب دور الوسيط في ذلك نظراً لقربها الجغرافي، ومنها توزع المواد المستوردة إلى المناطق الوسطى والشمالية من البلاد. ولهذا خلت نصوص تلك المناطق ؛ مثل نصوص بابل وإشنونا، من إشارة إلى علاقات مع ديلمون أو غيرها من مناطق الخليج العربي.

ولكن اللافت للانتباه هو حصول علاقات مباشرة خلال القرن الثامن عشر ق.م بين ديلمون ومملكة ماري التي أسسها الأموريون في الجزء السوري الحالي من الجزيرة الفراتية، وشملت معظم مناطق مجرى الفرات الأوسط ومجرى الخابور وأجزاء من

الجزيرة العليا. وكان شمشي أدد الأول الأموري (١٨٠٨ - ١٧٧٦ ق.م)، قد اضطر إلى هجر موطنه قرب ماري، وقصد المناطق القريبة من آشور، ثم تمكن من الاستيلاء على عرش الحكم فيها. وقام بإعادة بناء مدينة شبت إنليل، وجعلها عاصمة ثانية له، وكلف ابنه يسمخ أدد بحكم ماري، وبذلك أنشأ إمبراطورية واسعة النطاق نسبياً في شمالي بلاد الرافدين. ولكنها لم تدم طويلاً لارتباطها بقوة شخصيته، ولذلك انهارت بعد موته.

لقد كشف الأثاريون الفرنسيون في ماري عن آلاف النصوص الكتابية المسمارية التي تصور أوضاع المملكة خلال القرن الثامن عشر ق.م، ومنها ستة نصوص (خمس رسائل ووثيقة إدارية) تعكس العلاقات بين إمبراطورية شمشي أدد وبلاد ديلمون.

نقرأ في الرسالة الأقدم، التي كتبها يسمخ أدد حاكم ماري إلى حمورابي ملك بابل، أن قافلة أرسلها أبوه إلى ديلمون منذ زمن قد تعرضت في طريق الإياب لمشاكل بسبب استخدامها موضع ماء، وتم احتجازها. ويرجو الملك البابلي التدخل وتأمين قيادة موثوقة للقافلة لإيصالها إليه في بابل بأمان (١٥). وفي رسالة ثانية يعلم يسمخ أدد أباه بوصول بعثة من ديلمون تضم مبعوثين ذوي مكانة عالية، وذلك برفقة المبعوثين الذين كان أبوه قد أرسلهم إلى ديلمون. إنهم سيستريحون فترة عنده في ماري، ثم يتابعون سفره إليه في شبت إنليل (١٦).

أما شمشي أدد فقد كتب رسالة إلى ابنه في ماري متسائلاً عن الديلمونيين المقيمين عنده، وعن أن أحدهم قد أخطأ التصرف إذ تسلل إلى أحد البيوت وسرق تمراً فاستحق العقاب بالضرب، ويطلب منه أن يرسل إليه ذلك الرجل فوراً (١٧).

ويحدث ابنه في رسالة ثانية إليه عن بعثة ديلمونية كانت عنده في شبت إنليل، وعن أنها واجهت صعوبات عند بدء انطلاقها نحو ماري، فاضطر إلى تكليف عشرة رجال من شبت إنليل لمرافقتها. إنه منشغل البال لأن استضافة هذه البعثة كلفته وستكلفه الكثير، فلابدّ من أن تستريح في ماري، وسيقوم وجهاء المدينة برعايتها، وسيؤثر ذلك

فيما يقدمه أولئك الوجهاء لـــه، ولاسيما أن البعثة الديلمونية ضخمة إذ تــضم خــدماً وحرفيين كثيرين... [١٨]. وفي رسالة ثالثة يوجه ابنه بأن يقدم لرسل الملك الديلموني جرة مزخرفة متميزة ومليئة بالزيت [١٩].

يتضح من هذه الرسائل قيام علاقات بين إمبراطورية شمشي أدد وبلاد ديلمون، وهي لم تكن ذات طابع تجاري فحسب ؛ بل كان لها بعد سياسي دبلوماسي أيضاً. ولعل ذلك يندرج ضمن إطار الفكر السياسي الإمبراطوري الذي برز لدى شمشي أدد في أواخر عهده، إذ أراد السير على نهج ملوك أكَد، وأن يكون " ملك العالم " كما وصف نفـــسه في بعض نقوشه.

ويرى بعض الباحثين أن سيادة الأموريين على أجزاء واسعة من مناطق الشرق القديم في مطلع الألف الثاني ق.م ربما دفعتهم إلى ديلمون أيضاً، وسادوا فيها خلال المرحلة الثانية من تاريخ مملكة ديلمون (حوالي ٢٠٠٠ – ١٧٠٠٠ ق.م). وثمة قرائن تـــدل على ازدياد الوجود الأموري فيها آنذاك، فقد عثر في الجنوب الرافدي على مجموعـــة نصوص تذكر أسماء أشخاص أموريين لهم صلة بديلمون، كما أن مجموعة الكتابـــات المسمارية المكتشفة في البحرين وفيلكه تتضمن أسماء أمورية كثيرة [٢٠]. ولاشك في أن هذا الرأي يتطلب شواهد أوفر، وإن صحّ فهو يوحي بأن حرص شمشي أدد علـــى توثيق العلاقات مع حكام ديلمون رغم المسافة الشاسعة التي تفصل بلاده عنها ربمـــا كان نابعاً من شعور بوحدة الأصل ؛ إضافة إلى مصلحته الاقتصادية فيها كمنفذ بحري مفيد وغني بمواد ضرورية، ولاسيما أن تواصله مع عالم البحر الأبيض المتوسط من خلال صداقته مع ملوك قطنا لم يكن مضموناً تماماً، بسبب الأخطار التي كانت تشكلها مملكة يَمْخد (حلب) تجاه ملوك قطنا وتجاهه، وهي التي كانت تأوي زمري لــيم ألــدّ أعدائه، وتسعى لإعادته إلى عرش ماري بعد أن أبعد عنه. ولـــذلك يمكـــن وصـــف علاقاته مع ديلمون بأنها كانت ذات طابع دبلوماسي، وترمي إلى أهداف بعيدة المدى.

وتدل آثار العصر البابلي القديم المكتشفة في البحرين (قلعة البحرين، معبد بربار، سار...) على ازدهار البلاد واستمرار التمازج الحضاري فيها خلال هذا العصر، إذ تظهر فيها التأثيرات السندية والهندية والرافدية ؛ ولاسيما في المشاهد المصورة على الأختام المسطحة. ويلاحظ في الوقت نفسه ظهور نماذج جديدة من الأختام التي تصور مشاهد شعائرية وأسطورية تبدي تشابهاً مع نماذج سورية، ولعل ذلك يرتبط أيضاً بامتداد النفوذ الأموري إليها.

ازداد تغلغل الكاشيين من سلسلة جبال زغروس في بلاد بابل خلال أواخر القرن الثامن عشر ق.م، وصاروا يشكلون خطراً على مملكة بابل في عهود خلفاء ملكها الشهير حمورابي. كما نشبت تمردات على بابل في الجنوب، مما أسهم في انقسام المملكة وتواتر ضعفها خلال القرن السابع عشر ق.م، وجعل ملوكها يهملون الاهتمام بالعلاقات الخارجية، فضعفت بمرور الزمن. وكان احتلال الحثيين العاصمة بابل في ١٥٩٥ ق.م منعطفاً بارزاً في تاريخ البلاد. إذ تحول حكم البلاد على إثره إلى الكاشيين، ودام ذلك حتى منتصف القرن الثاني عشر ق.م ؛ أي قرابة أربعة قرون ونصف، وهو العصر الذي يعرف بالكاشي أو البابلي الوسيط.

تأثرت علاقات مناطق الساحل الشرقي للجزيرة العربية بهذه الأوضاع السياسية المستجدة في بلاد بابل، وضعف التواصل التجاري بينهما. فقد اختفى منذ أواسط الألف الثاني ق.م ذكر بلاد ماجان من المصادر الكتابية، وصار اسم ملوخا، لا يدل على المنطقة السابقة بل على مناطق في شمال شرقي أفريقيا (الحبشة، الصومال) يستورد منها الذهب. أما ديلمون فلم تعد تذكر إلا قليلاً، ويعتقد أنها أضحت – بشكل من الأشكال – خاضعة لنفوذ الحكم الكاشي[٢١].

ولعل من أبرز الوثائق الكتابية ذات الصلة بعلاقات بلادي بابل وديلمون آنذاك رسالتان كشف عنهما في نيبور[٢٢]. لقد أرسلهما إيلي إبَّشْرا حاكم ديلمون البابلي، إلى إيليا حاكم نيبور في عهد الملك الكاشي بورنابورياش الثاني (١٣٥٩– ١٣٣٣) ق.م،

يعلمه فيهما بأنهم تعرضوا لغارتين مفاجئتين لمجموعات من البدو " الأخلامو " الذين يقومون بسرقة التمر، كما يحدثه عن إنجاز بناء قصر أو معبد، وعن أعمال إصلاح تمت في معبد، وغير ذلك، ويدعو له بأن يحفظه الإلهان إنْزَك ومِسْكيلاك.

وقد استخلص باحثون منهما أن بلاد ديلمون المشهورة في نصوص أخرى أيضاً بتمورها كانت تشمل أجزاء مقابلة من شمال شرقي المملكة العربية السعودية (الأحساء)؛ حيث توجد واحات النخيل في قطيف والهفوف. وكانت هذه المنطقة تعرف لدى الديلمونيين باسم أجاروم Agarum، وورد ذكرها في المصادر الكلاسيكية – مثل كتابات سترابو – باسم Agraioi، ويعتقد أن مركزها كان في الموقع الحالي " الهَجَر " في الأحساء (٢٣). كما أن الدعاء الموجه إلى الإله إنزك وقرينته الإلهة مسكيلاك، يشير إلى أنهما كانا الإلهين الرئيسين المعبودين في بلاد ديلمون.

وثمة كتابات مسمارية عثر عليها في جزيرة فيلكه، تبلغ نحو ثلاثين نقشاً قصيراً مدوناً على رقم طينية وكسر حجرية وأوان فخارية وأختام، ويعود معظمها إلى العصر الكاشي؛ وإن كان من الصعب تأريخ بعض منها. يرد فيها ذكر اسم الإله إنزك، ويوصف بأنه "إله أجارو" أيضاً. ومما يؤكد مكانته الهامة في فيلكه الكشف في موقع تل سعد، عن معبد ذي ثلاث سويات كان مخصصاً لعبادته. وقد دفع هذا بعض الباحثين إلى القول بأن فيلكه صارت عاصمة بلاد ديلمون خلال هذا العصر، ولكنه أمر مستبعد نظراً لوجود وثائق كتابية تدلل على أن ديلمون (قلعة البحرين) ظلت مركزاً رئيساً للبلاد (٢٤).

كما عثر في البحرين أيضاً على كتابات مسمارية تعود إلى هذا العصر. وتعدّ من أبرزها الكتابة التي وجدها الضابط الإنجليزي دوران Durand منقوشة على حجر بازلتي كان يمثل على الأرجح الجزء السفلي من تمثال أو إناء، وذلك في سنة ١٨٧٩م، وقد نقله إلى منزله في لندن، ويرجح أنه دمر وفقد خلال الحرب العالمية الثانية (٢٥).

يتضح من صورة النقش الباقية أنه مؤلف من أربعة سطور، وإلى جانبها نحتت صورة سعف النخيل الذي كان شعاراً للإله إنزك المذكور في النقش. وقد جاء فيه ما يأتي (٢٦) :

É. GAL Ri - mu - um ÌR ^{d}In - za - ak šá A - ga - rum

"(إلى؟) قصر ريمم خادم الإله إنزك (إله) أجاروم".

ويرى بوتز K. Butz أن التشكيل الفني (تمثال أو إناء) الذي وصلنا جزء منه كان يخص الملك ريمم، وقد أرسل إليه في مدينة ديلمون كهدية من مدينة أجاروم. ولعل في ذلك إشارة إلى أن نطاق بلاد ديلمون آنذاك – على الأقل – كان يمتد خارج الجزيرة إلى مناطق اليابسة المقابلة غرباً.

أما بلاد آشور في شمالي بلاد الرافدين فقد كانت مستقلة في مطلع عصر السيادة الكاشية، وقامت فيها مملكة صغيرة يصطلح على تسميتها بالمملكة الآشورية الوسطى، ودام وجودها خلال العصر الآشوري الوسيط (نحو ١٥٠٠ – ٩١٢ ق.م). كانت هذه المملكة قائمة غالباً في ظل سيادة المملكة الحورية – الميتانية، على معظم المناطق الشمالية الغربية وأجزاء شمالية من بلاد الرافدين، انطلاقاً من عاصمتها وشوكاني، عند ينابيع نهر الخابور. وقد عانى حكام آشور من جراء محاولاتهم الاستقلال عن التبعية للمملكة الحورية – الميتانية، وخلافاتهم الحدودية شبه الدائمة مع الكاشيين. وقد دفعهم ذلك إلى تحسين علاقاتهم بمصر، التي كانت تحارب اتساع النفوذ الحوري في سورية، وإلى عقد مصاهرات مع ملوك بابل الكاشيين أحياناً بغية تهدئة الصراع. ولكن أوضاع المملكة لم تستقر وتتحسن حتى القرن الثالث عشر ق.م، عندما ضعف الخصمان المذكوران، وبرز ذلك بوضوح خلال فترة من حكم ملك آشور توكولتي نينورتا الأول (١٢٤٣ – ١٢٠٧ ق.م)، الذي وسع نطاق مملكته ووصل حتى أرمينيا وكركميش والخليج العربي، واحتل بابل. ولكن ذلك لم يدم طويلاً، وعادت المملكة إلى ضعفها بعد موته. ثم ظهر في أواخر القرن الثاني عشر ق.م ملك قوي آخر هو تجلت فليسر الأول (١١١٢ – ١٠٧٤ ق.م)، واستطاع أن يعيد للمملكة استقلالها وسيادتها

في جهات مختلفة، ولكنها عادت وضعفت بعد اغتياله، ولم ينجح خلفاؤه في الحفاظ على ما حققه، بل انفصلت عنها أقاليم كثيرة، وتتالى ضعفها وازداد حتى نهاية هذا العصر.

ولاشك في أن هذه الأوضاع المضطربة والانشغال بتوطيد الشؤون الداخلية لم يدع مجالاً لملوك آشور كي يمارسوا نشاطاً ويقيموا علاقات خارجية، ولاسيما مع منطقة الجزيرة العربية التي تفصلها عنها مناطق السيادة الكاشية أو الخاضعة للنفوذ الكاشي. ولهذا لانجد في الكتابات الآشورية سوى ذكر عابر لديلمون ضمن سياق افتخار الملك توكولتي نينورتا الأول باحتلاله بابل، وبأنه أوصل حدود بلاده حتى البحر السفلي (الخليج العربي) حيث تشرق الشمس... كما نجد في الكتابات غير الرسمية، أي التي لم تكن ذات صلة بالقصر الملكي ومجرياته، بل تعبّر عن اهتمامات ثقافية عامة، إشارات إلى ديلمون، كما في المصنف المعجمي المعروف باسم Har.ra = hubullu حيث يذكر نخيل ديلمون وتمرها ونحاسها وسفنها ضمن الأنواع المختلفة التي أوردها، وكما في القوائم الخاصة بأسماء الآلهة حيث يذكر إنزك الإله الديلموني الرئيس.

لقد شهد النصف الثاني من الألف الثاني تحولات طارئة جديدة في بلاد الرافدين، فتأثرت بها العلاقات مع الجزيرة العربية، وتزامن ذلك – من ناحية ثانية – مع ضعف مراكز حضارة الهارابا في وادي السند، فتقلصت تجارتها البحرية إلى حد كبير. وكان لاستمرار هذا الوضع دوره في ظهور نهضة تجارية برية في الجزيرة العربية بدءاً من أواخر الألف الثاني ق.م؛ ولاسيما بعد اتساع نطاق تربية الجمل (ذي السنام الواحد Dromedar) من قبل سكان الواحات المتفرقة والبدو المتنقلين في شمالي الجزيرة العربية، والاستفادة منه في عملية نقل البضائع لمسافات طويلة، نظرا لقدرة الجمل على تحمل الجوع والعطش أياماً ولتمتعه بقوة عضلية متميزة، ومن ثم فقد كان وسيلة نقل تجارية مناسبة ضمن إطار الظروف البيئية الخاصة في الجزيرة العربية. وسنجد

أن هذا التحول من البحر إلى البر سينعكس تأثيره بوضوح في طبيعة العلاقـات مـع بلاد الرافدين خلال الألف الأول ق.م.

العلاقات خلال الألف الأول ق.م (حتى ٥٣٩ ق.م) :

شهدت فترة الانتقال إلى الألف الأول ق.م تغيرات سياسية وإثنية واضحة في منـاطق الشرق القديم عامةً، إذ انتهت المملكة الحثية في بلاد الأناضـول وزال نفوذهـا فـي شمالي سورية، كما انتهت السيادة المصرية في سورية الداخليـة وفلـسطين، وظـل الآشوريون سادة بلاد الرافدين ويكافحون من أجل تثبيت أركان حكمهم. ومن جانـب آخر قوي شأن المجموعات البدوية وشبه البدوية (الآرامية والعربيـة) فـي أطـراف البادية العربية – السورية، وبدأت تنتقل إلى المناطق الحـضارية المجـاورة وتحتـك بسكانها وتسعى إلى الاستقرار. وفي الوقت نفسه بدأ الآشوريون يسعون إلى فـرض نفوذهم على مناطق البادية التي تمر بها طرق القوافل التجارية، ويـسيّرون حمـلات متكررة إليها. ولهذا اضطرت القبائل العربية إلى البحث عن وسائل لحماية كياناتهـا، فكان التحالف مع الآراميين الذين ماثلوهم في طبيعة الحياة الاجتماعية.

بدأ ذكر العرب يتردد في الكتابات المسمارية بدءاً من أواسط القرن التاسع ق.م، وذلك باسم أريبي A-ri-bi، أربايا Ar-ba-a-a. ويعد نقش شلمنصر الثالـث (٨٥٨ – ٨٢٤ ق.م) أقدم شاهد كتابي يرد فيه ذكرهم، وهو نقش يتضمن تقريراً عن انتصار الملـك الآشوري في معركة جرت في موقع قرقر (حالياً : خربة قرقور قرب مدينـة جـسر الشغور في شمالي سورية)، وذلك في سنة ٨٥٣ ق.م، على تحالف ضم عدة ممالـك آرامية بزعامة ملك دمشق، وشارك في التحالف شيخ عربي يدعى جنديبو أو جنـدب، وأسهم في المعركة بألف جمل ؛ أي بألف مقاتل على جمالهم. وتعد هذه أول دليل على استخدام الجمال في المعارك (٢٧).

وبعد أكثر من قرن زحف الملك الآشوري تجلت فليسر الثالـث (٧٤٥ – ٧٢٧ ق.م) إلى سورية أيضاً، وذلك بغية مواجهة الحلف الذي شكله ضده رزون ملـك دمـشق،

وكان ضمن الحلف ملكة عربية تدعى زبيبة Za-bi-bi-e التي كانت كاهنة وتتزعم قبيلة قيدار المنتشرة في شمالي الحجاز. وقد تمكن الملك الآشوري من إخضاع دمشق سنة ٧٣٢ ق.م، ونصب عليها حاكماً آشورياً (٢٨).

ويمكن أن يستخلص من هذين الشاهدين أن قبائل شمالي الجزيرة العربية كانت تتوسع في المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من دمشق، ويبدو أنها رأت في الآراميين هناك حليفاً يمكن الاعتماد عليه في مواجهة الأخطار الآشورية المتزايدة.

وتشير المصادر إلى أن ملكة عربية أخرى اسمها شمس أو شمسه قادت في ٧٣٢ ق.م تحالفاً عربياً ضد الآشوريين، وشاركت فيه قبائل تيماء، وأسأ Asa'a، وخيبا Hajappa وبدنا، Bedena وسبئيين(٢٩). وقد نال منها الآشوريون وفرضوا عليها قبول وجود مراقب آشوري إلى جانبها وتقديم عشرة آلاف مقاتل للجيش الآشوري، ودفع جزية ضخمة، وعندما رفضت ذلك حاربوها بضراوة وضيقوا عليها الخناق حتى صارت وقومها مهددين بالموت جوعاً، فأذعنت لهم.

ولاشك في أن ذكر السبئيين هنا لافت للانتباه، والراجح أن ذلك يدل على جاليات يمنية قديمة انتقلت إلى شمال غربي الجزيرة العربية في وقت مبكر خلال ممارستها أعمال التجارة بين الجنوب والشمال. ومن المعروف أنه كانت هناك طريق تجارية بدءاً من ميناء قنأ على بحر العرب، ثم تمر شمالاً بشبوة، ومارب، وقرناو، ونجرا، ومكة، ويثرب، ومدائن صالح، حتى تيماء، وتتفرع بعد ذلك إلى فرعين؛ فرع يتجه نحو بابل وآخر نحو البتراء، وغزة، أو البتراء وبصرى. وبمرور الزمن استقرت على هذا الطريق حاميات وجاليات معينية، وأسهم ذلك في التزاوج والاختلاط بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وقد أقامت أكبر الجاليات المعينية الجنوبية في واحة العلا شمالي يثرب (٣٠).

ويعود أقدم ذكر لدولة سبأ اليمنية في الكتابات المسمارية إلى عهد الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨ – ٨٢٤ ق.م)، وذلك في نقش له يؤرخ بسنة ٨٣٨ ق.م،

ويذكر أنه: أُحضرت جمال وخيول ونباتات عطرية وأحجار نفيسة وغير ذلك من سبأ إلى بلاد آشور (٣١).

لو تتبعنا النقوش الملكية الآشورية الحديثة سنلحظ بوضوح ازدياد الحديث فيها عن العرب والجزيرة العربية بدءاً من عصر حكم السلالة السرجونية، وأول ملوكها شَرُكين (سرجون) الثاني (٧٢١ – ٧٠٥ ق.م)؛ أي من أواخر القرن الثامن ق.م. ويتزامن ذلك مع ازدياد الدور السياسي للقبائل العربية، وتحولها إلى قوة يحسب لها حساب لدى ملوك آشور، ويشمل ذلك بشكل خاص عرب مناطق الحجاز الذين انتشروا من هناك نحو أطراف البادية السورية وبلاد بابل.

أما مناطق الساحل الشرقي للجزيرة العربية فكانت ذات وضع مختلف، ويبدو أنها خضعت للنفوذ الآشوري، ونشأت بينهما علاقات حسنة تخدم مصلحة الطرفين سياسياً واقتصادياً. بينما بقيت مناطق اليمن بعيدة عن مرامي ملوك آشور، وإن كان بعض حكام الممالك اليمنية قد حرصوا على إرضائهم بإرسال الهدايا لهم.

لا نجد في نقوش شركين الثاني شيئاً مفيداً عن أوضاع شمالي الجزيرة العربية، ولكنها تشير إلى أن ديلمون (البحرين)، صارت من الناحية السياسية ضمن مجال النفوذ الآشوري، وتجددت الحركة التجارية بين الطرفين، وهو يؤكد في نقوشه على تبعية أُبري U-pe-ri ملك ديلمون له، ويقول في أحد نقوشه : " أبري ملك ديلمون، الذي يقع موطن إقامته على بعد ثلاثين ساعة مضاعفة، وفي وسط البحر كسمكة، سمع عن عظمة سيادتي، فأحضر هداياه " (٣٢). وثمة شاهد وحيد ضمن نقوشه يرد فيه ذكر سبأ، ويعود إلى سنة ٧١٤ ق.م، وفيه يشير إلى أنه تلقى من يثع أمر السبئي، هدية أو جزية من الذهب والأحجار النفيسة والأعشاب (٣٣).

وتعود إلى هذه الفترة (أواخر القرن الثامن – بداية السابع ق.م) نقوش عربية عثر عليها في مواقع متفرقة من بلاد الرافدين (أور، نيبور، أوروك، أبو صلابيخ، عانا)، ويمثل الخط المستخدم في تدوينها الخط العربي المبكر Proto-Arabic، وبينها

نقوش تعود إلى القرون الثلاثة التالية [٣٤]. كما توجد رسالتان من عهد شركين، تتحدثان عن غارات عربية من البادية على مناطق مجرى الفرات الأوسط (سيبار، سوخي، خيندانو)، تؤرخان بسنة ٧١٦ ق.م [٣٥]. ويلاحظ في أسماء عدد من مدن بلاد بابل في هذه الفترة أنها ذات صيغة عربية ؛ ولاسيما الواقعة في مناطق الإمارات الآرامية التي ظهرت في الجنوب، مثل إمارة بيت دكوري (جنوبي مدينة بابل، وكان مركزها في بورسيا (حالياً برص نمرود). وبيت أموكاني (ومركزها مدينة أوروك حاليا الوركاء، قرب السماوة))، والراجح أن العرب استقروا وسادوا في تلك المدن، وبدلوا أسماءها. وتشكل هذه الشواهد المختلفة دليلاً على بواكير التغلغل العربي في مناطق بلاد بابل المقابلة لبادية السماوة، وعلى طول نهر الفرات، وذلك بقصد الاستقرار أو ممارسة التجارة أو كليهما خلال عهد شركين الثاني.

أما نقوش ابنه وخليفه سنحريب (٧٠٤ – ٦٨١ ق.م)، فتتضمن أيضاً إشارات إلى طبيعة العلاقة بين إمبراطورية آشور والقبائل العربية. ففي نقش له يوثق حملته الأولى ضد الكلديين في الجنوب (سنة ٧٠٣ ق.م)، نقرأ أنه كان من بين خصومه باسقانو شقيق ملكة العرب المدعوة يتيئه (يثعه؟) [٣٦]، ويدل ذلك على استمرار التحالف بين الكلديين الآراميين والعرب. كما يرد في نقش آخر أنه اضطر في سنة ٦٨٩ ق.م إلى القيام بحملة ضد ملكة عربية أخرى تدعى تئيل خونو Te-'-el-hu-nu ، كانت متحالفة مع حزائيل زعيم قبيلة قيدار، وطاردهما حتى دومة (الجندل). ويبدو أنه لم يستطع إخضاع تلك القوة العربية في الحجاز إلا بعد نحو ثلاث عشرة سنة (أي في نحو ٦٧٧ ق.م) [٣٧]. ولاشك في أن ذلك يعكس حجم قوتها العسكرية ومدى الخطر الذي كانت تشكله على الملك الآشوري.

أما ديلمون فتذكر مرة واحدة في نقوشه، وذلك في النقش الذي يصف فيه الدمار الذي ألحقه بمدينة بابل عندما احتلها سنة ٦٨٩ ق.م. وهو مصوغ باسلوب أدبي، ويتضمن إشارة إلى تأييد ديلمون له، يقول فيه : " عبارها (أي مدينة بابل) وصل إلى ديلمون.

رآه الديلمونيون، فسيطر عليهم الخوف من قوة آشور، وأحضروا إلي هداياهم. ومع هداياهم أرسلوا حرفيين وجند بلادهم وأداة رفع السلال وجاروفاً برونزياً وإزميلاً برونزياً وأدواتٍ من مصنوعات بلادهم، وذلك لإزالة الخراب في بابل " [٣٨].

كما إن آخر الشواهد الكتابات المسمارية على مملكة سبأ اليمنية، هو نقشه الذي يعود إلى سنة ٦٨٥ ق.م، وقد ورد فيه أنه أقام احتفالاً بمناسبة وضع حجر الأساس لبناء بيت أكيتو – ، وهو مبنى كان يقام عادة في المدن الرئيسة، وتقام فيه الاحتفالات؛ ولاسيما احتفال رأس السنة –، وقد استقبل فيه مندوباً من الحاكم السبئي كريبي إيلو (كرب إيل وتر)، وجلب معه هدايا من المعادن الثمينة والأحجار النفيسة والطيوب. وقام بوضع قسم من تلك الهدايا في أساس المبنى [٣٩]. والراجح أن تلك الهدايا كانت تعبيراً عن التفاهم ووسيلة لضمان استمرار التجارة اليمنية مع بلاد آشور.

وتذكر مصادر عهد ابنه أسرحدون (٦٨٠ – ٦٦٩ ق.م)، أن الملك الآشوري عيّن أميرة عربية نشأت في قصر والده، وتدعى تاربوا، ملكة على العرب، وأنه عفا عن ملك مدينة يدعى بادع استطاع أن يهرب من وجه جيوش أسرحدون في إحدى حملاته، ثم عينه ملكاً على بلاد بازو [٤٠].

ويتضح من نقوشه أن مناطق الساحل الشرقي للجزيرة العربية كانت مرتبطة بالحكم الآشوري بشكل من الأشكال، ويؤكد ذلك في نقش له من مدينة آشور [٤١]. ويذكر في نقش آخر يعود إلى سنة ٦٧٥ ق.م أنه قام بحملة تأديبية إلى تلك المناطق، إذ يقول: "لقد احتليت بلاد بازو الواقعة في مكان بعيد، وفرضت على قانا ملك ديلمون الجزية"، وتوصف بلاد بازو بأنها صحراوية، مالحة الأراضي، موطن للعطش، صحراء مترامية الأطراف مليئة بالثعابين والعقارب، والنمل يغطي سطح أرضها [٤٢]. وقد اختلف الباحثون في تحديد موقع بلاد بازو تحديداً دقيقاً، ولكن يفهم من النص أنها كانت في شمالي الساحل الغربي للخليج العربي، وتشمل منطقة الأحساء تقريباً. أما

الملك قانا فهو ثاني ملوك ديلمون – بعد أبري –، الذين ترد أسماؤهم في الكتابات المسمارية.

يزداد الحديث عن العلاقات مع الجزيرة العربية في مصادر عهد آشور بانيبال (٦٦٨ – ٦٢٧ ق.م) آخر ملوك الإمبراطورية الآشورية الأقوياء، ويتضح فيها ازدياد دور القبائل العربية في أحداث جنوبي بلاد بابل أكثر من ذي قبل. وهي تكثر من ذكر أسماء زعماء القبائل العربية، ولاسيما قبيلة قيدار الحجازية، ومنهم : أبي يتيء (يثع ؟) A-bi-ia-te-' زعيم قيدار، واتيء (واثع؟) Ua-a-te-' بن بردادا " ملك بلاد العرب "، واتيء بن حزائيل الذي يظهر في معاهدة وقّعت بين آشور بانيبال والقيداريين(٤٣).

وتسجل كتاباته أخبار صراعه مع أخيه شمش شُم أُكين الذي كان يحكم في بابل، ولكنه لم يكن راضياً بذلك، ويسعى إلى إيجاد حلفاء له للتمرد على أخيه الملك في آشور. وكان معظم حلفائه هم سكان مدينة بابل والآراميين المنتشرين في جنوبي البلاد والقبائل العربية الموجودة في البادية (بادية السماوة). وتذكر كتاباته أنه زحف إلى بابل سنة ٦٥٠ ق.م وحاصرها، ولكنه لم يستطيع اقتحام أسوارها المنيعة، واضطر إلى الانتظار نحو سنتين حتى هدّ الجوع قوى المدافعين عنها، ثم دخلها سنة ٦٤٨ ق.م. وفضّل أخوه الحاكم الانتحار حرقاً في قصره.

خلال فترة الحصار حاولت بعض القبائل العربية فك الحصار، وهاجمت الآشوريين على ظهور الجمال، ولكنها ردّت على أعقابها. وأثارت قبائل أخرى اضطرابات في البادية السورية وعلى أطرافها، وهاجمت حاميات آشورية في سورية وبعض المدن الفلسطينية، فقرر آشور بانيبال تكليف الحاكم الآشوري في دمشق بالقصاص منها، وشرعت القوات الآشورية بحرق مخيماتها في أنحاء شتى، ونهبت الجمال والمواشي. ويبدو أن أحد زعماء العرب – وهو يوثع – اضطر للهرب إلى بلاد الأنباط، وقام

ملكها بتسليمه للآشوريين خوفاً من بطشهم، وقبض الجنود على زوجته أديّة، كما أمكن القبض على زعيم قبيلة قيدار العربية [٤٤].

ونجد تصويراً لحروب آشور بانيبال ضد القبائل العربية في منحوتات عثر عليها في قصره الجديد (الشمالي) في نينوى، وهي تصور العرب على ظهور جمالهم، كل اثنين على جمل (قائد ورام)، وهم يهربون من الجيش الآشوري، وبعضهم قتلى مطروحون على الأرض وآخرون جرحى يتوسلون الرحمة.

وتذكر نقوش آشور بانيبال أن ديلمون[٤٥] كانت ضمن مناطق السيادة الآشورية، وتقدم له الجزية. وقد جاء في نقش له من نينوى: " خندارو ملك ديلمون أرعبه الخوف من آشور ومليسو الإلهين اللذين اعتمد عليهما. ومع جزيته الضخمة... جاء إلى نينوى سنوياً دون انقطاع وعظّم سيادتي ". وخندارو هو آخر ملوك ديلمون المذكورين في الكتابات المسمارية.

كما تشير نقوشه إلى حكام مناطق أخرى على ساحل الخليج تبعوا لسلطته، مثل : حاكم كوبو، بادي pa-di-e ملك بلاد قادي Qa-di-e [٤٦] المقيم في مدينة إسكي Is-ki-e (أو إسقي، إزكي، أزقي..)، شيلو ملك بلاد خَزْماني الواقعة قرب ديلمون، وسط البحر، ويعتقد بعض الباحثين أنها شبه جزيرة قَطَر.

وثمة رسالتان مرسلتان إلى آشور بانيبال من جِل إبني الذي كان يمثّل الملك في جنوبي بابل، وكان في الوقت نفسه بمنزلة المسؤول عن ملف مناطق ساحل الخليج العربي. يخبر الملك في الرسالة الأولى بأن أُدرو رسول خندارو ملك ديلمون أحضر جزية ديلمون السنوية. وقد قام باستقباله، ثم نقله إلى البلاط الملكي. ويعدد للملك في رسالته الثانية مواد أحضرت من ديلمون؛ من بينها الكحل (في الأكدية guhlu) وكمية من البرونز وقرون الأغنام البرية.

كما توجد رسالة وجهها آشور بانيبال إلى خندارو ملك ديلمون، ولكنها وصلتنا في حالة ناقصة. ومما جاء فيها تأكيد الملك الآشوري على أن السيادة الملكية لخندارو هي

من نعمه وأفضاله عليه، يقول له : " ألا تعلم بأني أمنحك شرف الحكم في ديلمون ! وبأنك تجلس فيها وتعيش بفضل حمايتي ! لذا يتوجب عليك أن تؤدي واجبك نحوي بحرص وبشكل مناسب ". والراجح أن الواجب المطلوب منه هو ضرورة أن يسهم في القضاء على خصوم الملك في جنوبي بلاد بابل، وأن يوقف علاقاته التجارية مع عيلام المعادية له.

من المعروف في تاريخ بلاد الرافدين أن ابني آشور بانيبال اللذين تعاقبا على الحكم بعده لم يستطيعا الحفاظ على الإمبراطورية العظمى، وتفككت وحدتها، وضعفت بتأثير نشوء مملكة بابل الكلدية (الحديثة) على يد نبو بولصّر (٦٢٥ – ٦٠٥ ق.م) وتحالفها مع الميديين سكان إقليم كردستان آنذاك. وقد أدى ذلك التحالف إلى سقوط الإمبراطورية الآشورية في ٦١٢ ق.م واقتسام السيادة في بلاد الرافدين بين الميديين في الشمال والكلديين الآراميين في الوسط والجنوب.

ويلاحظ في أحداث عهد نبو بولصر وابنه نبوخذ نصّر الثاني (٦٠٤ – ٥٦٢ ق.م) هدوء العلاقات مع الجزيرة العربية، وانشغالهما بتوطيد الحكم الداخلي وباحتلال سورية وطرد الحاميات المصرية الموجودة فيها. وقد تجاوز نبوخذ نصر الأراضي السورية أكثر من مرة قاصداً مناطق لبنان وفلسطين ومصر، ومن ضمن ما قام به خلال ذلك أنه حارب سنة ٥٩٩ ق.م قبيلة قيدار الحجازية المتحالفة مع المصريين.

وثمة إشارات في المصادر البابلية الحديثة تبين أن ديلمون كانت آنذاك إقليماً بابلياً، ولكن لا يمكن الجزم بالمقصود من ذلك تماماً ؛ ولاسيما أن معظم الشواهد المتوافرة تتحدث عن زراعة النخيل والتمر الديلموني الشهير بأنواعه المختلفة، ويستخلص منها أن زراعة النخيل المستورد من ديلمون كانت شائعة في جنوبي بلاد بابل. ومن ناحية ثانية فإن المكتشفات الأثرية في البحرين (ديلمون) لا تتضمن من آثار هذا العصر سوى مَجموعة من القبور.

ولعل آخر ما يجب الحديث عنه في موضوع هذا البحث هو العلاقة الخاصة التي نشأت بين نبونئيد آخر ملوك مملكة بابل الكلدية (الحديثة) (٥٥٥ – ٥٣٩ ق.م)، وشمالي الجزيرة العربية [٤٧].

كان نبونئيد، موظفاً مهماً في قصر بابل الملكي منذ عهد نبوخذ نصر الثاني، وقد اعتمد عليه الملك كثيراً نظراً لحكمته وعمق تفكيره. ويبدو أنه كان متأثراً بأمه إحدى عابدات سين إله القمر في مدينة حران، ولذلك عندما تولى الحكم راح يعلي من شأن الإله سين ويشجع على عبادته ويهتم بمعابده، فلقي معارضة شديدة من رجال الدين الذين عدّوا ذلك تعدياً على مكانة مردوك إله بابل الرئيس، وراحوا يحاربونه ويتهمونه بالخطيئة والانحراف.

واهتم نبونئيد في السنوات الأولى من عهده بالحملات العسكرية ؛ ولاسيما باتجاه سورية لإخضاع مناطقها. وقد سار في سنة حكمه الثالثة (٥٥٣ ق.م) إليها لمحاربة حاكم حماة وسار نحو الساحل فاستبدل حاكم صور، ووصل حتى غزة. وفي السنة التالية انتقل من سورية إلى شمال غربي الجزيرة العربية، ووصل حتى أدومو (دومة الجندل، الجوف)، وتعرف خلال ذلك عن كثب على نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الواحات العربية هناك.

وربما يكون قد أعجب بالمنطقة وسكانها، وشعر بأنها مكان مناسب لنشر أفكاره الدينية، وللابتعاد عن الأجواء المتأزمة والصراعات الدائرة في عاصمته بابل، وراح يفكر في الانتقال إليها. وقد يكون إخفاقه في إصلاح الأزمة الاقتصادية وتهدئة الصراع الديني هو الذي دفعه إلى اتخاذ قرار الانتقال إلى تيماء.

لاشك في أن أموراً أخرى أسهمت في ذلك وأثرت في شخصيته ؛ كالخطر الأخميني الذي بات يتزايد ويقترب من بلاده. كما أن بعض الباحثين يستخلصون من كثرة اهتمامه بكشف الطالع (الفأل) والأحلام بأنه أصيب بمس من الجنون.

وضمن هذه الأوضاع ترك حكم البلاد لابنه نائباً عنه، وانتقل إلى شمال غربي الجزيرة العربية في سنة حكمه السابعة (٥٤٩ ق.م). يقول نبونئيد في إحدى كتاباته[٤٨]: أنا نبونئيد، ابن وحيد ليس له أحد، لم يكن في ذهنه تسلّم العرش الملكي. الآلهة والإلهات صلوا من أجلي، والإله سين دعاني لتسلّم الحكم. في الليل جعلني أرى حلماً (قال لي فيه) ما يلي: إخلِ. خُل معبد سين في حران شيّدْه بسرعة، أريد أن أعطيك كل البلاد في يدك. الناس – سكان بابل وبرسيبا ونيبور وأور وأوروك ولارسا، والكهنة، وأناس من مناطق سكن في أكدّ – أخطأوا في حق ألوهيته الكبرى، وارتكبوا إثماً في عدم معرفة الغضب المخيف لملك الآلهة ننّار (سين)، ونسوا طقوسهم وتكلموا كذباً وزوراً، كالكلاب افترس بعضهم بعضاً، جعلت الآلهة المرض والجوع ينتشر بينهم، وهو (سين) أنقص سكان البلاد، أما أنا فقد جعلني أهرب من مدينتي بابل، فسلكت الطريق إلى تيماء، ددان، فَدكٌ، خيبرا، يَديخٍ، حتى إلى يَثْرِب. عشر سنوات تجولت بينهم، ولم أدخل مدينتي بابل.

وتشير المصادر إلى أنه قام باحتلال تيماء وقتل حاكمها، وبنى فيها قصراً اتخذه مقراً له خلال سنواته العشر هناك (٥٤٩ – ٥٤٠ ق.م)، ويبدو أنه استطاع أن يكسب ودّ القبائل العربية، وأن يحقق ازدهاراً اقتصادياً ناجماً عن سيطرته على الطريق التجارية البرية القادمة من جنوبي الجزيرة العربية، وكانت هذه الطريق قد اكتسبت أهمية زائدة آنذاك بسبب ضعف الطرق البحرية الشرقية. ومن المؤسف أننا لا نملك شواهد كتابية مفيدة في معرفة مجريات فترة إقامته في تيماء، وقد كشف الأثاريون فيها عن بقايا عمرانية وبعض اللقى الأثرية التي تعود إلى تلك الفترة.

انتهت مملكة بابل الأخيرة مع ازدياد النفوذ الأخميني في بلاد الرافدين، وتوسعهم حتى بلاد الأناضول. وقد سعى الأخمينيون إلى الاتصال بالعرب أيضاً عن طريق سورية. وبهذا الشكل حاصروا بلاد بابل، وفي سنة ٥٣٩ ق.م احتل الملك الأخميني كورش بابل العاصمة، وكان نبونئيد قد عاد إليها ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً، بل تم أسره،

ولا يعرف مصيره بشكل مؤكد. ثم صارت بلاد بابل ولاية من ولايات الإمبراطورية الأخمينية التي سادت في المنطقة حتى غزو الإسكندر المكدوني في ٣٣١ ق.م.

خاتمة:

يتضح لنا – بشكل عام – مما سبق عرضه أن طبيعة العلاقات بين بلاد الرافدين والجزيرة العربية كانت اقتصادية سياسية. ويتحكم بها العامل الاقتصادي فإن استقام وحقق مصلحة الطرفين حلّ الهدوء والسلام والازدهار، وإن اضطرب خلق نوعاً من عدم الثقة وقاد إلى الصراع والحملات العسكرية.

ولعل الحالة الأولى تنطبق إلى حد كبير على بلاد ديلمون التي شعر ملوكها أن الأساس في ازدهارها هو استمرار دورها التجاري الوسيط بين المناطق الواقعة في جنوبيها (ماجان، ملوخا) ومناطق جنوبي بلاد الرافدين. وساعد إدراكهم هذه المعادلة على ارتباط بلادهم ببلاد الرافدين، وعلى تجنب الخوض في الصراع الرافدي – العيلامي، والحرص على تزويد بلاد الرافدين بالمواد اللازمة لها ؛ طالما أن ذلك يحقق لها فائدة اقتصادية ورضا سياسي. وبفضل ذلك بدأت العلاقات بين المنطقتين في زمن مبكر، واستمرت زمناً طويلاً عبر العصور القديمة المختلفة. ولاشك في أن ذلك يعبر عن حكمة موقف ملوك ديلمون تجاه ملوك بلاد الرافدين الذين كانوا أقوى سياسياً ويمتلكون إمكانات عسكرية ضخمة، ويسرعون في تسيير الحملات في حال تضرر مصالحهم.

أما الحالة الثانية فتنطبق على زعماء القبائل العربية في شمالي الجزيرة العربية الذين كانوا يسعون منذ مطلع الألف الأول ق.م إلى إثبات وجودهم وكياناتهم النامية المستقلة، ويرفضون التبعية لملوك بلاد الرافدين. وقد دفعهم ذلك إلى التحالف مع الآراميين في سورية وجنوبي بلاد بابل، وإلى محاولة الاستقلال بفوائد الطريق التجارية المارة ببلادهم. ولهذا فقد غلب على علاقاتهم ببلاد الرافدين طابع العداوة، وكانت عداوة خاسرة غالباً نظراً للتفاوت الكبير بين القوتين، وعوقبوا بحملات

متكررة. ويبدو أن تلك القبائل ظلت متفرقة ولم تتحد فيما بينها، مما سهل على الخصم الرافدي إلحاق الأذى بها وإضعافها ومنعها من إقامة كيانات قوية موحدة، ونجم عن هذا الوضع أنها لم تتطور اقتصادياً ولا عسكرياً. ولاشك في أن خصوصية البيئة الجغرافية وظروفها القاسية، وطبيعة النمط الاجتماعي البدوي، كانت تؤثر في استقرارها وتطورها، وذلك على خلاف الحالة الأولى.

أما جنوبي الجزيرة العربية فقد كانت بعيدة جغرافياً، ومع ذلك يتضح من الشواهد المعدودة المتوافرة أن ملوكها حرصوا على إقامة علاقات طيبة مع ملوك بلاد الرافدين، وأرسلوا إليهم هدايا تعبر عن ذلك.

لقد كان للتجارة دور مهم آخر هو تحقيق التثاقف، وكان ازدهارها بين ديلمون وبلاد الرافدين عاملاً مفيداً في التطور الحضاري الذي استفادت منه ديلمون أكثر. وينعكس ذلك في الشواهد الأثرية المكتشفة في البحرين، وهي تكشف عن تأثر بالمظاهر الحضارية في حلقتي العملية التجارية التي كانت تتوسطهما ؛ أي بلاد الرافدين والمناطق الجنوبية (عُمان وبلاد السند).

وتكشف أحداث الألف الأول ق.م – بشكل خاص – عن حقائق مهمة، أبرزها :

آ- الانسجام بين القبائل العربية الشمالية والآراميين، ولعل ذلك يعود إلى جملة عوامل؛ من أهمها التماثل في طبيعة الحياة الاجتماعية والاشتراك في خصومة الآشوريين.

ب- الدور المتميز للمرأة في مجتمع شمالي الجزيرة العربية، وذلك منذ أواخر القرن الثامن ق.م. وقد ذكرنا عدداً من الملكات العربيات اللواتي حكمن قبائلهن وتزعمن تحالفات قبلية، وكن يشكلن خطراً على الآشوريين رغم التفوق العسكري الآشوري المعروف في التاريخ.

ج- حصول التمازج والاختلاط بين عرب الجنوب وعرب الشمال خلال الألف الأول ق.م بفضل الدور المهم للطريق التجارية الممتدة من قنأ في اليمن إلى سواحل

البحر الأبيض المتوسط، ولكن ذلك لم يتطور كثيراً وتوقف عند حد المصالح التجارية، ولا نعرف شيئاً عن علاقات سياسية أو تحالفات بين حاكم المنطقتين.

د- ازدياد الوجود العربي في جنوبي بلاد بابل بدءاً من أواخر القرن الثامن ق.م. وتعد الكتابات العربية المكتشفة هناك من أقدم الشواهد المتوافرة على الكتابة العربية الشمالية.

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن ازدياد الاهتمام الأثري بمناطق الجزيرة العربية المختلفة لابد من أن يسفر عن مكتشفات أثرية كتابية ومادية جديدة ستضيف معلومات وحقائق أخرى كثيرة إلى طبيعة علاقاتها ببلاد الرافدين.

الحواشي

(١) راجـــع :

Robert Englund : Dilmun in the Archaic Corpus. in : Daniel T. Potts (ed.): Dilmun. New Studies in the Archaeology and Early History of Bahrain. [BBVO , Band 2]. Berlin 1983. S. 35-37.

(٢) راجع النص : VS 14 , 193.

(٣) راجع النص : VS 14 , 194.

(٤) راجع النص : VS 14 , 38.

(٥) راجع النص : VS 14 , 164.

(٦) راجع النصوص ذات الأرقام (408 , 403 , 395 , 385) في :

F.M.Allotte de la Fuye : Documents presargoniques. 1908 – 1920.

(٧) **H. Gressman** : Altorientische Texte zum Alten Testament. Berlin - Leipzig 1927 , S. 234f.

(٨) **I. J.Gelb-B. Kienast** : Die altakkadischen Königsinschriften des dritten jahrtausends v. Chr. FAOS 7 (1990). Nr. 2 (Sargon).

(٩) **E. Weidner** : Texts from Cuneiform Sources, 5. Chronicle 20, 27.

(١٠) **A. Falkenstein** : Sumerische Religiöse Texte. ZA 56 (1965) 44-113.

(١١) راجـــع : **C.C. Lamberg-Karlovsky** : Dilmun : Gateway to Immortality. JNES 41(1982) 45 ff.

(١٢) **J. Eidem —— Flemming Hojlund** : Trade or diplomacy ? Assyria and Dilmun in the eighteenth century B.C. in : Joan Oates (ed.) Ancient trade: New perspectives. World Archaeology 24 (1993) 446.

(١٣) راجع الترجمة الكاملة للأسطورة في :

J. B. Pritchard (ed.): Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament 1955 , 37-41.

(١٤) قدّم Kilian Butz عرضاً موجزاً شاملاً لأخبار ديلمون في مصادر العصر البابلي القديم في : BBVO 2 (1983) 143 f.

(١٥) راجع **الأرشيف الملكي المكتشف في ماري**. المجلد الخامس، الرسالة (١٤).

(١٦) **B.Groneberg**: Mari et le Golfe Arabico-Persique. in: Festschr. Michel Fleury (ed. J. - M. Durand) Paris 1992 , 69ff.

(١٧) راجع **أرشيف ماري**، المجلد الأول، الرسالة (٢١).

(١٨) **المرجع نفسه**، الرسالة (١٧).

(١٩) الرسالة منشورة في الدراسة المذكورة في الحاشية (١٦).

(٢٠) راجع الدراسة المذكورة في الحاشية (١٢)، ص ٤٤٦ وما بعدها.

(٢١) نظراً لقلة الوثائق الكتابية المسمارية من هذا العصر، وخلوها من إشارات مفيدة في التاريخ السياسي، فإن للباحثين تفسيرات مختلفة لطبيعة العلاقة السياسية بين ملوك بابل وحكام ديلمون. ويذهب بعضهم إلى أن بلاد ديلمون كانت تشمل مناطق جزيرة فيلكه والكويت والأحساء، وتخضع للسيادة الكاشية، ويحكمها حاكم من أهلها مع إشراف موظفين من بابل على شؤونها الإدارية. ويرى آخرون أنه من الصعب الحديث عن استيطان كاشي في ديلمون، رغم العثور فيها على نقوش كتابية (بابلية وسطية) في البحرين وفيلكه. وهي لا تدل سوى على علاقات تجارية وحضارية، وعلى مصالح اقتصادية مشتركة، وتخلو من أية دلائل ذات صلة بالعلاقات السياسية. راجع :

Karlheinz Kessler : Zu den keilschriftlichen Quellen des 2./1. Jahrtausend v. Chr. über Dilmun. BBVO 2 (1983) 147.

(٢٢) نشر **الرسالتين** A. Goetze ودرسهما P. B. Cornwall دراسة تحليلية مفصلة، وذلك في : JENS 6 (1962) 137 - 145 .

(٢٣) **Khaled al-Nashef** : The Deities of Dilmun. in : Shaikha Haya Ali al- Khalifa and Michael Rice (eds.): Bahrain through the Ages.p. 340.

(٢٤) Ibid , p. 349 (1).

(٢٥) **Kilian Butz**: Zwei kleine Inschriften zur Geschichte Dilmuns. BBVO 2 (1983) 123 (29).

(٢٦) Ibid , p. 117.

(٢٧) عيد مرعي : **تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى عام ٥٣٩ ق.م.** دار الأبجدية، دمشق، ط١، ١٩٩١، ص ١١٥.

(٢٨) **المرجع نفسه**، ص ١١٨.

(٢٩) **H.Klengel (Hrsg.)**: Kulturgeschichte des alten Vorderasien. Akademie- Verlag , Berlin 1989 , 459.

(٣٠) عبد الله حسن الشيبه : **محاضرات في تاريخ العرب القديم**. ط٢، ١٩٩٥، ص ٤٧ وكذلك المصور الجغرافي الموجود في آخر الكتاب.

(٣١) **راجع المرجع** المذكور في الحاشية (٢٩)، ص ٤٦١.

(٣٢) **راجع المرجع** المذكور في الحاشية (٢١)، ص ١٤٨.

(٣٣) أسمهان سعيد الجرو : **موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن القديم)**. مؤسسة حماده، إربد (الأردن)، ١٩٩٦، ص٨٧،٤١.

عبد الله حسن الشيبه : **دراسات في تاريخ اليمن القديم. مكتبة الوعي الثوري**، تعز ١٩٩٩. ص ٣٠٩، ١٢.

(٣٤) **I. Eph`al** : " Arabs " in Babylonian in the 8th Century B.C. JAOS 94 (1974) 109 (12) , 113.

(٣٥) ABL 88 , 547.

(٣٦) راجع الدراسة المذكورة في الحاشية (٣٤)، ص ١١٠.

(٣٧) راجع المرجع المذكور في الحاشية (٢٩)، ص ٤٦٠.

(٣٨) راجع الدراسة المذكورة في الحاشية (٢١)، ص ١٤٩.

(٣٩) راجع المرجعين المذكورين في الحاشية (٣٣)، ص ٤١، ١٢.

(٤٠) راجع المرجع المذكور في الحاشية (٣٠)، ص ٨٦.

(٤١) **R. Borger** : Die Inschriften Asarhaddons , König von Assyrien. AfO Beiheft 9 (1956). AsBbA , Vs. 1,78.

(٤٢) Ibid , As BbE , Z. 4/5 .

(٤٣) راجع الدراسة المذكورة في الحاشية (٣٤)، ص ١١١.

(٤٤) **أحمد ارحيم هبو** : تاريخ الشرق القديم. (٢) بلاد ما بين النهرين (العراق). دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ١٩٩٦، ص ٢٤٢ – ٢٤٣.

(٤٥) ثمة عرض واف لأخبار ديلمون في نقوش آشور بانيبال ومراسلاته، في الدراسة المذكورة في الحاشية (٢١)، ص ١٤٩ – ١٥١.

(٤٦) طابق بعض الباحثين بين بلاد قادي المذكورة في الكتابات المسمارية وتسمية: Cadaei

الواردة في المصادر الكلاسيكية للدلالة على قبيلة في منطقة رأس مسندم. راجع:

Ran Zadok : Arabians in Mesopotamia during the late - Assyrian , Chaldean, Achaemenian and Hellenistic Periods Chiefly According to the Cuneifrom Sources . ZDMG 131 (NF. 56) (1981) , 56 .

(٤٧) عن سيرته وأهم أحداث عهده، راجع:

فاروق إسماعيل: **اللغـــة الآراميـــة القديمـــة**. منشورات جامعـــة حلب، ١٩٩٧، ص ٤٤ – ٤٦.

عيد مرعي: **بابل في عهد نابونيـــد آخر ملوكها**. مجلة دراسات تاريخية ٦٣ – ٦٤ (١٩٩٨) ص ٢٨ – ٤٧.

(٤٨) عيد مرعي : **المرجع السابق**، ص ٣٥. وكتابه : **تاريخ بلاد الرافدين**، ص ١٣٠.

التجمعات السكنية في موقع بلدة القصر
بمحافظة الكرك - الأردن
"دراسة إثنوآركيولوجية"

الدكتور
عاطف محمد سعيد الشياب
قسم الآثار

الدكتور
محمد سليمان شناق
قسم الأنثروبولوجيا

كلية الآثار والأنثروبولوجيا
جامعة اليرموك
إربد- الأردن

التجمعات السكنية في موقع بلدة القصر بمحافظة الكرك - الأردن "دراسة إثنوآركيولوجية"

الدكتور عاطف محمد سعيد الشياب
قسم الآثار

الدكتور محمد سليمان شناق
قسم الأنثروبولوجيا

كلية الآثار والأنثروبولوجيا
جامعة اليرموك
إربد- الأردن

الملخص:

تلقي هذه الدراسة الضوء على التجمعات السكنية في بلدة القصر والتي تعدُّ امتداداً للتجمعات السكنية القديمة التي كشفت عنها التنقيبات الأثرية في الموقع خلال العامين ١٩٩٣ و ١٩٩٦م، وتم تأريخ هذه المساكن من خلال المجسات الاختبارية إلى الفترة النبطية.

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي والتحليل الاجتماعي لوظائف المساكن ومقارنتها مع الاستخدامات الحالية للمساكن المأهولة في البلدة. كما اعتمدت على منهج علم الآثار الاجتماعي (الإثنوآركيولوجي) لدراسة وفهم التجمعات السكنية الموجودة في المنطقة، ودراسة التطورات التي حصلت عليها فيما بعد كإعادة استخدام المنشئات

النبطية المختلفة، حيث أُعيد استخدام المعابد والمباني العامة كمساكنٍ في الفترات اللاحقة.

وتبين من خلال هذه الدراسة أن أقدم التجمعات السكنية ترجع إلى الفترة النبطية، وقد أُعيد استخدام حجارة وزخارف المنشئات النبطية القديمة في الفترات اللاحقة كالفترة الرومانية والبيزنطية والإسلامية والفترات الحالية.

وتم اختيار بعضِ النماذج من المساكن الموجودة في البلدة لدراستها من الناحية الأثرية والتاريخية، وعمل تحليل آثاري اجتماعي لمعرفة نوع العلاقات الاجتماعية والعناصر المعمارية المستخدمة كالفضاءات البنائية والساحات العامة وأماكن التخزين وغرف النوم والضيافة لمعرفة نمط العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع آنذاك.

مقدمة:

أشارت بعض الدراسات إلى أن أقدم الفترات الاستيطانية في موقع بلدة القصر تعود إلى فترة حكم الملك النبطي الحارث الرابع (Glueck 1965). وللتحقق من ذلك تم حفر بعض المجسات الاختبارية في الجزء الشمالي الغربي من الساحة الأمامية للمعبد، فتبين من خلال القرائن الأثرية المختلفة كالفخار والنقود وبعض النقوش، أن أقدم فترة استيطانية في الموقع ترجع إلى العصر الحديدي، تليها طبقات استيطانية متعاقبة تمثل الفترات النبطية والرومانية والبيزنطية ثم الإسلامية (Shiyab 2007, 1995, 1994, 1990) ولم تجرِ الكثير من الدراسات والحفريات الأثرية حول التجمعات السكنية الموجودة في بلدة القصر، وإنما أوردت بعض المراجع والمصادر إشارات عن وجود بعض التجمعات السكنية في المنطقة (Merriman 2004; Hodder 1989; Mcquitty 1989)، ولكن دون أن تتعرض إلى دراستها وتحليلها بشكلٍ علمي.

أجريت تنقيبات أثرية بجانب الجدران القديمة للمباني السكنية التي تم اختيارها لإجراء هذه الدراسة، فتبين أن أقدم تجمع سكني في الموقع يعود إلى الفترة النبطية، وقد أُعيد استخدامها في الفترات اللاحقة.

وكشفت هذه الدراسة عن طبيعة هذه التجمعات السكنية من حيث توزيع المساكن، والعناصر المعمارية المستخدمة، والتغيرات التي حصلت عليها، وذلك من خلال الدراسة الإثنوآركيولوجية التي أجريت.

أهمية الدراسة:

تعدُّ هذه الدراسة الأولى من نوعها لأنها كشفت عن طبيعة التجمعات السكنية الموجودة في بلدة القصر. ومن خلال هذه الدراسة تم عمل مخططات لنماذج مختارة من هذه التجمعات السكنية التي يرجع بناؤها إلى الفترة النبطية، مع توضيح بعض التغييرات والتعديلات التي أجريت عليها في الفترات اللاحقة.

تلقي هذه الدراسة الضوء على طبيعة العناصر المعمارية لهذه التجمعات من حيث وظيفة استخدام المساحات والفراغات الفضائية للمساكن، كما تركز الدراسة على إعادة استخدام التجمعات السكنية والتغييرات التي أجريت عليها لتتناسب واحتياجات السكان في الفترات اللاحقة، حيث أعيد استخدام المعبد النبطي كمسكنٍ في بعض الأحيان ومضيف ومكان للتخزين في أحيانٍ أخرى.

أهداف الدراسة:

تحاول هذه الدراسة الكشف عن طبيعة التجمعات السكنية في بلدة القصر من حيث توزيعها في الموقع، وطريقة استغلال المساحات والفضاءات من قبل السكان المحليين في المنطقة، وإبراز العناصر المعمارية والمواد المستخدمة في بناء هذه المساكن في الماضي والحاضر.

كما تهدف هذه الدراسة أيضاً إلى رسم مخططاتٍ لبعض التجمعات السكنية القديمة من خلال الاستعانة بحفر بعض المجسات الاختبارية على امتداد الجدران القديمة لبعض البيوت الموجودة في بلدة القصر، وذلك للتأكد من استمرارية استخدام هذه المساكن ومقارنتها بمخططات المساكن الحديثة التي لم تختلف كثيراً عن القديمة. إضافة إلى عمل دراسة اجتماعية أثرية لمقارنة البيوت والتجمعات السكنية الحالية بالمساكن القديمة أو المباني التي أُعيد استخدامها في الوقت الحاضر.

إضافةً إلى ذلك فقد ركزت هذه الدراسة على إظهار الوضع الاقتصادي الذي كان سائداً في ذلك العصر، ومدى تأثيره على تقنية البناء والغرض من استخدام هذه التجمعات.

منهجية الدراسة:

اعتمدت هذه الدراسة على المسوحات والحفريات الأثرية التي تمت في منطقة الدراسة، وخاصة التي أجريت في الموقع خلال العامين ١٩٩٣ و ١٩٩٦م. كما

اعتمدت على إجراء بعض الدراسات الاجتماعية والأثرية للموقع وللعناصر المعمارية المختلفة التي يشتمل عليها، ومقارنتها بالاستخدامات الحالية من قبل سكان البلدة المحليين.

وقد أُجري مسحٌ للمصادر الأثرية الاجتماعية (الإثنوآركيولوجية) التي تناولت المنطقة، وكذلك الدراسات المشابهة لها في المناطق المجاورة أو في المملكة ككل.

الدراسات السابقة:

الرحالة:

خلال القرن التاسع عشر كانت منطقة الدراسة تعدّ من المناطق المعزولة جغرافياً، وبالرغم من اعتبارها من المعابر المهمة إلا أنها كانت تفتقد إلى الناحية الأمنية، بينما حظيت مواقع فلسطين باهتمام واضح من قبل الرحالة وعلماء الآثار من حيث عمل الخرائط والاستكشافات الأثرية. ومن أوائل الرحالة الذين دخلوا هذه المنطقة: "بيركهاردت وسيتزن" الذين تتبعوا الطريق الروماني القديم المسمى (طريق تراجان) من الشمال الى الجنوب، وتعدّ "سيتزن" أول من عبر وادي الموجب عام ١٩٠٥م، كما وصل بيركهاردت إلى الكرك بدون صعوبة عام ١٨١٢م، ودوّن ملاحظاته حول الآثار القديمة التي لاحظها اثناء مسيرته الطويلة، غير أن المعلومات التي قدّمها كان يعتريها بعض الشك (Seetzen 1859).

وفي عام ١٨١٨م عبر كل من "تشارل أيربي، وجيمس مانغلس" سهل الكرك وتتبعوا الطريق الروماني من الجنوب إلى الشمال (Irby 1823). أما القادة البريطانيين العسكريين فقد نجحوا بعبور المنطقة، وكانوا يظهرون أنفسهم كجنود مرتزقة لمحمد علي باشا الذي نجح في الاستيلاء على الكرك عام ١٨٤٠م. كما قام الكابتن "لينش" باستكشافات في منطقة البحر الميت عام ١٨٤٨م، وقاد مجموعة من الرجال المسلحين

أثناء مروره بوادي الكرك إلى مدينة الكرك، وقام بعمل عدواني فروا على أثره هاربين من المنطقة (Lynch 1848) .

أما الرحالة "فيلسيان دو سولسي" فقد وصل إلى أقصى جنوب البحر الميت مع رفاقه، وساروا راجلين على طول المنحدر الشمالي لوادي ابن حماد، وخيَّموا ليلةً بجانب رجم العبد، واكتشفوا في هذه المنطقة مسلة شيحان، وكتب "فيليسيان" ملاحظاته ولكنها كانت غير واضحة وغير دقيقة (Felicien de Saulcy 1850).

وعبر الرحالة "روث" الكرك عام ١٨٥٨م مغادراً جنوب الربة إلى وادي الحسا (Roth 1858). وفي عام ١٨٦٤م قاد الرحالة "ليونس" حملة استكشافية إلى منطقة البحر الميت، وتضمنت زيارتين إلى الكرك، واستولى خلالها على مسلة شيحان المكتشفة من قبل فيليسيان، ورتَّب نقلها إلى باريس (Luynes 1871-76).

كما وصل كل من "ماوس و سوفي" إلى الكرك عن طريق وادي الكرك عام ١٨٦٦م متابعين مسيرتهم جنوبا نحو الشوبك (Mauss & Sauvaire١٨٦٩, 1871).

أما "كلين" وهو أحد المبشِّرين الألمان فقد زار الكرك في عام ١٨٦٧م، ونشر تقارير مختصرة عن زيارته بعد سنتين(Klein 1880, 1869) . وفي شهر آب من عام ١٨٦٨م اكتشف نقش مشيع في ذيبان، تبعه حملتين استكشافيتين في منطقة شرق البحر الميت بإشراف جمعية استكشاف صندوق فلسطين.

وفي عام ١٨٧٠م عبر "بالمير" الزاوية الشمالية الغربية لسهل الكرك (Palmer 1871). وفي عام ١٨٧٢م قام "ترسترام" بمرافقة "كلين" في الطريق التي سلكها، وقام بحملة تركزت في المنطقة الواقعة بين وادي الموجب ووادي الحسا، ودوَّن ملاحظاتٍ عن المنطقة اتسمت بعدم الوضوح (Tristram 1873).

وهناك عدد من الرحالة الذين عبروا سهل الكرك خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، ودونوا بعض الملاحظات عن المنطقة، ومن بينهم "داوتي"، وبقيت

طبوغرافية سهل الكرك والكنوز الأثرية غير مكتشفة حتى نهاية القرن التاسع عشر (Doughty 1979). وفي عام ١٨٩٥م بدأ "بلس" مرحلةً جديدة فقام برحلة قصيرة حول الجانب الصحراوي لسهل الكرك، استطاع خلالها توضيح الاختلاف الذي ما زال موجودا في تفرعات وادي الموجب (Bliss 1895) .

بدأت الاستكشافات الأثرية العلمية في هذه المنطقة بقدوم كل من "برونو ودومفسكي"، حيث قاموا بدراسة منظمة لنظام الطريق الروماني وبعض التحصينات، وتم نشر نتائج هذه الاستكشافات في ثلاث مجلدات وتحت عنوان: المقاطعة العربية، وتضمنت مخططات تتعلق بالحضارة النبطية والرومانية والبيزنطية (Brunnow & Domaszewsk 1904).

أما "موزيل" فقد قام بالعديد من الرحلات الاستكشافية في عام ١٨٩٦، واستمرت لغاية عام ١٩٠٢، وكرس أول مجلد حول المنطقة الشرقية من البحر الميت (Arabia petrea) (Musil 1907).

كما عبر عدد من الرحالة هذه المنطقة بعد عام ١٨٩٧م، وقاموا ببعض الاستكشافات والحفريات الأثرية في منطقة الدراسة وما حولها (Vincent 1898; Wilson 1899; Hornstein 1898; Gautier 1901; Libby and Hoskins 1905).

أما "سميث" فقد كتب تقريراً عن الطريق الروماني أثناء رحلته من الكرك إلى مادبا عام ١٩٠٤م، غير أن هناك اضطراباً في تقاريره وخاصة فيما يتعلق بطبوغرافية المنطقة، وهذا ناتجٌ عن قراءته الخاطئة لملاحظات "بيركهاردت"، وعن عدم وضوح خارطة "ترسترام"، وكانت معظم المخططات لآثار تمثل الفترة النبطية والرومانية (Smith 1904).

المسوحات والتنقيبات الأثرية:

في عام ١٩٢٤م قام العالم "ألبرايت" بحملة استكشافية شملت المناطق الواقعة جنوب البحر الميت، وكشف عن الآثار الموجودة في جبل شيحان والكرك والربة والخنزيرة وفقوع، والتي تعود للعصور الحديدية (Albright 1924). وفي عام ١٩٣٢م قام كل من "هورسفيلد، وفنسنت" برسم مخططات أولية لخربة البالوعة (Horsfield et al, 1932).

وفي السنة التالية قام كل من "أولبرايت، وكراوفوت" بعمل مجسات اختبارية في خربة البالوعة (Crowfoot 1934). أما في عام ١٩٣٣م فقد قام "نلسون جلوك" بعمل مسوحاته الأثرية في جنوب الأردن، وقام بفحص عيناتٍ فخارية ملتقطة عن السطح، كما تحدث عن الاستيطان في جنوب الأردن (Glueck 1965, 1934) .

وفي عام ١٩٣٥م وبينما كان جلوك مشغولا بمسوحاته الأثرية قام كل من "هورسفيلد، وسافيناك" بفحص البقايا الأثرية الموجودة على السطح في عدة مواقع في جنوب وشرق الأردن (Savignac 1935).

وفي عام ١٩٣٦ قامت "كانوف" بفحص النقوش الرومانية والبيزنطية الموجودة على حجارة القبور في الكرك والقرى المجاورة، ونشرت نتائج أعمالها عام ١٩٥٤م (Canova 1954) .

ومن بين الدراسات الأخرى التي أجريت في منطقة سهل الكرك:

قام "أولوفاري" منذ عام (١٩٣٠م) بعمل مجسات في خربة المدينة (Olavarri 1965)، وكذلك بعض الحفريات الأثرية في كل من موقع ذيبان (Winnett & Reed 1964 1963) وعروعير وباب الذراع(Lapp 1966) ، وتل حسبان (Boraas & Geraty 1974; 1976; Boraas and Horn 1976) ، وموقع بصيرا Bennett (1971)، إضافة إلى الخرائط التي قام بعملها الباحث نورث في الفترة الممتدة بين الأعوام (١٩٥٠ –١٩٦٠م)، وقد اتسمت هذا الخرائط بعدم وضوحها (North 1979).

ويتضح من خلال ما تم عرضه أن الاستكشافات الاثرية حول منطقة الدراسة كانت قد أجريت قبل عام ١٩٧٦، وأن مستكشفي القرن التاسع عشر الميلادي قد دخلوا المنطقة كمخاطرة شخصية، غير أن النشاطات الأثرية العلمية في هذه المنطقة قد بدأت بقيـام الباحث (Miller) بمسوحاته وتخطيطه للمنطقة، وتركزت أعماله في المنطقة الواقعـة بين وادي الموجب ووادي الحسا وطريق القطرانة – الكرك (Miller 1978). وفـي عام ١٩٨٣ أجريت بعض المسوحات الأثرية في المنطقة حيـث تـم إعـادة فحـص وتصوير بعض المواقع بهدف تطوير المعجم الجغرافي للمواقـع الأثريـة فـي هـذه المنطقة (Miller 1983).

موقع بلدة القصر:

تقع بلدة القصر على بعد حوالي خمسة كيلومترات إلى الشمال من بلدة الربة، وحوالي ١٥ كم إلى الشمال من بلدة الكرك، ويمر من الربة شارعٌ رئيسي يبعد حـوالي (٥٠ م) إلى الغرب من المعبد النبطي، ويربط بين الكرك وذيبان (شكل رقم ١).

وتمتاز تربة هذه البلدة بخصوبتها حيث كان يزرع فيها أشجار العنـب والمحاصـيل الزراعية كالحبوب، وكان يعيش فيها حيوانات متعددة كالأسود والغـزلان والأغنـام والماعز. ويوجد فيها عدد من الآبار القديمة التي أعيد استخدامها في الوقت الحاضر، ومن الملاحظ أن التجمعات السكنية الحديثة قد بنيت فوق التجمعات السكنية القديمـة، حيث تمحورت حول منطقة المعبد النبطي.

وتكمن أهمية بلدة القصر بموقعها الاستراتيجي حيث كان يمر بها الطريـق التجـاري القديم المعروف بطريق "تراجان" الذي كان يربط بين مدينتي فيلادلفيا والبتراء، كمـا تقع هذه البلدة على سهل يمتد ما بين وادي الموجب (أرنون) شـمالاً ووادي الحـسا جنوبا، وبين البحر الميت ووادي عربة غرباً والصحراء العربية شرقاً (شكل رقم ٢). وكان يطلق على تلك المنطقة اسم مؤاب كما ورد في العديد من المـصادر العربيـة والأجنبية (Brown 1907; Gen XIX 37; Vollers 1906; Albright 1928).

ويشبه مناخ هذه البلدة مناخ حوض البحر المتوسط الذي يمتاز بأنه رطب في الشتاء وجاف في الصيف، ويندر سقوط الثلوج في هذه المنطقة، كما يتراوح سقوط الأمطار فيها بين ١٠٠ ملم إلى ٥٥٠ ملم، وبمعدلٍ يبلغ ٣٢٥ ملم سنوياً.

التجمعات السكنية في بلدة القصر:

ذكر العالم نلسون جلوك بأن أقدم فترة استيطانية في هذه المنطقة ترجع إلى الفترة النبطية، وبالتحديد إلى فترة حكم الملك "الحارث الرابع" (Glueck 1965). وللتأكد من ذلك تم حفر مجس اختباري في الجزء الشمالي الشرقي من ساحة معبد بلدة القصر الداخلية، وبالتحديد في المربع رقم (8-9-b) (شكل رقم ٣، ٤)، ومن خلال اللقى الأثرية التي أظهرها هذا المجس تبين أن أقدم فترة استيطانية في الموقع تعود لفترة العصر الحديدي، ثم يلي هذه الفترة وبشكل متعاقب طبقات الاستيطان الهلنستي والنبطي والروماني والبيزنطي والإسلامي. أما بالنسبة للتجمعات السكنية ومن خلال الحفريات والمجسات التي أجريت في بلدة القصر فقد تبين أن أقدم تجمع سكني يعود للفترة النبطية، وتم معرفة ذلك من خلال بقايا الجدران السكنية (شكل رقم ٥،٦) وبعض اللقى الأثرية كالفخار والأجران التي تدل على أنها أستخدمت كمساكن، كما تبين أن الأبنية النبطية القديمة قد أُعيد إستخدامها كتجمعاتٍ سكنية في الفترات اللاحقة (الرومانية والبيزنطية والإسلامية) (شكل رقم ٧، ٨، ٩).

ومن أجل معرفة طبيعة هذه التجمعات السكنية كان لا بد من عمل بعض الدراسات لهذه التجمعات من خلال عمل المخططات والرسومات (شكل رقم ١٠، ١١، ١٢) والصور، وتحليل الموجودات والمكتشفات الأثرية، ومن خلال الإستعانة بالدراسات والمسوحات والحفريات الأثرية التي أُجريت في بلدة القصر (Shiyab 2007, 1995, 1994, 1990)، وتبين وجود نوعين من التجمعات السكنية:

١- تجمعات سكنية وجدت داخل المعبد (شكل رقم:٣، ١٣، ١٤).

تم بناء المعبد خلال الفترة النبطية، وقد أُعيد استخدامه في الفترات اللاحقة لأغـراضٍ سكنية، وتبين أنه أُعيد استخدامه في الفترة البيزنطية لغرضين: ديني وسكني، أما في الفترات الإسلامية فقد أُعيد استخدامه لأغراضٍ سكنية فقط (شكل رقم ٣).

ومن خلال الحفريات الأثرية تبين أن المعبد نفسه قد أُستخدم للأغراض السكنية بعد أن أُضيفت إليه بعض المرافق والجدران الجديدة لتدعيم الأبنية القديمة.

وفي الفترات اللاحقة تم إضافة بعض الأبنية والجدران للحجرة رقم (١) التي تقع في منطقة المقدس الثلاثي للمعبد، حيث أضيفت قاعد تبلغ أبعادها (٤,١٠ x ٢,٧٠ م)، ويعتقد أنها استخدمت كمنصة يرتكز عليها درجٌ مكوَّن من سبع درجات يُصعد من خلاله إلى سطح البناء، خاصة بعد أن تهدمت أبراج المعبد بفعل الزلازل التي ضربت المنطقة في القرن الرابع الميلادي (Ambraseys ١٩٧١) ، كما تمت إضافة جدرانٍ أخرى في الفترة البيزنطية، وقد بلغت أبعادها (٢,٧٠ م x ٥٠ سم)، وقد جاءت هذه الجدران لتدعيم الجدران القديمة المتهدمة، وبعد إزالة الأنقاض المتراكمة في هذه الحجرة أصبح شكلها مستطيلاً، وبلغت أبعادها (٤ م x ٨,٨٠ م). كما أن الساحة الواقعة في الجهة الشمالية الغربية والواقعة ما بين المنصة المرتكز عليها الدرج والجدران الداعمة قد أخذت هذا الشكل بسبب الإضافات والتعديلات (شكل رقم ٣).

ويتميز أسلوب بناء الإنشاءات المضافة بوجود واجهات خارجية مبنية من حجارة جيرية منتظمة الشكل، ولكن أحجامها أقل من تلك التي استخدمت في بناء المعبد النبطي، وهذا دليل واضح على أن تلك الإضافات قد بنيت في فترات تلت البناء الأصلي العائد إلى الفترة النبطية.

ومن خلال التنقيبات الأثرية التي أجريت في الموقع تبين أن الحجرة رقم (٣) والواقعة أيضاً في منطقة المقدس الثلاثي قد استخدمت لغايات السكن، وتم التحقق من ذلك من خلال الجدران المضافة، حيث أصبح شكل هذه الحجرة مستطيلاً، وبلغت أبعادها

(٥,٢٠ x ٨,٨٠ م)، كما تم إضافة جدارٍ يبلغ عرضه حوالي (٩٠ سم)، وقد استخدم كدعامةٍ للجدران القديمة المنهارة، إضافة إلى دعاماتٍ حاملةٍ للسقف.

ومن الملاحظ أيضا أن طبيعة حجارة الجدران التي أضيفت لهذه الحجرة تتشابه مع تلك التي أضيفت للحجرة رقم (١)، مما يدل على أن تلك الجدران في كلا الحجرتين قد أضيفت في نفس الفترة (شكل رقم ٣).

أما بالنسبة لبقية أقسام المعبد كالصالة المقدسة فقد أُعيد استخدامها للأغراض السكنية ودون أن تُجرى عليها أية إضافات، وربما يعود السبب في ذلك لكبر حجمها مما صعَّب إمكانية إضافة جدرانٍ جديدة لها، وربما استخدمت بمساحتها الكبيرة لممارسة بعض النشاطات اليومية المختلفة أو كزرائب للحيوانات ومكانٍ للتخزين خلال فصل الشتاء.

ومن خلال الحفريات التي أجريت عند مدخل المعبد في العامين (١٩٩٣ و ١٩٩٦م) تم الكشف عن جدرانٍ سكنية لحجرة تبلغ أبعادها (٣ م x ٥,٦٠ م)، ولهذه الحجرة مدخلٌ يقع في الزاوية الجنوبية الغربية، أي في الجهة الجنوبية الشرقية لواجهة المعبد، ويبلغ عرض الجدران حوالي (١ م)، ومن خلال المخططات والمكتشفات التي تم العثور عليها كجرار الطهي وجرار التخزين والمدقات وغيرها فقد اتضح بأن هذه الجدران تعود لمبانٍ استخدمت لغايات السكن (شكل رقم ١٤).

أما الجدران الواقعة فوق العتبة فيبلغ عرضها (١م)، كما يبلغ طول العتبة حوالي (٢م) وعرضها حوالي (٧٠ سم)، وتؤرخ هذه الجدران إلى الفترة البيزنطية، وتم معرفة ذلك من خلال اللقى الأثرية والقطع النقدية التي عثر عليها في الموقع، وقد شُيِّد البناء السكني من حجارة غير مهذبة الشكل، واستخدم في تدعيمها وتثبيتها الطين والحجارة الصغيرة الحجم.

ومن الواضح أنه قد أعيد استخدام أجزاء كثيرة من المعبد للأغراض السكنية، فقد أُعيد استخدام منطقة المقدس الثلاثي للسكن، والصالة المقدسة لممارسة النشاطات اليومية، أما عند المدخل فقد أضيفت غرفٌ صغيرة استخدمت لأغراض التخزين.

وكشفت التنقيبات الأثرية عن العديد من الكسر الفخارية لأوانٍ مختلفة تؤرخ إلى الفترة الأيوبية والمملوكية، الأمر الذي يدل على استخدام المعبد للأغراض السكنية ودون أن تُضاف إليه أية جدران جديدة خلال هذه الفترة.

أما في الجهة الشمالية من المعبد فقد عُثر على جدرانٍ لحجرة سكنية مستطيلة الشكل، يبلغ عرض جدرانها حوالي (٢ م)، وطول الجدران غير معروف بسبب تهدمها وانهيار حجارتها، وربما تم نقل حجارة الحجرة بقصد إعادة استخدامها في بناء المنازل الحديثة. كما بنيت جدران هذه الحجرة من حجارة غير منتظمة الشكل وضعت مباشرة فوق طبقة الصخر الطبيعي، وقد تكون هذه الحجرة قد استخدمت لغايات السكن أو التخزين (شكل رقم ٣).

٢- تجمعات سكنية مستقلة (شكل رقم ١٥).

ومن خلال الحفريات التي أجريت في بلدة القصر عام (١٩٩٣ م) تم العثور على جدران أضيفت للجدران القديمة، وتبين أنه قد تم إضافتها لتتناسب والاحتياجات الجديدة بعد أن تقرر إعادة استخدام المباني القديمة للأغراض السكنية.

وأجريت بعض المجسات الاختبارية بجانب أساسات الجدران القديمة (شكل رقم ٥، ٦)، وتم اختيار نماذج من تلك التجمعات القديمة الواضحة للعيان، حيث عُمل لها مخططات ورسومات ودراسة تحليلية لمعرفة طبيعة العناصر المعمارية بأشكالها المختلفة، والنشاطات الاقتصادية والاجتماعية والتطورات التي حصلت عليها في الفترات اللاحقة.

أ- **النموذج الأول** (شكل رقم ١٦).

تم دراسة العناصر المعمارية التي تعود للعصور القديمة، وتبيَّن أن هذا النموذج يتكون من ثلاث وحدات رئيسة، والساحة (A)، وآبار ومداخل وبوابة رئيسة، ويقع هذا النموذج إلى الشرق من المعبد النبطي.

دراسة إثنوآركيولوجية تحليلية للنموذج الأول:

لمعرفة طبيعة هذه المنازل تم دراسة أنماط البناء والتطورات التي حصلت على النماذج بعناصرها المعمارية المختلفة، والنشاطات المتنوعة التي كانت تمارس من قبل السكان في هذه الفضاءات المكانية.

واتضح من خلال المخططات الهندسية والدلائل الأثرية أن التجمعات السكنية الموجودة حاليا قد بنيت على أنقاض التجمعات والمباني القديمة التي تعود للفترة النبطية، وتبين أن البناء بمخططاته الحالية يعود للفترات الإسلامية، وأن مخطط هذا التجمع السكني قد تطوَّر وأصبح يختلف عن المخطط القديم، وأصبح هذا التجمع يتكون من خمسة غرف وساحة رئيسة (B)، وجدران حديثة وأبنية إسمنتية (شكل رقم ١٥). فالحجرة رقم (٢٦) والتي تعتبر أول حجرة حديثة في بلدة القصر قد بنيت في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وهي مشابهة لبعض الحجرات التي تم العثور عليها في إحدى التجمعات السكنية في خربة فارس الواقعة إلى الغرب من بلدة القصر (McQuity 1989).

ووجدت هذه الأبنية فوق جدرانٍ قديمة أُرِّخت من خلال نقش وجد فوق المدخل الأمامي لأحد البيوت، وكتب عليه " إبراهيم بن خليل المجالي ١٩١٠ " (شكل رقم ١٧، ١٨). وقد توافق هذا التاريخ مع المعلومات التي تم جمعها من سكان المنطقة المحليين، ومن مالكي المنازل وكبار السن. وبنيت الحجرة من جدرانٍ مكونة من صفين من الحجارة، واستخدم في تقويتها وتثبيتها الطين والحجارة الصغيرة. أما

السقف فقد بني فوق أقواس كان يتم عملها عن طريق بناء هيكل خشبي مثلث الشكل يوضع بين جدران القوس، وبعد ذلك توضع فوق الهيكل الخشبي بعض الأكياس المملوءة بالتراب والقش (Cannan 1933) (شكل رقم ١٩، ٢٠).

ثم يتم قصارته بطبقة من الشيد وبعض المواد التي ترمم سنوياً لتظل قادرة على حمايته من التلف والتساقط الذي تسببه العوامل الجوية المختلفة كالرياح ومياه الأمطار.

ومن الواضح أن الحجارة المنتظمة الشكل كانت تتوفر في المباني القديمة الموجودة في الخرب والمواقع الأثرية، أما الحجارة الكلسية المختلفة الأشكال فهي موجودة في مناطق مختلفة من الموقع، والحجارة البازلتية كان يتم إحضارها من جبل شيحان، ومن منطقة البالوعة، في حين كان يُجلب القصب والدعامات الخشبية من منطقة وادي الموجب، ووادي ابن حماد.

وكان يتم بناء القناطر من قبل صنّاع مهرة يحترفون هذه المهنة، يساعدهم في بناء الجدران بعض البنائين المحليين من سكان القرية، وحرفيين آخرين يتولون الأعمال الأخرى كصناعة الأبواب الخشبية المستخدمة في بعض الحجرات. وتحتوي بعض الأبواب نوافذ صغيرة تقع أعلى الباب توفر الإضاءة والتهوية للحجرة، كما وتعد هذه النوافذ من العناصر الزخرفية التي تزيّن الواجهات الأمامية للبيوت.

أما الحجرتين رقم (٢٤، ٢٥) (شكل رقم ١٥، ١٧، ٢١) فقد بنيتا كوحدتين مستقلتين، وبعد ذلك تم تقسيمها بواسطة جدران داخلية، ويتكون البناء الأصلي من قوس مقنطر منفرد يتصل بجدار آخر في الجهة الشرقية، وقوس آخر في الغرب، ويوجد في الواجهة الأمامية بابان يفتحان من الداخل على بعضهما البعض بواسطة قوس مبني بطريقة معاكسة للجدران، ويبلغ قطر القوس حوالي سبعة أمتار.

أما المداخل والنوافذ فهي محاطة بأطواق من الحجارة، ووظيفة هذه النوافذ توفير الإضاءة والتهوية، ولكلِ حجرة مدخلٌ واحد ونافذتين، وقد أعيد استخدام حجارة بعض المباني القديمة في بناء هذه الحجرة (شكل رقم ١٧، ٢٢).

الحجرتين رقم (٢٢ ، ٢٣) تتشابه طريقة بنائهما مع ما هو متبع في بناء الحجرتين رقم (١، ٢٧)، وتفتح هاتين الحجرتين على ساحةٍ متهدمة بفعل شق الطرق والشوارع وإنشاء المباني الجديدة، وما يميِّز الحجرة رقم (٢٢) هو وجود قنطرة منفردة مدعَّمة بدعاماتٍ حديدية، بينما الحجرة رقم (٢٣) فهي بناءٌ غير منتظم الشكل، وارتكزت أسقف هاتين الحجرتين على دعامات خشبية وحديدية، وربما استخدمت هاتين الحجرتين لغايات تخزين الحبوب.

الساحة رقم (B) (شكل رقم ١٥، ١٧)، تقع هذه الساحة أمام غرفٍ مسقوفة كانت تستخدم للتخزين والراحة ولممارسة بعض النشاطات الاجتماعية، وكانت هذه الساحة مفتوحة على ساحات أخرى، وربما احتوت على خيامٍ كانت تستخدم للجلوس وممارسة بعض النشاطات اليومية، وفي الآونة الأخيرة تم بناء سور وحجرة إسمنتية في الجهة الشمالية لإغلاق هذه الساحة. ومن خلال الاستعراض السابق لهذا النموذج يمكن القول بأنه قد تميَّز بما يلي:

- غرف هذا التجمع السكني ذات أشكال منتظمة، وغلب عليها الشكل المستطيل.
- الساحة الخارجية تأخذ شكل المربع، وفي بعض الأحيان تفتح على ساحات أخرى، وكانت تستخدم لممارسة النشاطات اليومية.
- عدم وجود مداخل معمَّدة أو أعمدة داخل الحجرات.
- وجود نوعين من الأقواس (القناطر):

أ- قوس مبني على قاعدتين (قنطرة منفردة).

ب- قوسين مبنيين على قاعدة واحدة في الوسط.

- إعادة استخدام حجارة مزخرفة تعود للفترة النبطية والرومانية في بناء جدران هذه الحجرة.

ب- النموذج الثاني (شكل رقم: ٢٣).

يقع هذا التجمع إلى الشرق من المعبد النبطي، وفي الجهة الجنوبية من المنزل رقم (١)، ومن خلال المسوحات والمخططات والمجسات التي تم عملها تبين أن هذا التجمع يتكون من ستة غرف أساسية وساحة رئيسية وقنوات مياه ومدخل رئيسي، وهذا المخطط يعود للفترة النبطية مع إعادة استخدامه في الفترات الرومانية و البيزنطية.

ومن أجل التأكد من تاريخ وطبيعة ومكونات الجدران السفلية القديمة لهذا التجمع تم عمل مجس اختباري (T. 1) في الزاوية الشمالية الغربية للساحة الخارجية (شكل رقم ٦)، ويقع هذا المجس على يمين مدخل الحجرة رقم (١) حيث بلغت أبعاده (١ x ٢,٤٠ م).

وتتكون الطبقة العليا فيه من ترابٍ رمادي اللون، وتحتوي الطبقة على بقايا حجارة بازلتية وجيرية، وقد تم ملاحظة وجود طبقة رماد ربما تدل على حدوث دمارٍ في الموقع، أو تدل على استخدامه كمكان للطبخ، وتمثلت موجودات هذه الطبقة بالفخار الذي يعود إلى الفترة الإسلامية، وخاصة الفترة الأيوبية والمملوكية.

واحتوت الطبقة الثانية من المجس على حجارة صغيرة، ومن خلال اللقى الأثرية التي تم العثور عليها تبيَّن أنها تعود للفترة البيزنطية. أما الطبقة الثالثة فلونها بني فاتح، ومليئة بالفخار النبطي والروماني، وتقع مباشرة فوق طبقة الصخر الطبيعي.

ومن الملاحظ أن جدران الحجرات التي أضيفت في الفترات اللاحقة قد بنيت فوق الجدران النبطية والرومانية، والإضافات اللاحقة مبنية من حجارة صغيرة الحجم وغير مهذبة الشكل، واستخدم في بنائها بعض حجارة المباني القديمة.

دراسة إثنوآركيولوجية تحليلية للنموذج الثاني (شكل رقم: ١٥).

في الفترات اللاحقة تم استخدام الجدران القديمة، وما تبقى من البقايا السكنية، كما أضيفت بعض المرافق السكنية تبعاً لازدياد عدد أفراد الأسرة، ولكن اختلفت طبيعة هذه الجدران من حيث شكل حجارتها وحجمها والمواد المستخدمة في بنائها. فالجدران أصبحت مبنية من كتل حجرية غير مهذبة الشكل، وحجم الحجارة أصبح أصغر مع إعادة استخدام بعض الحجارة القديمة، وأصبح هذا النموذج يتكوَّن من تسعة عشر حجرة وساحة رئيسة وبعض الآبار والخزانات والقنوات المائية.

الحجرتان رقم (٩ ،١٠) (شكل رقم ١٥، ٢٤).

تقعان مباشرة جنوب الحجرة رقم (٢٦) من هذا النموذج السكني، ويرتكز سقفها على أربعة أقواس (عقود) يرتكز عليها السقف من الداخل، وتقسم العقود البيت بجدران جانبية مقصورة بالجص (شكل رقم ٢٥)، وفي داخل الحجرة رقم (١٠) يوجد غرف جانبية تشكِّل فراغات بين الجدران والأقواس، وقد استخدمت هذه الفراغات لغايات التخزين. وواجهة هذه الحجرة تحتوي على فتحة يدخل منها الضوء والهواء، ومن الملاحظ وجود بعض الحجارة المنحوتة التي أعيد استخدامها بعد أن كانت مستخدمة في الأبنية النبطية القديمة.

الحجرة رقم (١١) (شكل رقم ١٥، ٢٤).

تتكون من جدرانٍ معاكسة للجدار الجنوبي للحجرة رقم (٢٦) ومعاكسة لجدران الحجرات رقم (٩ ،١٠)، وتقع مقابل الطابون، ولا تختلف طريقة بنائها كثيراً عن الحجرات السابقة من حيث طبيعة المواد المستخدمة في البناء، كما يتألف سقفها من دعاماتٍ خشبية وضعت بشكلٍ أفقي، تعلوها طبقة من القش والقصب دُعِّمت بعقد منفرد. الجزء الداخلي من هذه الحجرة معزول بواسطة جدار عرضي، واستخدم الجزء الداخلي لأغراض تخزين بعض المواد كالقش والتبن، وتتشابه واجهة الحجرة

الأمامية مع واجهات الحجرات السابقة، إلا أن مدخلها أصغر مما هو موجود في الحجرة رقم (٩) والحجرة رقم (١٠)، كما أحيط المدخل بنافذتين ساكفهما مشطوف آليا، وأحيطت النوافذ نفسها بإطارين من الحجر البازلتي يفصل بينهما طوقان من الحجارة الجيرية وضعا لغايات زخرفية، كما استخدم في بنائها حجارةٌ أحضرت من بعض المباني القديمة.

الحجرتان رقم (١، ٢٧) (شكل رقم ١٥).

تقع الحجرة رقم (١) في الجهة الشمالية الشرقية من الساحة الرئيسة (A)، وعلى حافة شارعٍ مبلط، وتتميز جدرانها من الجهة الشرقية باستخدام الحجارة البازلتية التي يتخللها فتحات في الجزء العلوي (شكل رقم ٢٩)، واتخذ جزئها الموجود في الجانب الشمالي من الساحة الشكل المربع، وأصبحت مغلقة، وما بقي من البناء الذي يعود للحجرة رقم (١) مشابه للغرف السابقة، حيث يوجد في هذه الحجرة عقد منفرد مدعوم بأعمدة حديدية.

أما الحجرة رقم (٢٧) (شكل رقم ١٥) فهي غير منتظمة الشكل، ويرتكز سقفها على دعامتين خشبيتين وأخرى حديدية، وقد استخدمت لأغراض الضيافة، ويتوسط جدارها الغربي من الداخل منصة مرتفعة يوضع عليها الفراش (مطوى)، ولها مدخلٌ يقع في الجهة الشمالية ويطل على المدخل الرئيسي للمنزل. كما تتشابه هاتين الحجرتين مع الحجرتين رقم (٢٢، ٢٣) في النموذج رقم (١).

الحجرات رقم (١٣، ١٤، ١٨) (شكل رقم ١٥، ٢٦).

تفتح الحجرة رقم (١٣) على ساحة داخلية. أما الحجرة رقم (١٢) فتقع في الزاوية الشمالية الشرقية، ولهذه الساحة مدخل يؤدي إلى الساحة الرئيسة (A). أما الحجرتين رقم (١٤، ١٨) فهما متشابهتان وتفتحان على بعضهما البعض بواسطة باب داخلي، وتشكلان وحدة سكنية مستقلة، بني سقفهما من الطين والقش والقصب، ودُعّم بأعمدة ودعامات حديدية، وطريقة بنائهما مُشابهةٌ لما هو موجودٌ في الحجرة رقم (١)، ويوجد

بهذه الحجرة مطوى يقع في الجهة الشمالية من الحجرة رقم (١٨). وللحجرة رقم (١٨) ساحةً خاصة لممارسة بعض النشاطات اليومية.

أما الحجرة رقم (١٣) فكانت تستخدم كطابون، وخصصت ساحاتها لممارسة النشاطات اليومية المختلفة (شكل رقم ١٥، ٢٧)، وعلى الجانب الآخر من الساحة (A) تقع الحجرتين رقم (١٧،٦)، ولهما واجهتين داخليتين تطلان على الساحة (A)، وواجهتين مطلتين على الشارع الحديث. وللحجرة رقم (٦) مدخلٌ يقع في الجهة الشرقية، وهما مبنيتان من الإسمنت وكذلك سقفهما إسمنتي، أما الواجهة الخارجية فهي مبنية من الحجر، ويوجد في الجدار الغربي للحجرة رقم (١٧) مطوى وخزانة، مما يدل على أن هاتين الحجرتين قد استخدمتا للأغراض السكنية.

الحجرات ذات الأرقام (٢، ٣، ٤) استخدمت كدكاكين، ولها مداخل خارجية تطل على الشارع الحديث. وتقع الحجرة رقم (٨) في الزاوية الغربية من الساحة الرئيسية (A)، وهي مبنية من الإسمنت، ولها مدخلٌ واحد بسيط ونافذتين بجانب مدخلها الرئيسي (شكل رقم ٣٠)، ويقسم الحجرة من الداخل جداران إسمنتيان يقسمان بدورهما الفراغ الداخلي إلى عدة فضاءات، وقد استخدمت هذه الحجرة لغايات التخزين.

واستخدمت الحجرتان رقم (١٥، ١٦) كمكان للطبخ، وكانت حجرة الطابون مهمة في حياة ساكني هذا المنزل، فقد استخدمت الحجرة رقم (١٦) كفرن أو كموقد، وفي وقت لاحق استخدمت الحجرة رقم (١٥) كفرنٍ وما تزال مستخدمة حتى الآن.

واللافت للنظر في هذا التجمع السكني وجود بعض المصاطب التي كانت تستخدم للجلوس والاجتماعات، حيث شكلت هذه المصاطب مرفقاً مهماً في فضاءات ومخططات هذه المنازل، وتقع في ساحة المنازل الرئيسة.

ومن بين العناصر المهمة في هذا التجمع السكني وجود آبار أو خزانات مياه حيث يوجد في الساحة (A) بئر وقنوات تنقل المياه من سطوح المنازل إلى الآبار الموجودة في الساحة الرئيسية، وهذا الأسلوب في جمع المياه ناتجٌ عن عدم وجود مصادر مياه

قريبة من بلدة القصر، الأمر الذي عزّز لدى السكان فكرة الاعتماد على حفر الآبار والخزّانات لتجميع وتخزين مياه الأمطار. وقد جُعلت أسطح المنازل مائلة من أجل تجميع المياه ونقلها إلى الآبار، ويتم صيانة أسطح المنازل بشكل سنوي لتظل قادرة على مقاومة العوامل الجوية المختلفة خاصة في فصل الشتاء، أما القنوات فكانت تسقف ببلاطات حجرية. وفي الوقت الحاضر أصبحت تغطى بمادة الإسمنت للمحافظة على نظافة المياه لتستخدم في الشرب وللأغراض اليومية المختلفة كالطهي والتنظيف وسقاية المزروعات والحيوانات (شكل رقم ٢٧، ٢٨).

الخاتمة:

تبيَّن من خلال هذه الدراسة أن طبيعة التجمعات السكنية التي كانت موجودة في بلدة القصر قد اتسمت بالطابع الزراعي الرعوي، وإن سكان هذه التجمعات كانوا يمارسون مهنتي الزراعة والرعي، لأن هاتين المهنتين شكلتا بالنسبة لهم عملية اقتصادية تكاملية، فقد كانوا يزرعون السهول الخصبة، ويقومون بتخزين فائض الإنتاج في مساكنهم وفي مباني خصصت لهذه الغاية، كما استخدموا هذه السهول كمراعي لمواشيهم بعد الانتهاء من عملية الحصاد وجني المحاصيل.

ومن المحتمل أن سكان هذه التجمعات السكنية كانوا يذهبون إلى منطقة الأغوار المعتدلة شتاءً لفترة من الوقت لحماية مواشيهم من شدة البرد القارص، ثم يعودون في الأوقات الأخرى إلى منطقة القصر لزراعة سهولها واستخدام مراعيها.

من خلال هذه الدراسة الإثنوآركيولوجية التحليلية تبيَّن أن هناك استمرارية في سكن هذه التجمعات السكنية القديمة مع إجراء بعض التغييرات والإضافات، وإعادة استخدام لبعض الحجارة والعناصر الزخرفية، الأمر الذي يدل على استمرار نفس الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك، ونجد أن ذلك قد انعكس على مخططات وتقنية البناء والتراث المعماري، كما أنها تشير إلى وجود موروث معماري ثقافي واحد.

ومن خلال هذه الدراسة يتضح أن طبيعة هذه التجمعات السكنية القديمة متشابه إلى حدٍ كبير مع بعض التجمعات السكنية التي وجدت في بعض المواقع النبطية الأخرى مثل موقع خربة فارس وأم الجمال والعديد من الخرب والمواقع النبطية المجاورة لبلدة القصر. الأمر الذي يؤكد على أن أسلوب البناء والعناصر المعمارية المستخدمة تعود إلى أصلٍ واحد، وهو التأثير النبطي. وعند تحليل العناصر الزخرفية المستخدمة في واجهات البيوت يتبيَّن أن البنّائين وسكان هذه التجمعات قد استخدموا الحجارة المزخرفة في الأجزاء الرئيسية من الأبنية كالواجهات الأمامية وإطارات النوافذ والأبواب.

كما يتضح أن طبيعة هذه البيوت والمباني هي ذات نمط واحد تطوَّر في المنطقة بتأثير البيئة التي كانت سائدة في تلك المنطقة، إضافة إلى أسلوب حياة تلك المجتمعات وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية، ويتضح هذا التأثير من خلال الفناء الداخلي الذي تتجمع حوله الوحدات السكنية للعائلة الممتدة التي تعد النمط السائد في تلك المنطقة (الشناق ١٩٩٨).

إن توجيه البيوت والمباني نحو الشرق وعمل بعض النوافذ بهدف التهوية والإضاءة واستخدام الساحات الخارجية لممارسة النشاطات اليومية تمثل العناصر الأساسية للتراث المعماري في منطقة الدراسة.

المراجع

المراجع العربية

(١) شناق، محمد (١٩٩٦) " المسكن والتغير الاجتماعي المكاني، دراسة أنثروبولوجية لمجتمع الملاحة في الأغوار الوسطى". **أبحاث اليرموك**، سلسلة العلوم الانسانية والاجتماعية. المجلد ١٤، العدد ٣. جامعة اليرموك.

(٢) شياب، عاطف، (٢٠٠٧)، المنشاءات المائية في بلدة الربة بجنوب الاردن خلال الفترات الكلاسيكية والاسلامية دراسة تحليلية مقارنة، **مجلة كلية الاثار، جامعة القاهرة**، العدد الثاني عشر.

(٣) شياب، عاطف (١٩٩٠) تخطيط المعابد النبطية في جنوب الاردن، **رسالة ماجستير غير منشورة** – معهد االاثار والانثروبولوجيا – جامعة اليرموك.

(٤) المراجع الأجنبية

(1) Albright , W. F. (1924) The Archeological results of an Expedition to Moab and Dead Sea, **BASOR, 14** ,p 1-12.

(2) Albright, W .F. (1928) The Egyptian Empire in Asia in the twenty first century B.C **TPOS VIII**, 241-249.

(3) Ambraseys, N. (1971) **Documentation on historical Earthquakes in the near east**, p 68.

(4) Bennett, C. M. (1973) Excavation at Buseirah, Southern Jordan 1971: a Preliminary report, **LEVANT** 5, LEVANT 6, LEVANT 7.

(5) Bliss, F. J. (1895) Narrative of an Expedition to Moab and Gilead in March, **PEFQS**, 1895, p 203-234.

(6) Boraas, R. S. and Geraty, L. T. (1976) Heshbon 1976: The fifth campaign at tell Hesban. Andrews University monographs; **Studies in Religion 10** Berrien spring, Mich Andrews university.

(7) Boraas, R. S. Geraty, L. T. (1976) studies in Religion 9, Berrien springs, Mich Andrews University.

(8) Boraas, R. S. and Geraty, L .T. (1974) Heshbon The fourth campaign at tell Hesban, Andrews University monographs.

(9) Boraas, R.S. and Horn, A.H.(1975), Hesban 1973: the third campaign at tell Hesban, Andrews University monographs; **Studies in Religion 8**, Berrien springs, Mich Andrews university .

(10) Brown, F. (1907) **A Hebrew and English lexien of the old testament**, Oxford ,p.555.

(11) Brunnow R.E. and Domaszewsk, V. (1904) **Die Provincia Arabia**, auf. Grand zweier in den Jahre 1897 Und 1889 Unternommenen reisen und der Berichte Fruherer Reisender , 3 vols. Strassburg : Kar J. Trubner.

(12) Calzini,J. and Luigi M. (1997) Etude du Temple Antique de Qasr ar-Rabba dans le Moab, **ADAJ, Volum,XIL**, pp, 189-193.

(13) Cannan, T. (1933) The Palestinian Arab House, **Journal of the Palestine oriental Society,** 13, P 1-83.

(14) Canova, R. (1954) **Iscrizionie** Monumenti protocristiani del paese di Moab, Rome: pontifical institute.

(15) Crowfoot, J. W. (1934) An Expedition to Baluah, **PEFQS**, p.76-84.

(16) Doughty, C.M. (1979) (**Travels in Arabia Deserta** 2 ,vols,Cambridge 1979 travels in Arabia deserta vol .I dover publications , Inc,New York , p39-60.

(17) Felicien de S. (1853) Voyage Autour de la mer morte et dans les terres bibliques, execute de Decembre a avrile 1851, publie sous les awspices du minister de l,instructions publique relation du voyage I ,II,Atlas- Paris, Gide et J.Baudry 1853(80,399,655,40 Lvii Tafela, 1850-1851.

(18) Gautier, L. (1901) **Autour de la mar morte** avec 34 illustrations d,après les photographies de l,auteur et une certe. Genera: ch .Eggiman,n et Eie.

(19) Gen **xix 37** :37.

(20) Glueck , N. (1934) Exploration in Eastern Palestine I, **AASOR** 14,;AASOR ,IX, 1935 ;III-XXX,1937; III-XIX,1939; XXV-XXVIII.

(21) Glueck , N. (1965), **Deities and Dolphins** , new York , Farrar, Straus and Giroux,p54-56.

(22) Glueck . N. (1970), The Other side of Jordan vi, the civilization of the Nabateans, **AASOR**, Cambridge Massachusettes,p193-259.

(23) Hodder, I. (1989) **Reading the Past Current Approaches to Interpretation in Archaeology**. Cambridge University Press. New York.

(24) Hornstein, A. (1898) Visit to Kerak and Petra, **PEFQS:** 94-103.

(25) Horsfield, G. and Vincent, L. H. (1932) Chronique: Une stele Egypto Moabite au Baloua, **RB 41**, p417-444.

(26) Horsfield, G. and Vincent, L. H. (1932) Chronique: une stele Egypto Moabite au Baloua **RB 41**.

(27) Irby C. L. and Mangles, J. (1823) **Travels** in Egypt and Nubia Syria and Asia minor; during the years 1817 and 1818, London: printed for private distribution, zed. Travels in Egypt and Nubia Syria and the holy land, including a journey Round the Dead Sea and through the country east of the Jordan, London John Murry 1823.

(28) Klein, F. A. (1872) Notizen uber eine Reise nach Moab im Jahre 1872 **ZDPV: 124-34** (Trans.notes on a Journey to Moab , **PEFQS, 1880** 249-55.

(29) Klein F. A. (1869) Missionary tour into a portion of the Trans-Jordanie countries .**The Church Missionary intelligence 5:** 60-64, 92-96, 123-28.

(30) Lapp, P. W. (1966) Chronique Archeologique: Babe dh-Dhra,, **RB** 73,;RB 75,1968a, BASOR 189,1968b.

(31) Le Duc de Luynes. (1871), **Voyage** d,Exploration a la mere morte a Petra et Sur la rive gauche du Jordain, Paris : Arthur Bertrande , 109.

(32) Libby, W. and Hoskins, F. E. (1905) **The Jordan Valley and Petra** 2 vols. New York, London: G. P. Putnam's sons /knickers 1905 Bocker.

(33) Luynes, A. (1871) **Voyage** d, Exploration a la mer morte a Petra et sur la rive gauche du jourdan, 3 vols, Paris: Arthur Bertand, 1871-76.

(34) Lynch, W. F. (1848) **Narrative** of the United States Expedition to the river Jordan and the Dead Sea. Philadelphia: Lea and Blanchard, 1848.

(35) Mauss, C. and Sauvaire, H. (1869) DE Karak a Chaubak .extrait d, UN Journal de voyage. **Bulletin de la societe de geographie 14** : 449-522.

(36) Mcquitty, A. (1989) The Faris Project: preliminary Report upon the 1986 and 1988 seasons , Report upon the 1986 and 1988 seasons **, Levant 21**, Pp. 63-95.

(37) Merriman, N. (2004) Public Archaeology. Routledge. Taylor& Group. London and New York.

(38) Miller, J. M. (1978)Archeological Survey of central Moab: 1978, **BASOR; 234**,1979a ; Archeological survey south of wadi Mujib: Gleuck,s sites revisited, ADAJ 23, 1970b, recent archeological development Relevant to Ancient Moab ,in studies in the history and archeology of Jordan I, Hadidi,A, (ed), Amman: Department of antiquities of Jordan,1982.

(39) Miller, J. M. (1983a) Site Identification: a problem area in Contemporary; Mattingly, G. L. Nelson Glueck and early bronze age Moab,**ADAJ, 27**, 1983a; the natural environment of central Moab ,**ADAJ: 27**,1983b.

(40) Musil, A. (1907) **Arabia Pertaea** Vol, I Moab, vol, II Edom, Wien 1907.

(41) North, R. S. T. (1979) A history of Biblical map making, **BTAVO**, B/32, 1979.

(42) Olavarri, E. (1969) Fouilles a Aroer sur l,Arnon , **RB 76**,p 230-259.

(43) Olavarri, E. (1965) Sondages a Aroer sur L,Arnon, **RB 72**,p,77-94.

(44) Palmer, E. H. (1871) the desert of the Tih and the Country of Moab, **PEFQS 9**, 1871 a, p3-73.

(45) Roth, J. B. (1858) Prof.Dr.J.B Rath,s**Reisen in Palastina** IV ,Abschnitt: Erste Susfluge in die ost-Jordan-lander, 17, Marz bis 4 April 1858. pp. 267-72 in petermann,s mittbeihungen.

(46) Savignac, R. (1935) le temple de Ramm , RB 44 ,1935,RB 42,1933;RB 43 1934. **Reisen durch syrien, Palastina.**

(47) Seetzen,U. J. (1859) phonicien , Die Tran Jordan- Lander, Arabia Petraea und unter Aegypten ,ed.fr.kruse, et al. 3 vols Berlin : G reamer vol4: commentare 24 Ulrich Jasper Seetzens reisen Durch syrien – Us .w .ed fr. Kruse et al, Berlin, C. Reimer.

(48) Shiyab, A. (1994) An Archeological Excavation at the temple of Qasr al- Rabbah in al- Karak, ,**Newsletter of the I.A.A 16** ,Yarmouk University,16, ,pp,25-28.

(49) Shiyab, A. (1995), Highlight of the Excavations of al- Rabbah and al-Qasr in al Karak in the year 1993. **Newsletter of the I.A.A 18**, Yarmouk University,18, ,pp.14-16.

(50) Smith. G. A. (1904) The Roman Road between kerak and Madeba , **PEFQS 1904** :367-77;1905:39-48.

(51) Tristram, H. B. (1876) **The land of Israel**, A Journal of travels in Palestine 1873, London : society for promoting Christian Knowledge , 1st edition 1865: znd edition 1866; zed edition , revised 1876 (80x65, p 110-128.

(52) Vincent, L. H. (1899) Underground Jerusalem English translation of Jerusalem sous Terre: Les Recentes fouilles d, ophel, london : Horace cox. **PETQS 1899**.

(53) Vincent, L-H. (1898) Notes de Voyage **RB 7** : 425-51, 1898.

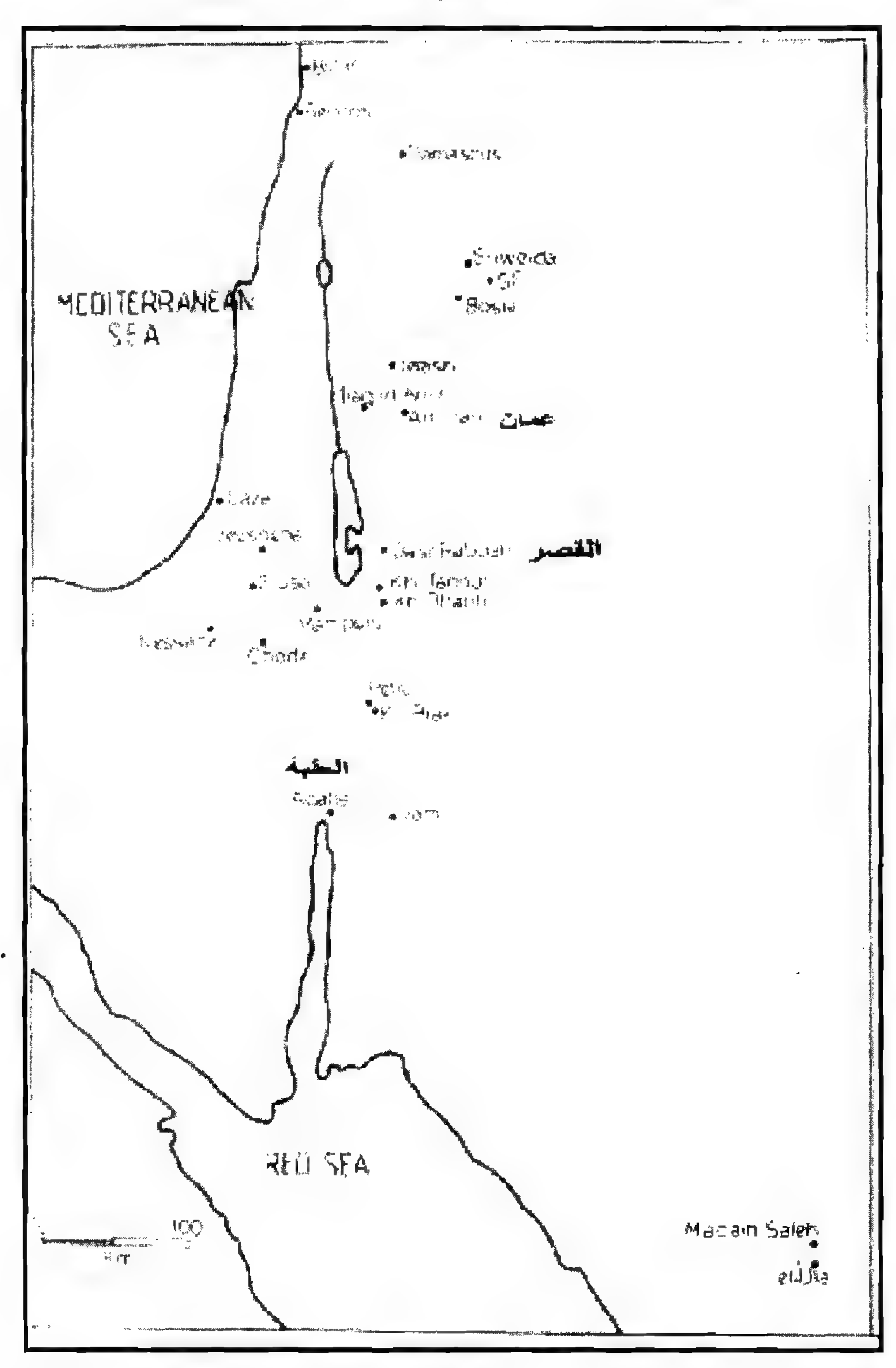
(54) Vollers , K. (1906) " Der name Moab" in **Zeit sch rift fur Assyr iologie**, 21, p 237 - 240.

(55) Wilson, C.W. (1899) Address Delivered at the Annual meeting of the fund ,**PEFQS 1899** .p.304-16.

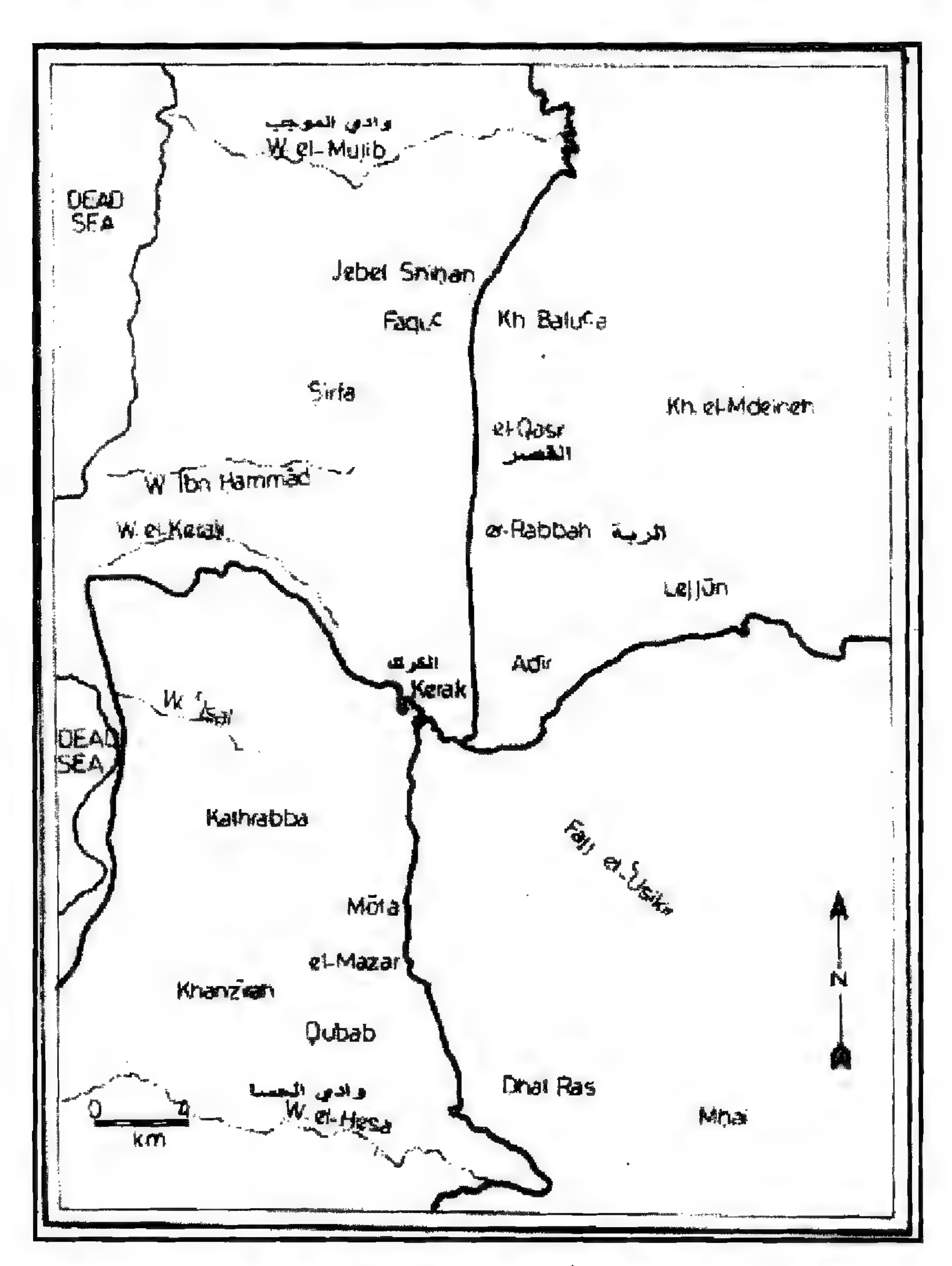
(56) Winnett, F.V. (1963) Reed,W.L, A fragment of an Early Moabite Inscription from Kerak, **BASOR, 172** ; the excavation at Dibon in Moab, AASOR XXXVI-XXXVII.

(57) Zayadine, F. (1971) Un Seisme a Rabbat Moab, **Berythus, 10**. vol xxx, p 139-41.

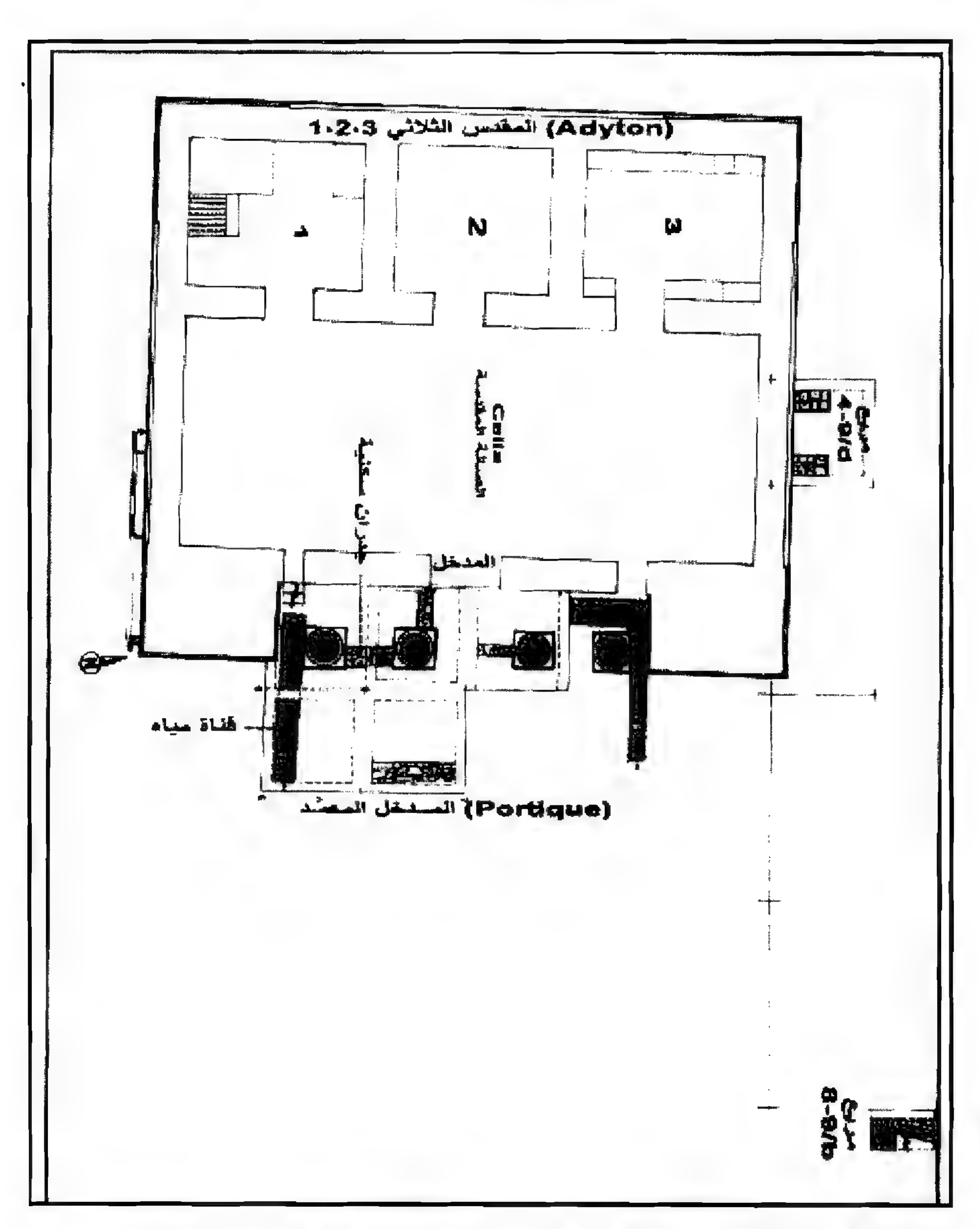
الأشكال والصور



شكل رقم (١) القصر: خارطة توضح موقع بلدة القصر بمحافظة الكرك – الأردن.



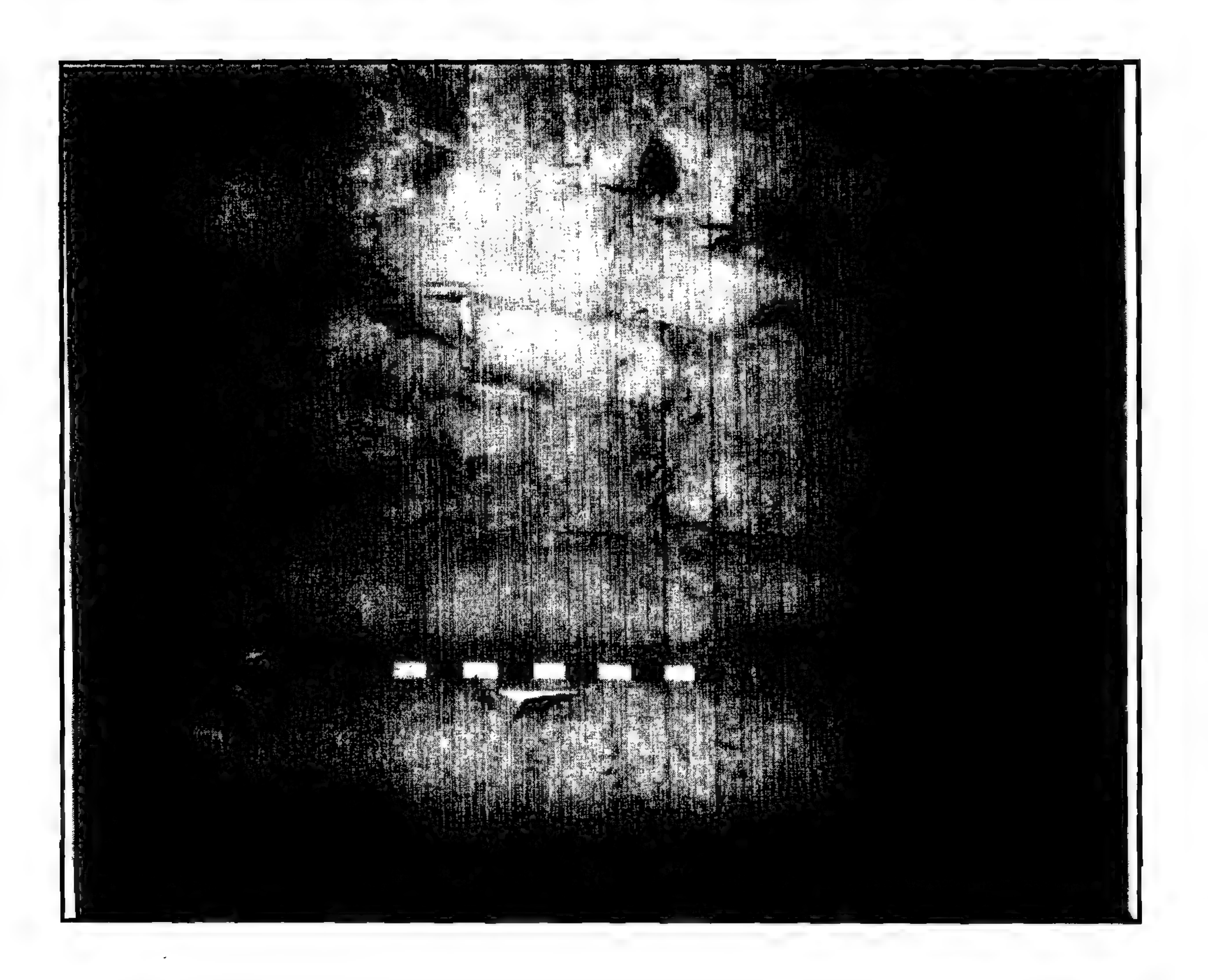
شكل رقم (٢) القصر: خارطة توضح موقع بلدة القصر بين وادي الموجب ووادي الحسا – الأردن.



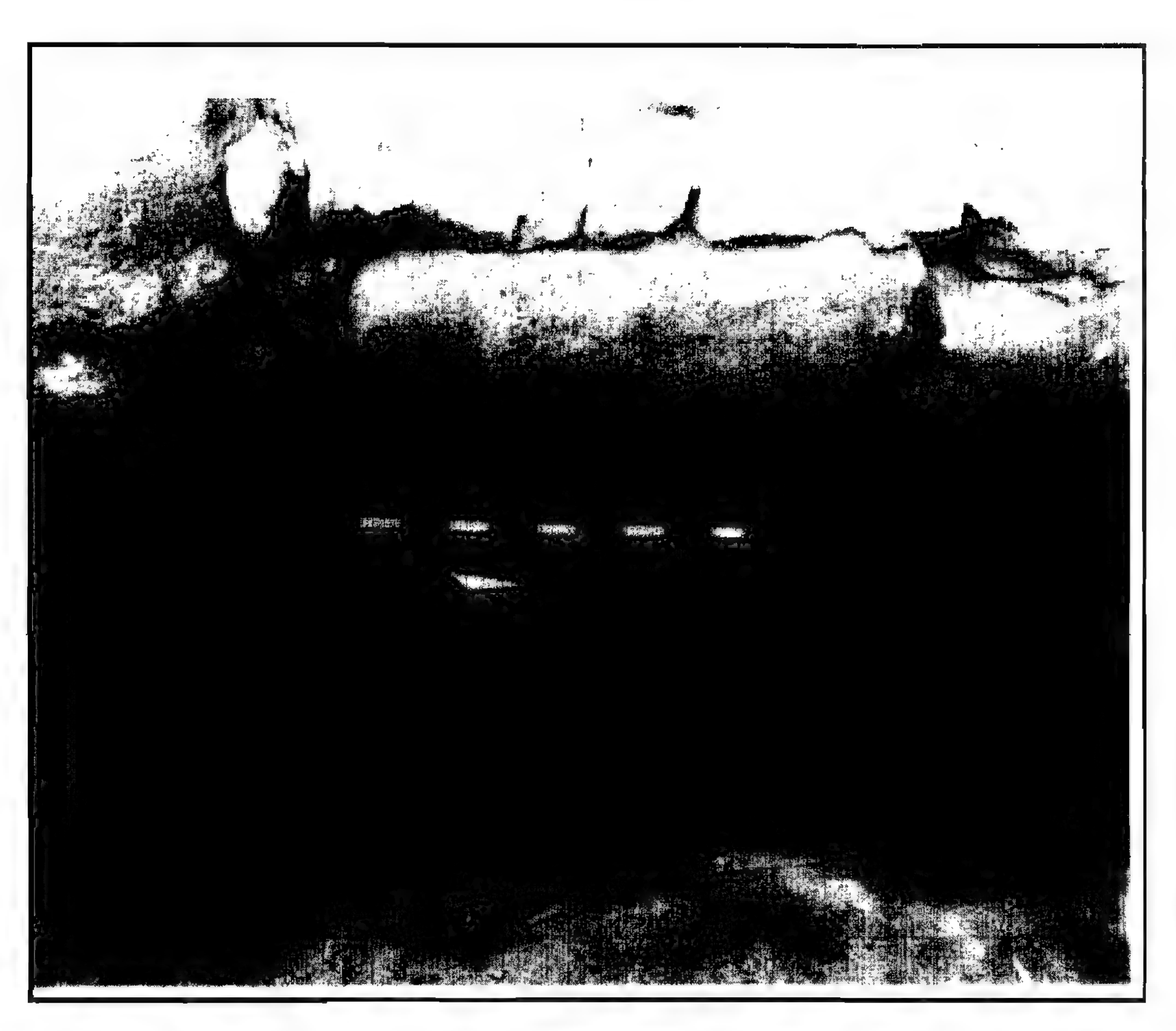
شكل رقم (٣) القصر: مخطط يوضح بعض القنوات المائية الموجودة عند مدخل المعبد والتي تم الكشف عنها خلال حفريات عام ١٩٩٣، ١٩٩٦م.



شكل رقم (٤) القصر: صورة تبين المجس الاختباري الذي نُـفِّذ في ساحة المعبد الأمامية والذي تم من خلاله تأريخ الموقع (المربع 8-9/b).



شكل رقم (٥) القصر: صورة تبين الجدران القديمة للحجرة رقم (١).

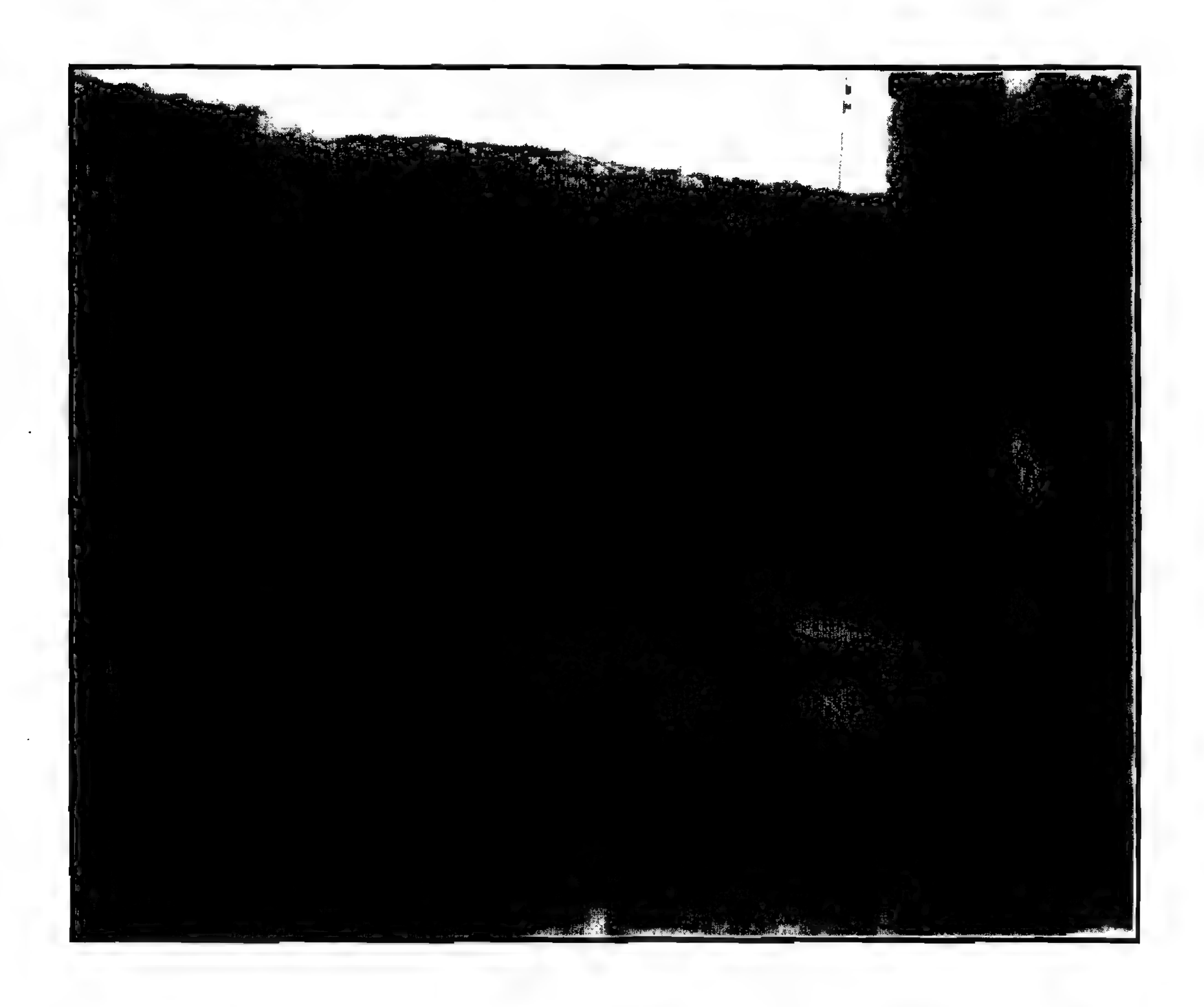


شكل رقم (٦) القصر: صورة توضح المجس الاختباري رقم (١) بجانب الجدار القديم للحجرة

رقم (١) من التجمع السكني رقم (٢).



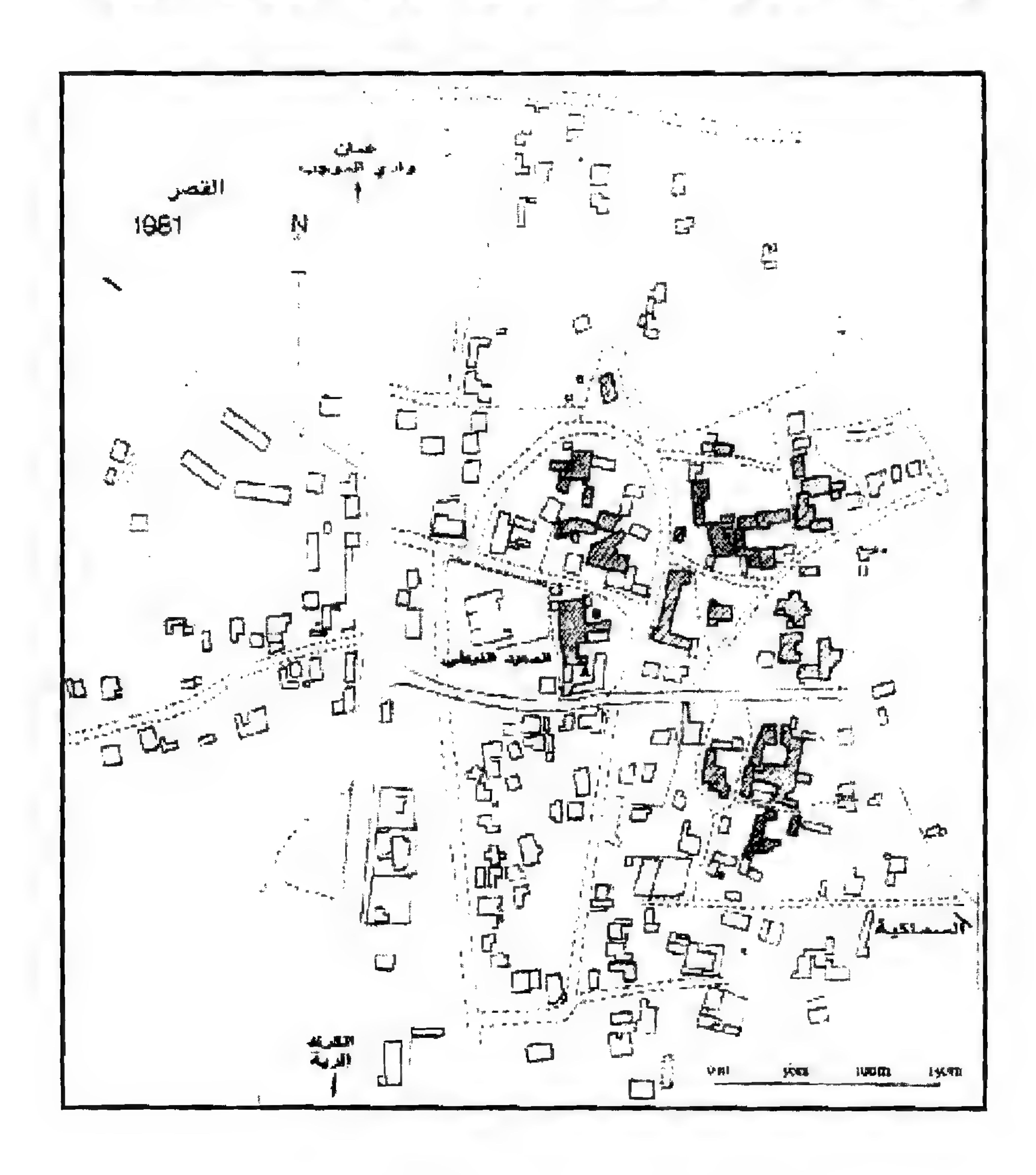
شكل رقم (٧) القصر: صورة توضح قواعد أعمدة قديمة أُعيد استخدامها في بعض التجمعات السكنية المجاورة للمعبد.



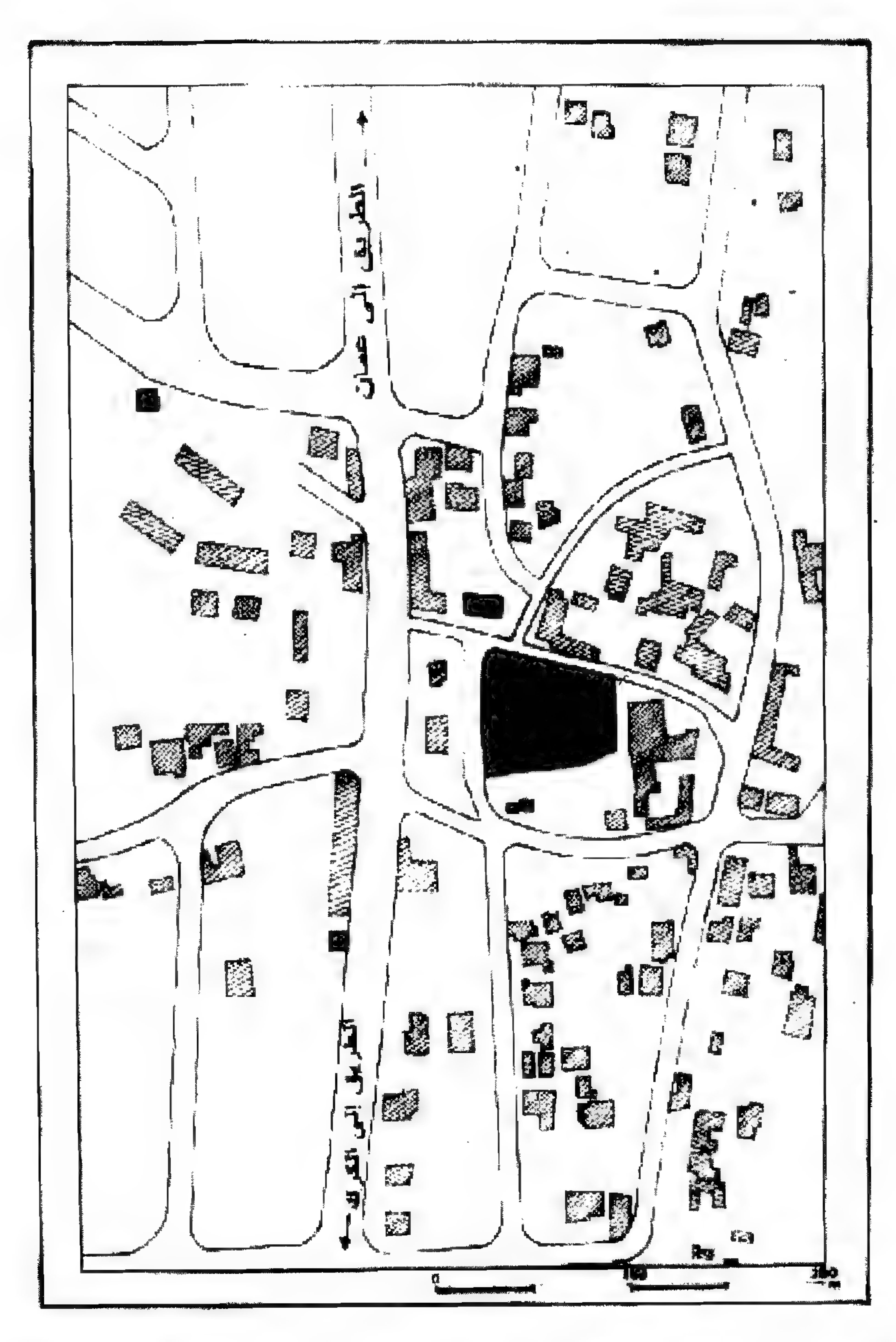
شكل رقم (٨) القصر: صورة تبدو فيها قنوات مغطاة بألواح حجرية تنقل المياه من أسطح المنازل إلى الآبار الموجودة في ساحة التجمع السكني رقم (٢).



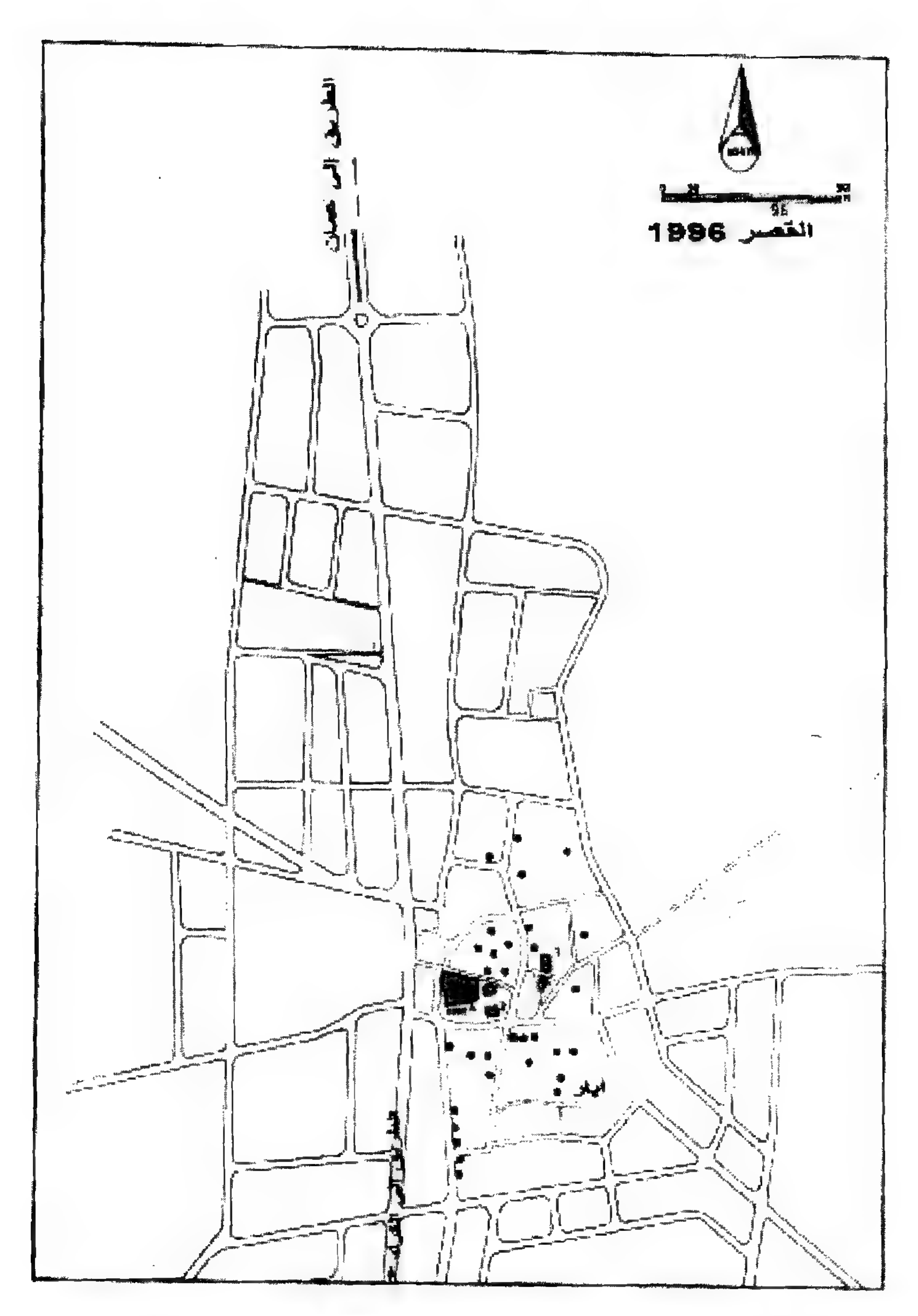
شكل رقم (٩) القصر: صورة يظهر فيها جرن حجري موجود بجانب قاعدة عمود موجود داخل المدخل المُعمَّد.



شكل رقم (١٠) القصر: مخطط يوضح بلدة القصر.



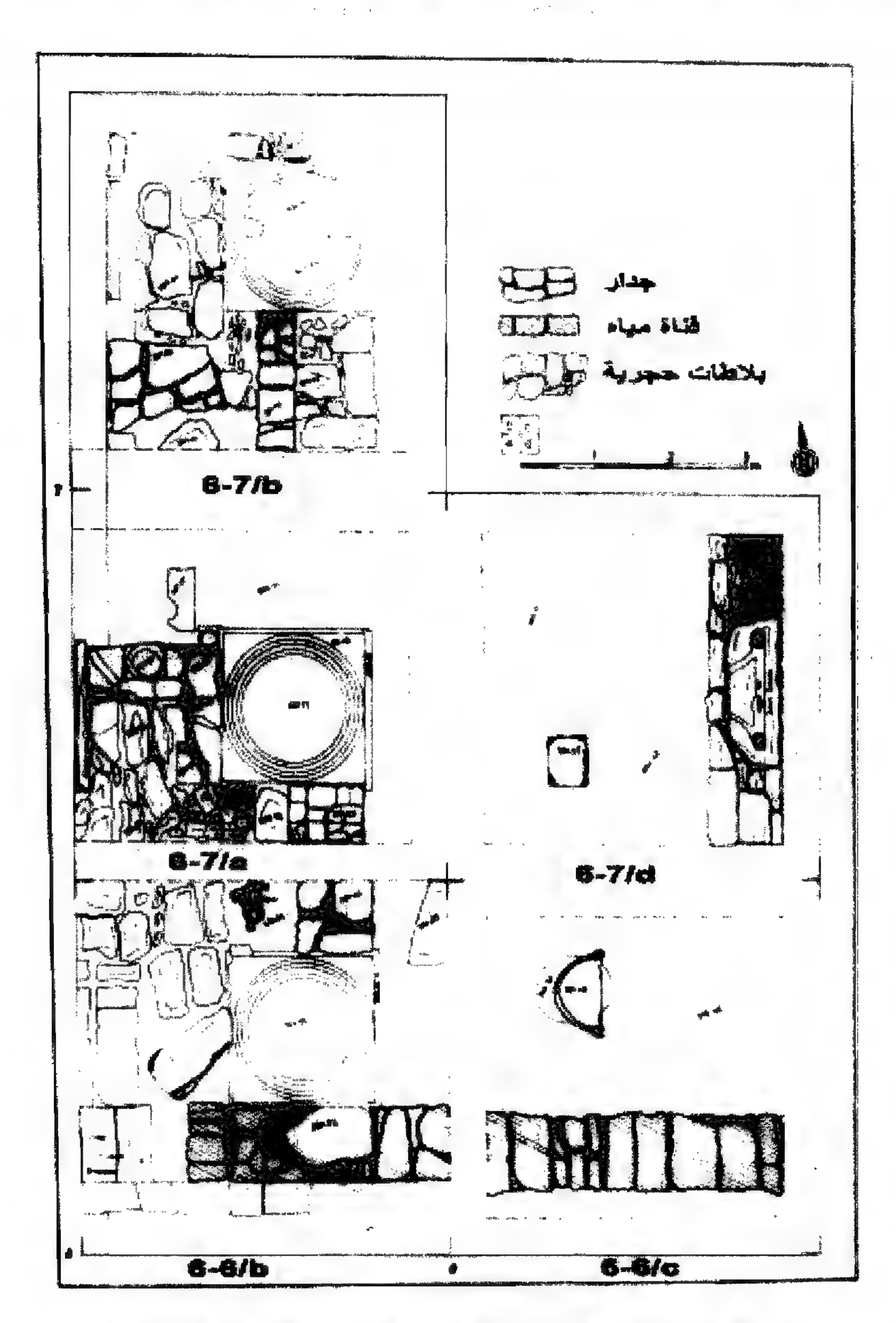
شكل رقم (١١) القصر: مخطط بلدة القصر يتضح من خلاله المعبد والتجمعات السكنية.



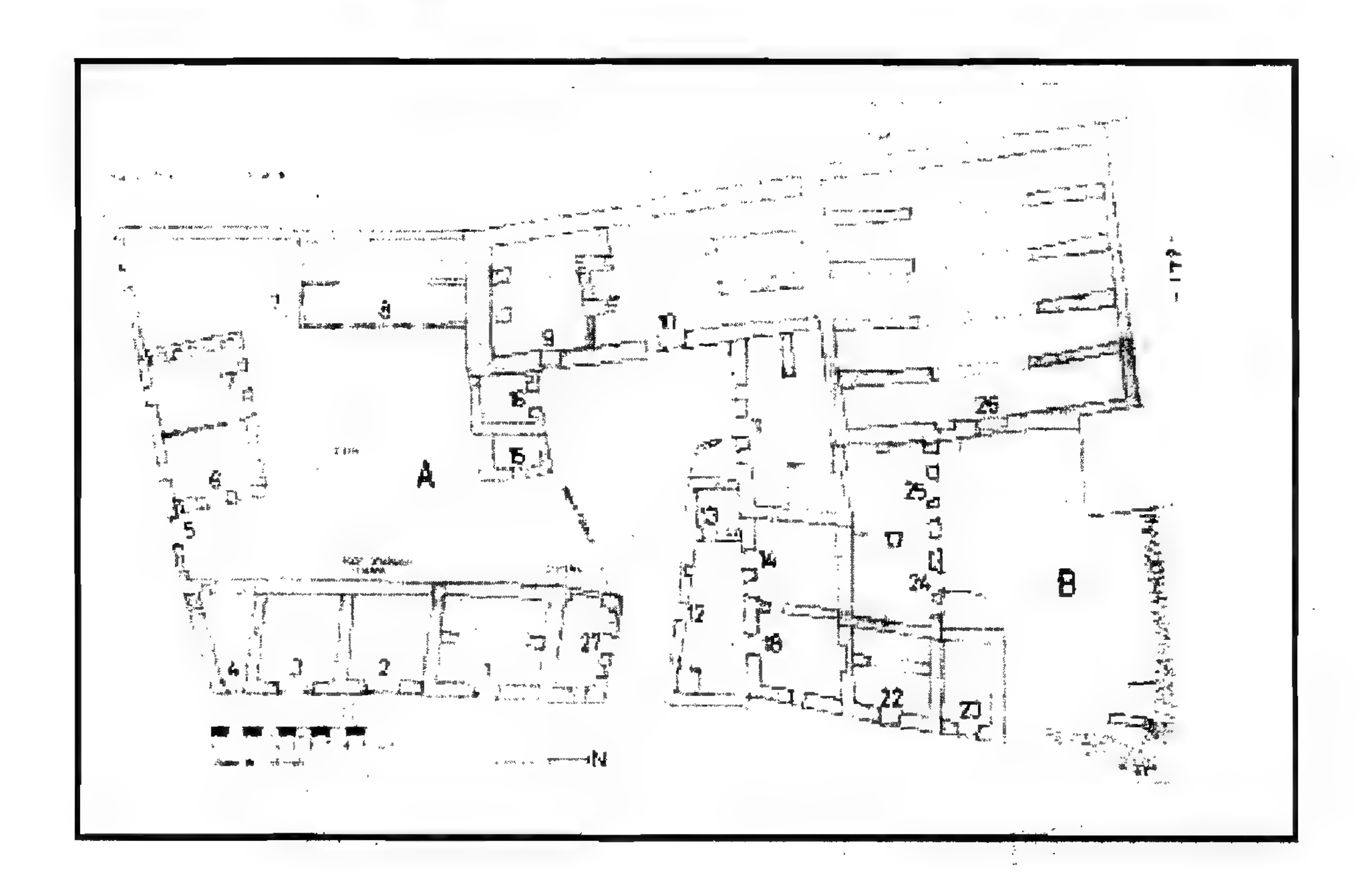
شكل رقم (١٢) القصر: خارطة توضح المخطط التنظيمي لبلدة القصر.



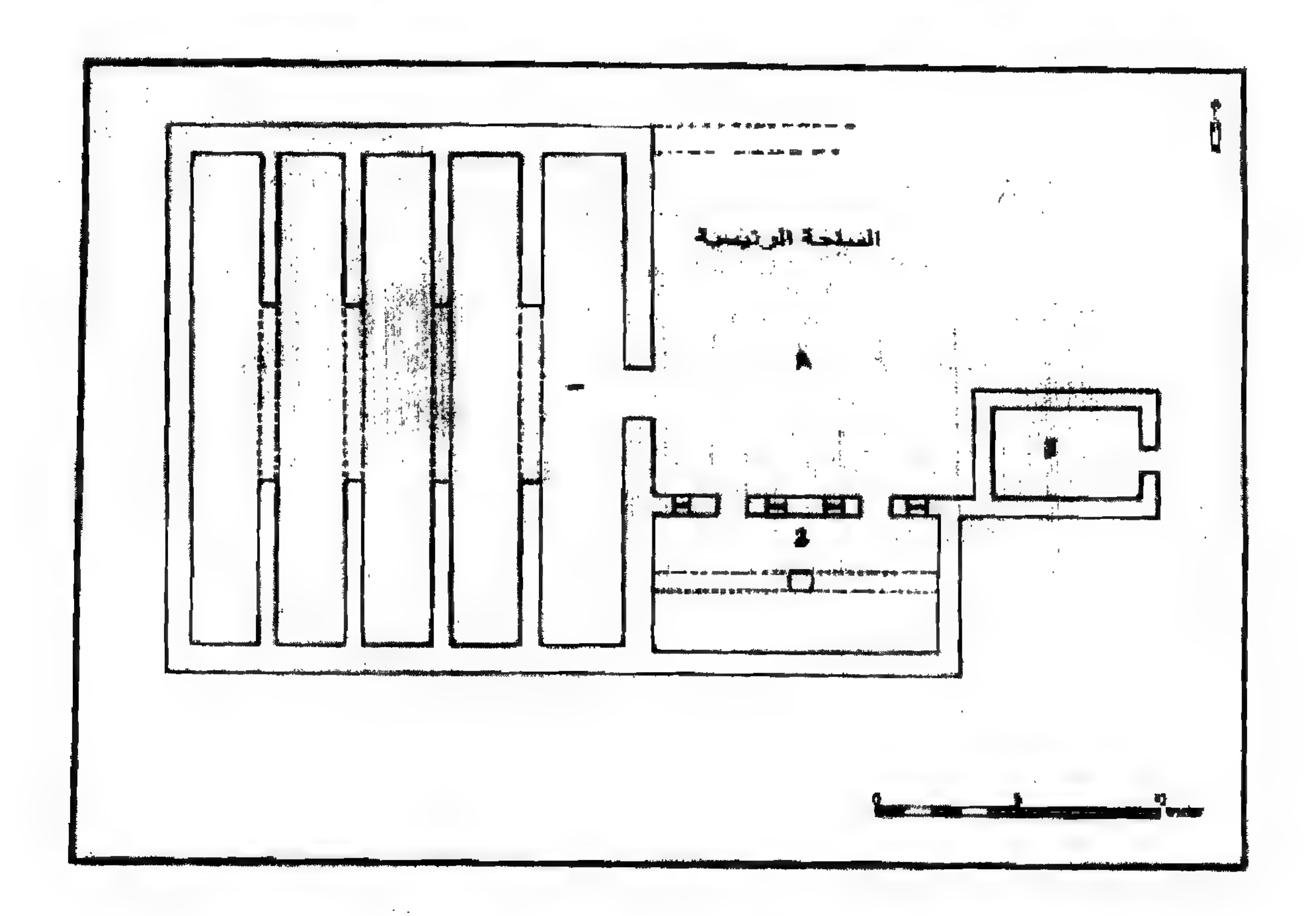
شكل رقم (١٣) القصر: صورة عامة من الأعلى تبين المعبد من الجهة الجنوبية.



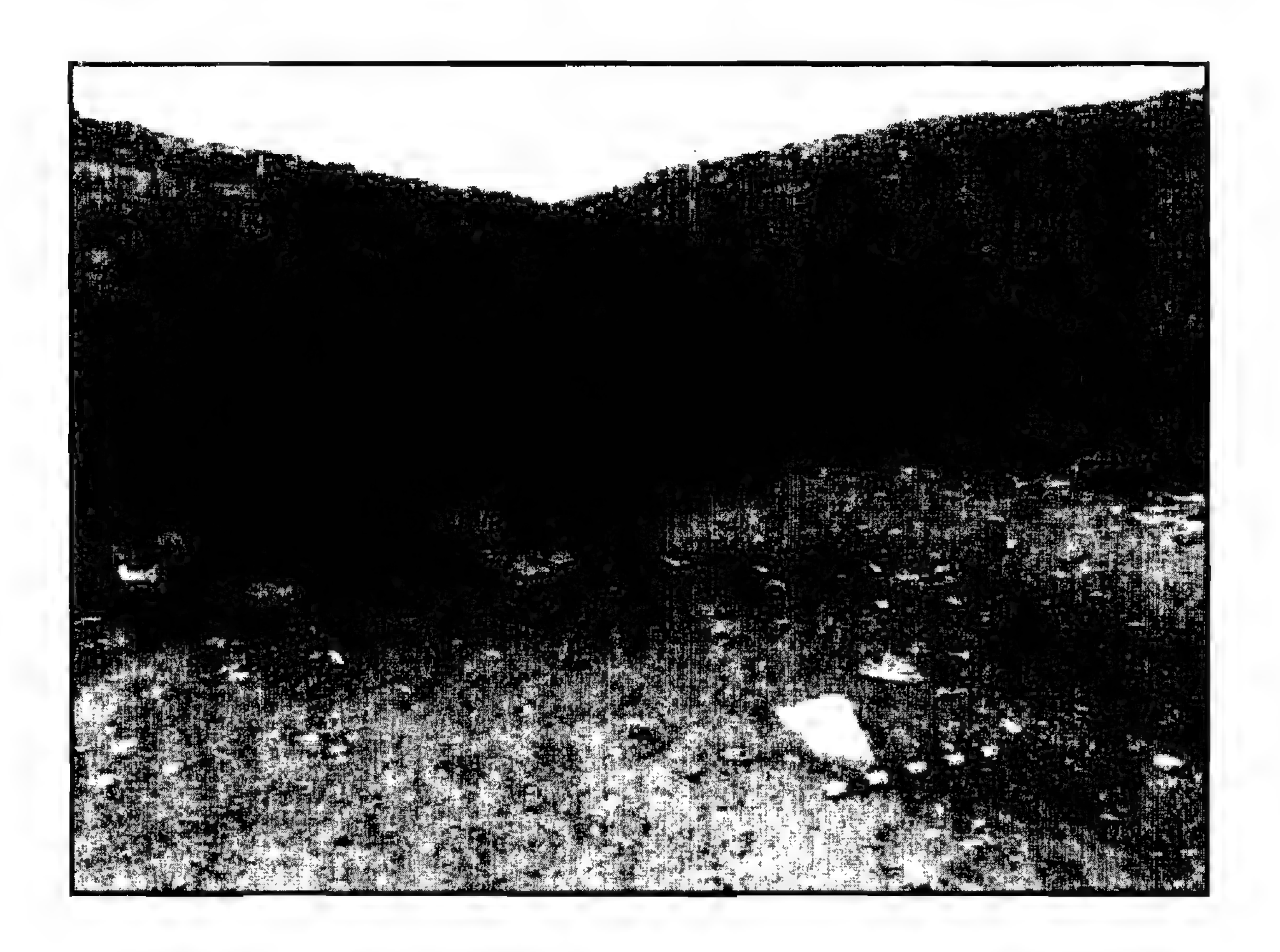
شكل رقم (١٤) القصر: مخطط يبين المربعات التي تم الحفر بها خلال عام ١٩٩٣، ١٩٩٦م في موقع القصر.



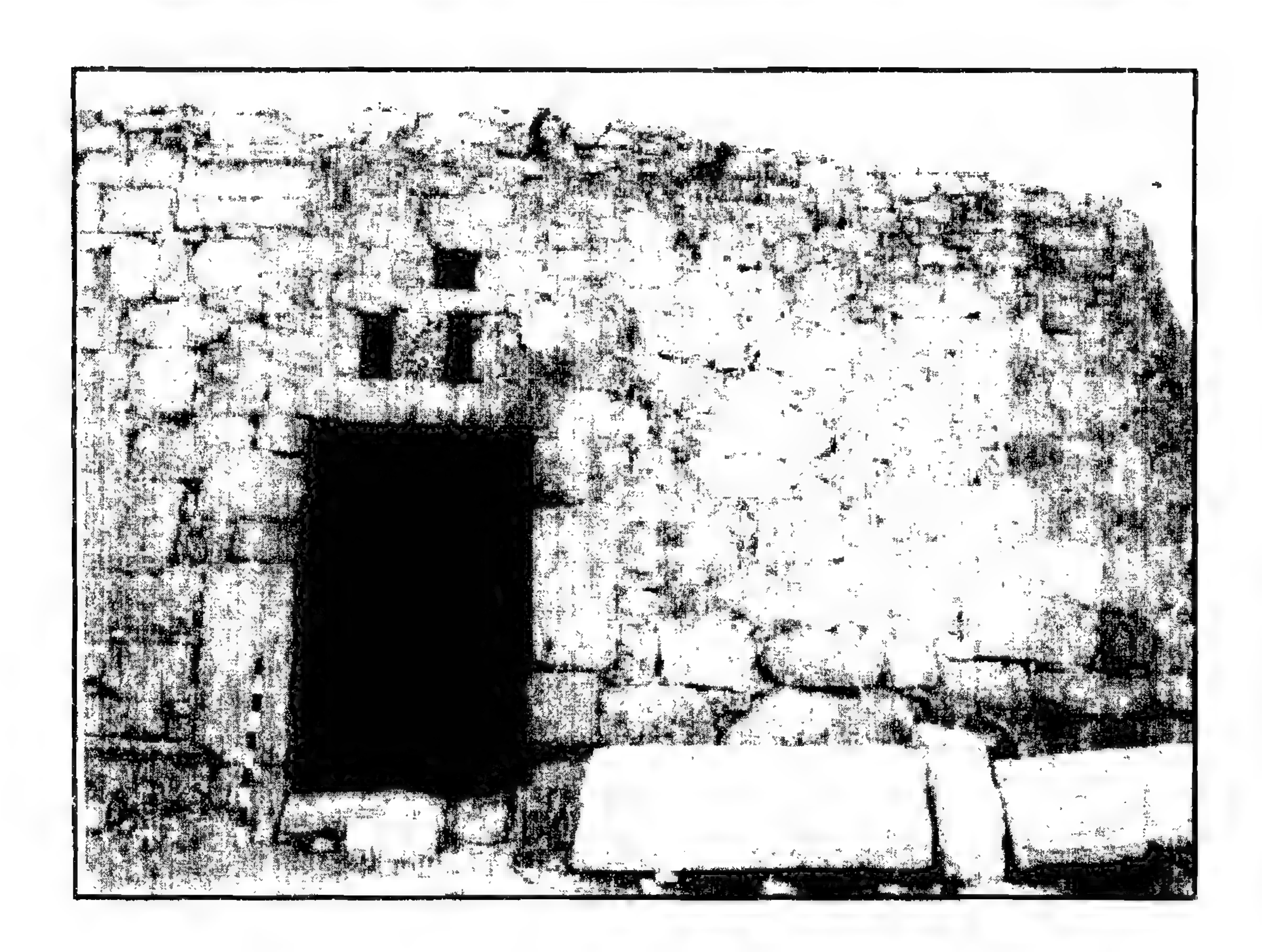
شكل رقم (١٥) مخطط يبين الحجرات المختلفة في التجمع السكني رقم (١) ورقم (٢). (McQuity 1989)



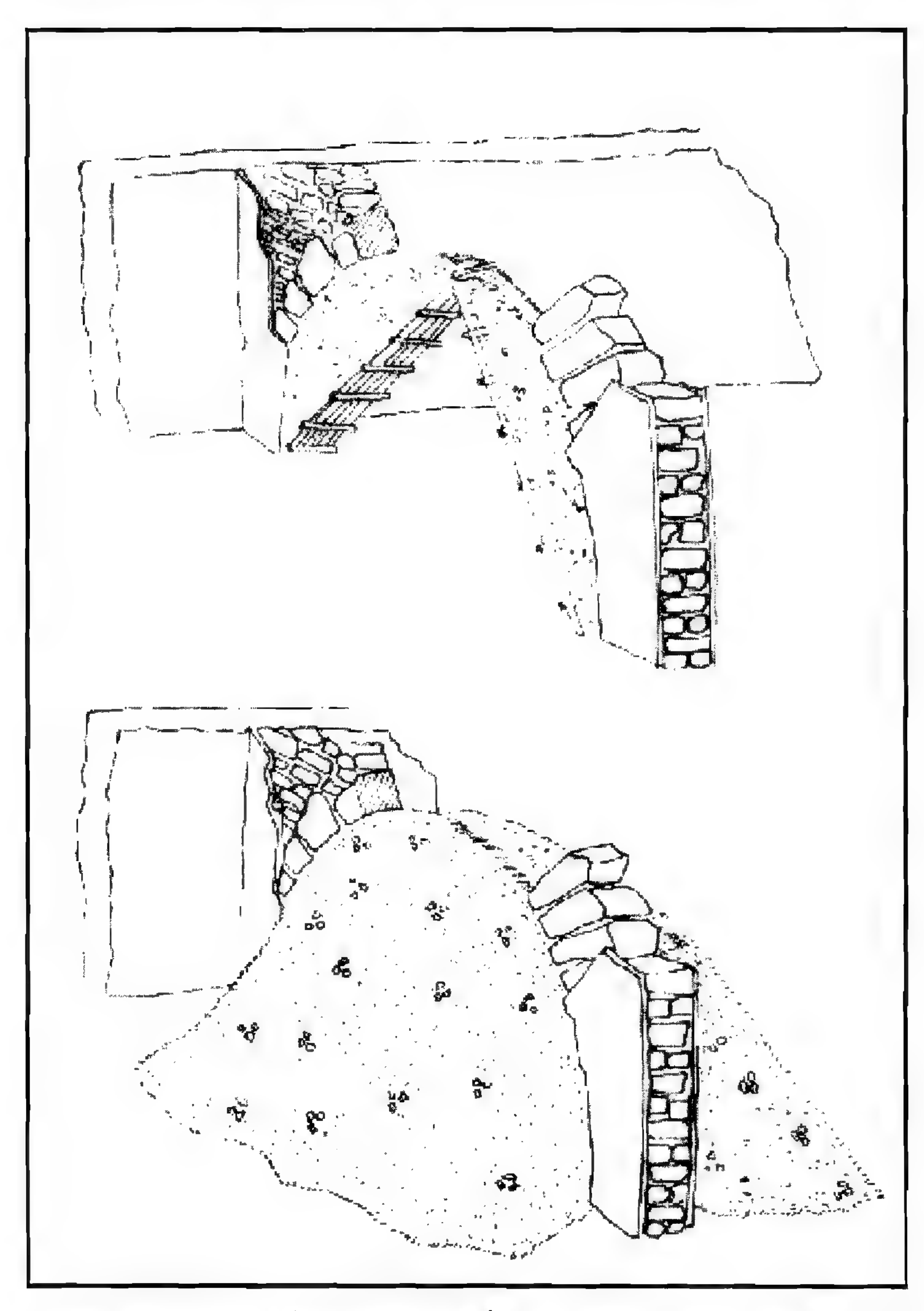
شكل رقم (١٦) القصر: مخطط المنزل رقم (١)



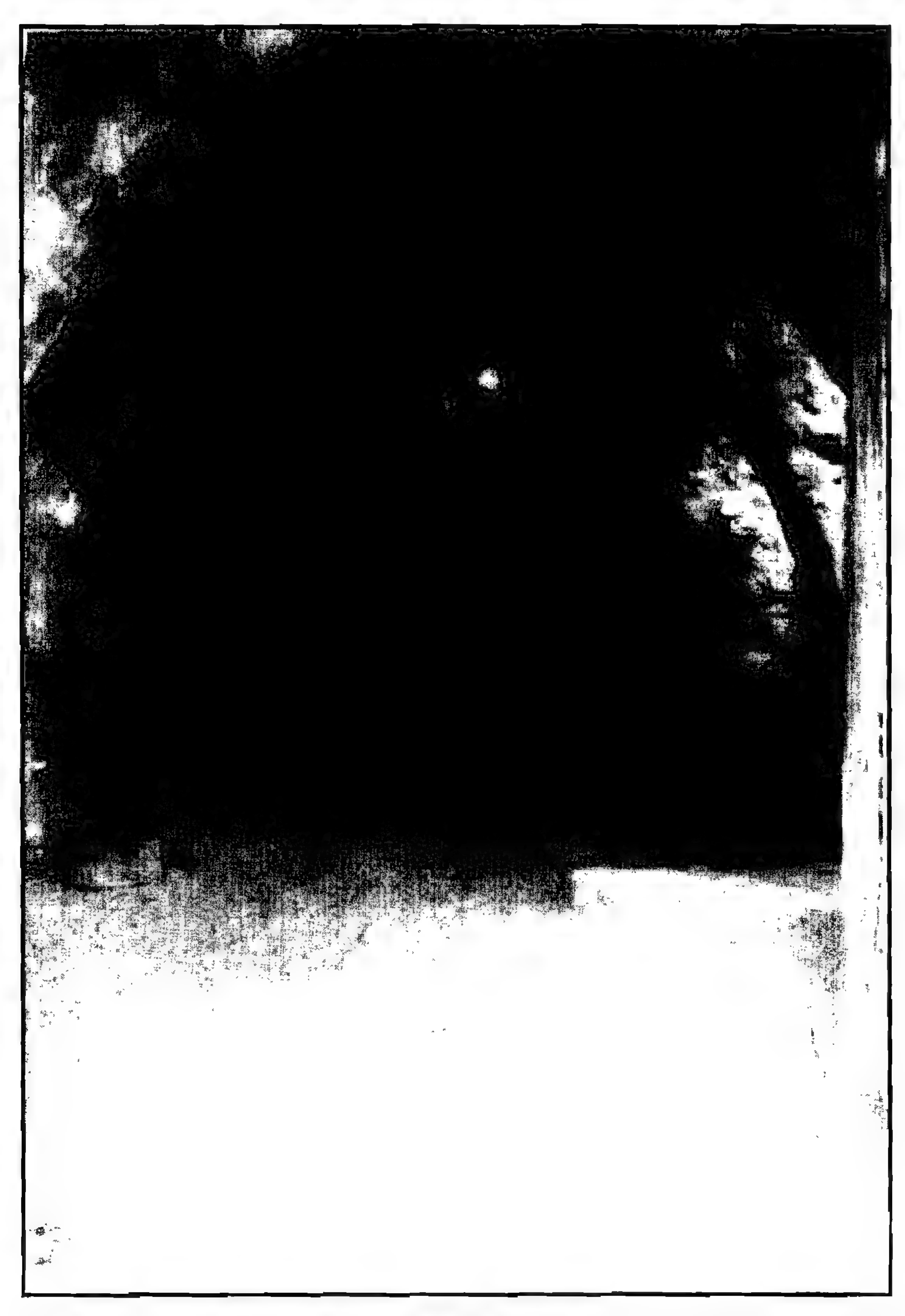
شكل رقم (١٧) القصر: صورة توضح المدخل الرئيسي للحجرةرقم (١)،بالإضافة إلى الحجرات المجاورة ذات الأرقام(٢، ٣) في التجمع السكني رقم (١).



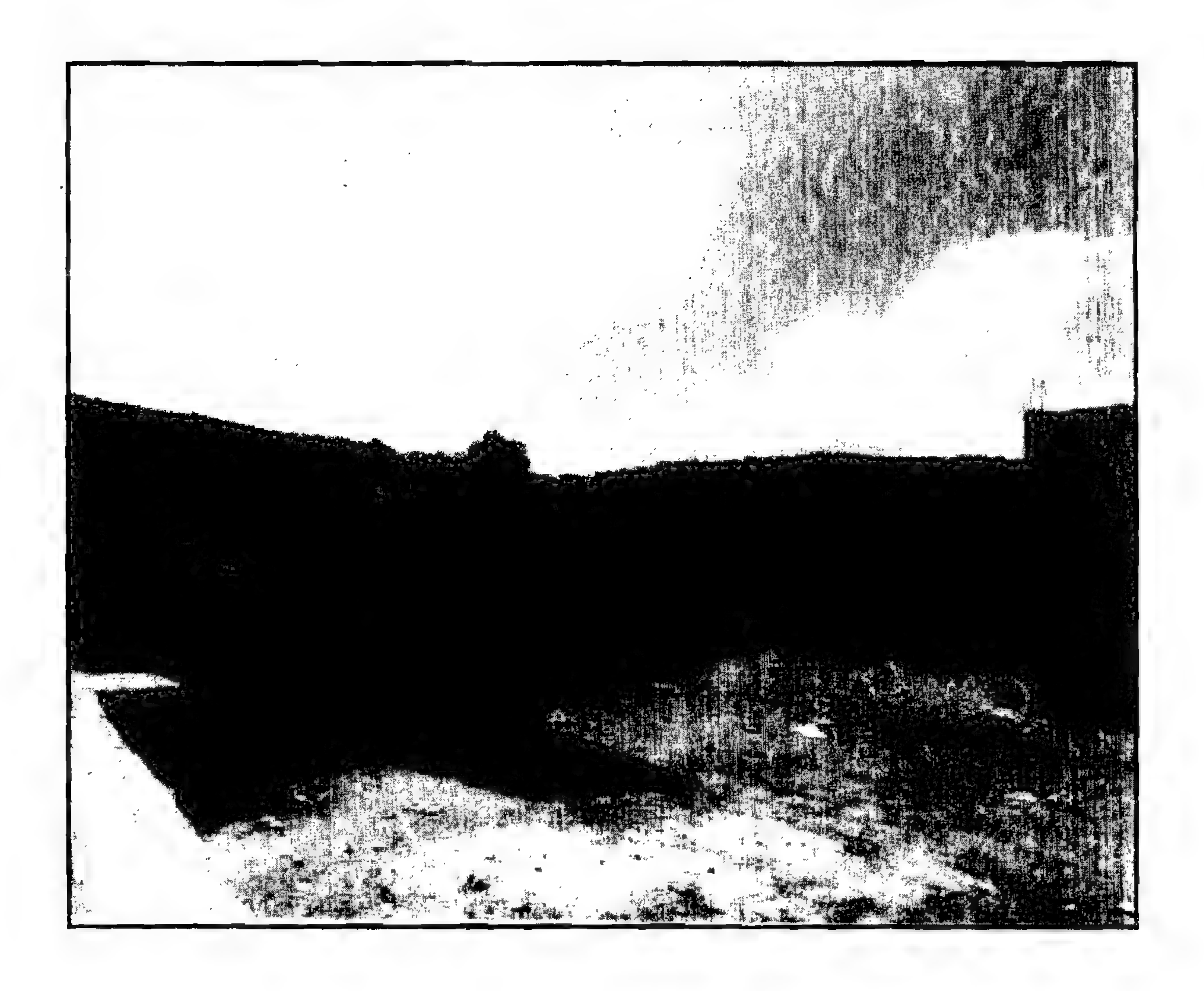
شكل رقم(١٨) القصر: صورة يظهر فيها الباب الرئيسي للحجرة رقم (١) في المنزل رقم (١)، وتبين إعادة استخدام للحجارة القديمة.



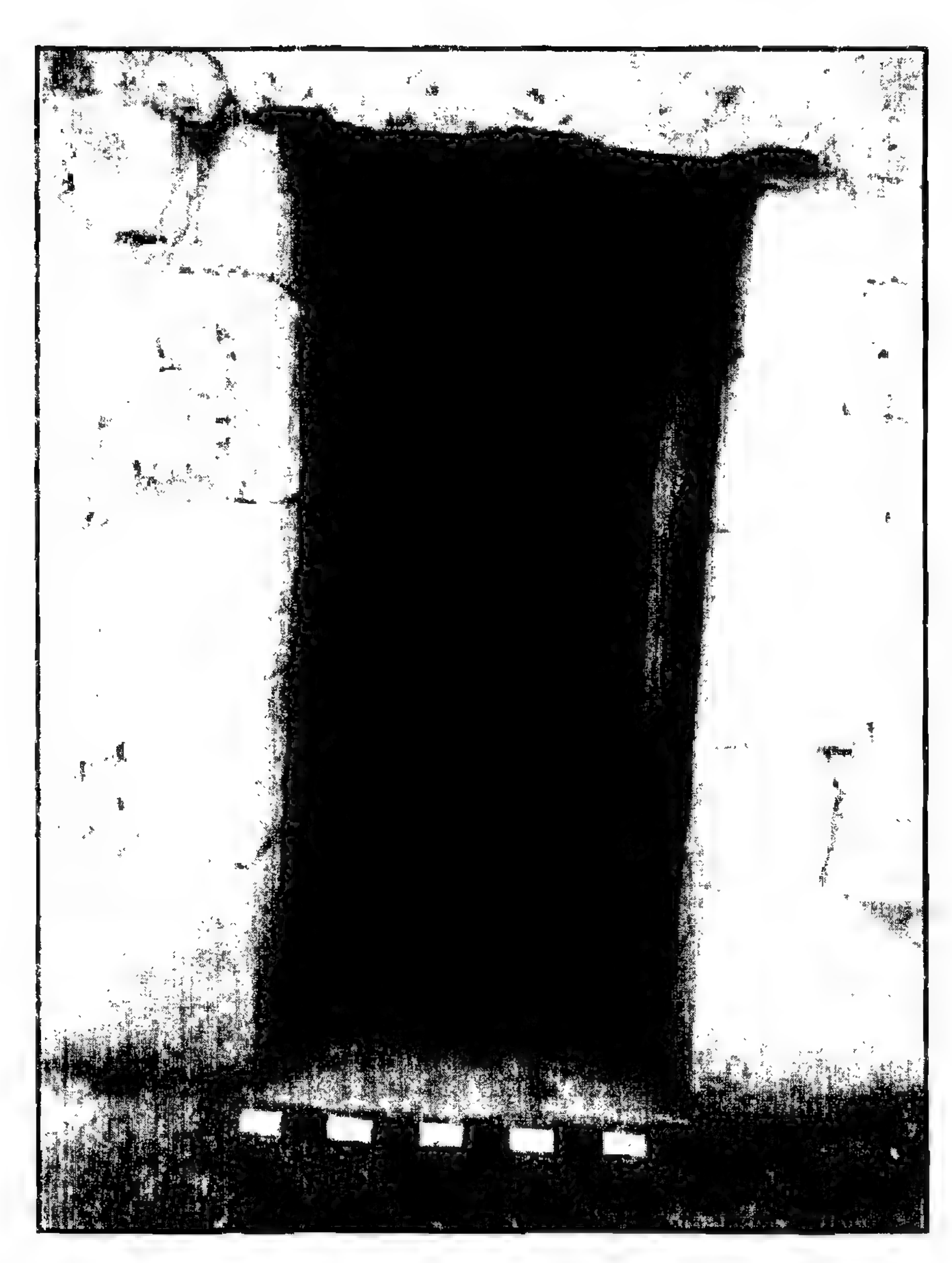
شكل رقم (١٩) القصر: تقنية بناء الأقواس المستخدمة في منازل بلدة القصر.



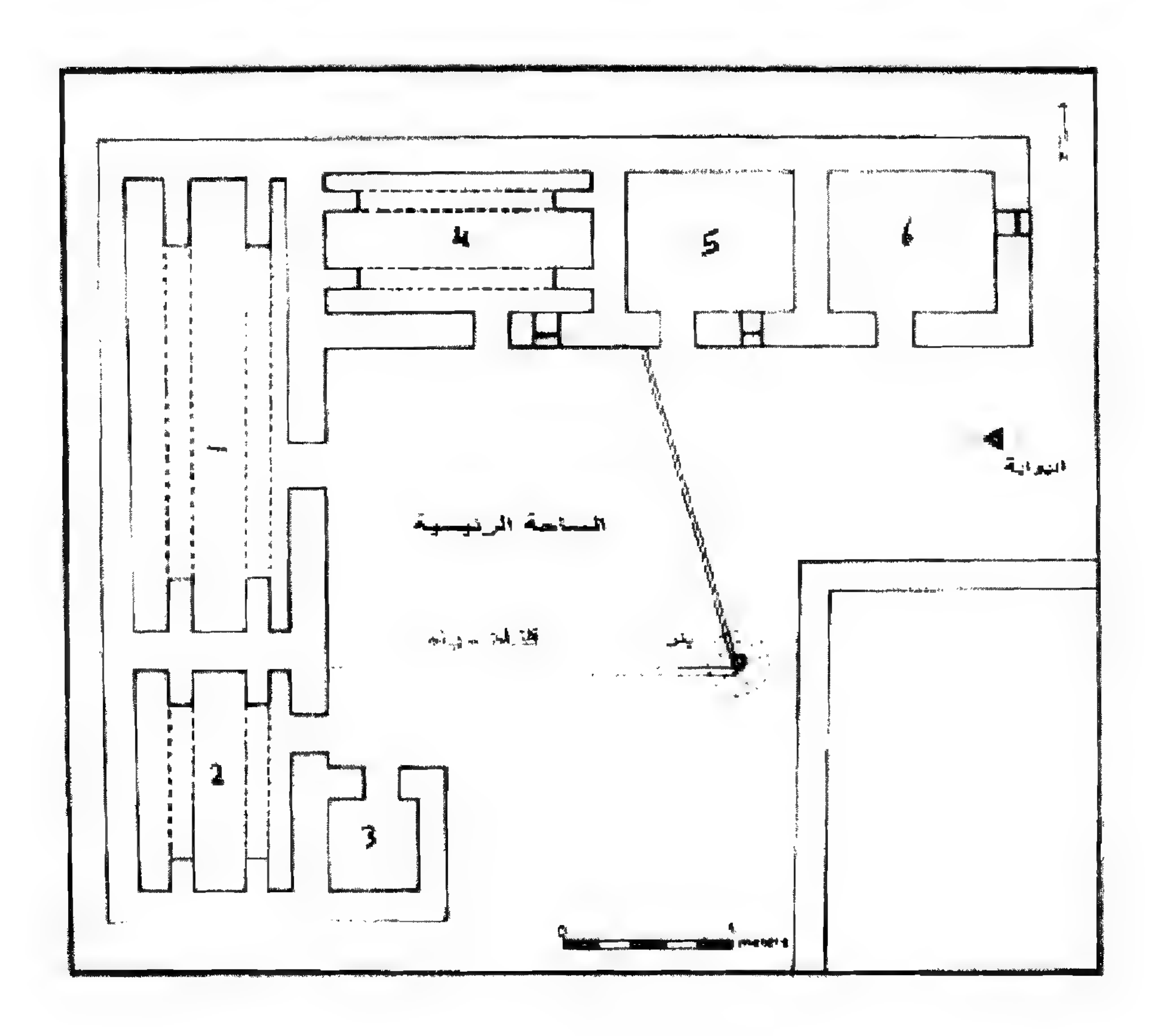
شكل رقم (٢٠) القصر: صورة يظهر فيها أقواس نصف دائرية في المنزل رقم (١).



شكل رقم (٢١) القصر: منظر يوضح التجمع السكني رقم (١) ويتضح فيه توزيع الحجرات المختلفة والساحة الرئيسية.



شكل رقم (٢٢) القصر: صورة توضح المدخل الرئيسي للحجرةرقم (٣) في المنزل رقم (١)، ويتضح فيها إعادة استخدام الحجارة القديمة



شكل رقم (٢٣) مخطط للتجمع السكني رقم (٢) في بلدة القصر.



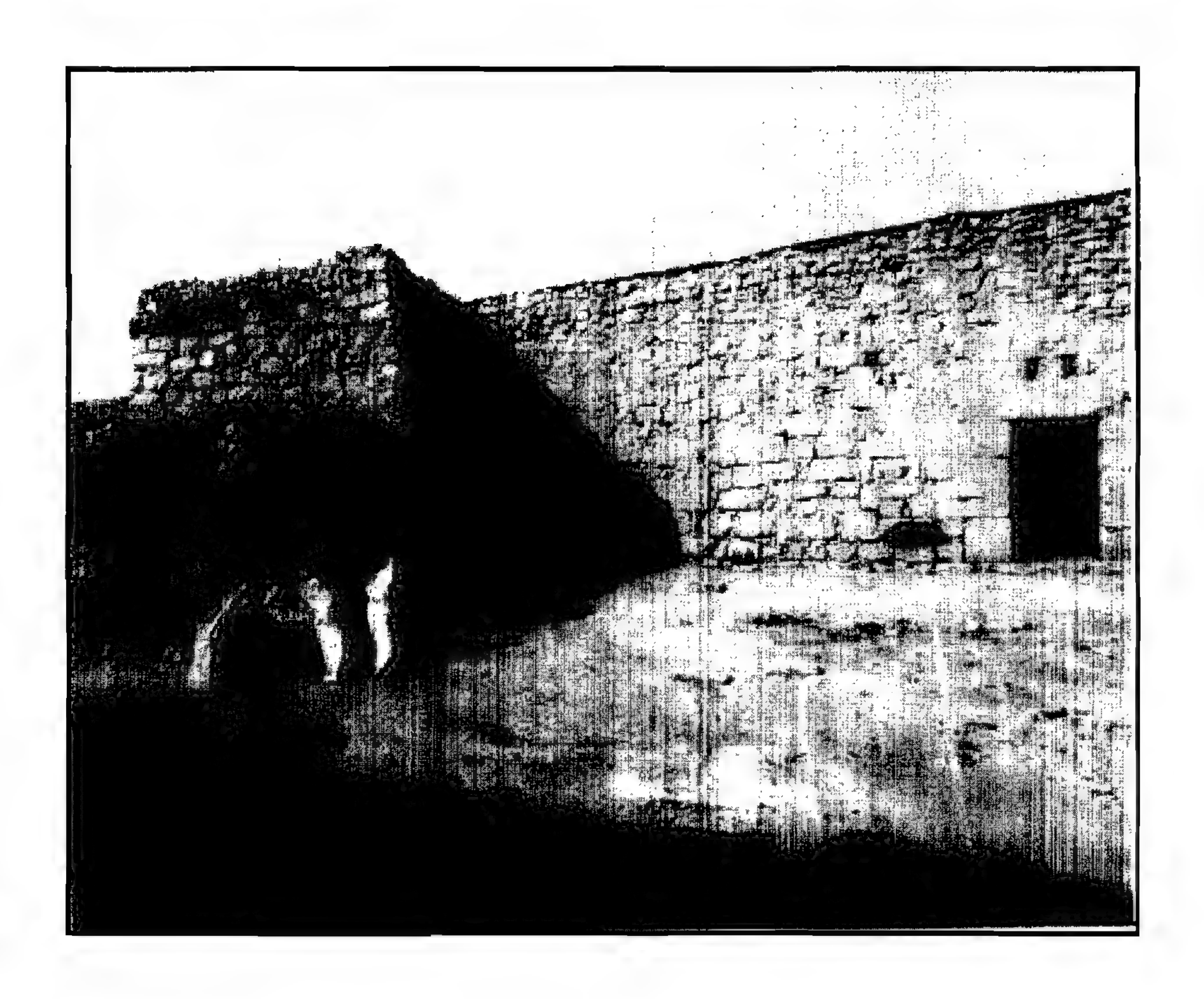
شكل رقم (٢٤) القصر: صورة تبين الحجرة الرئيسية في المنزل رقم (٢). والساحات الرئيسية



شكل رقم (٢٥) القصر: صورة توضح بعض الأقواس الموجودة في الحجرة رقم (١١) في التجمع رقم (٢).



شكل رقم (٢٦) القصر: صورة تبدو فيها الحجرة رقم (٤) في المنزل رقم (٢)، ويظهر فيها الساحة الرئيسية.



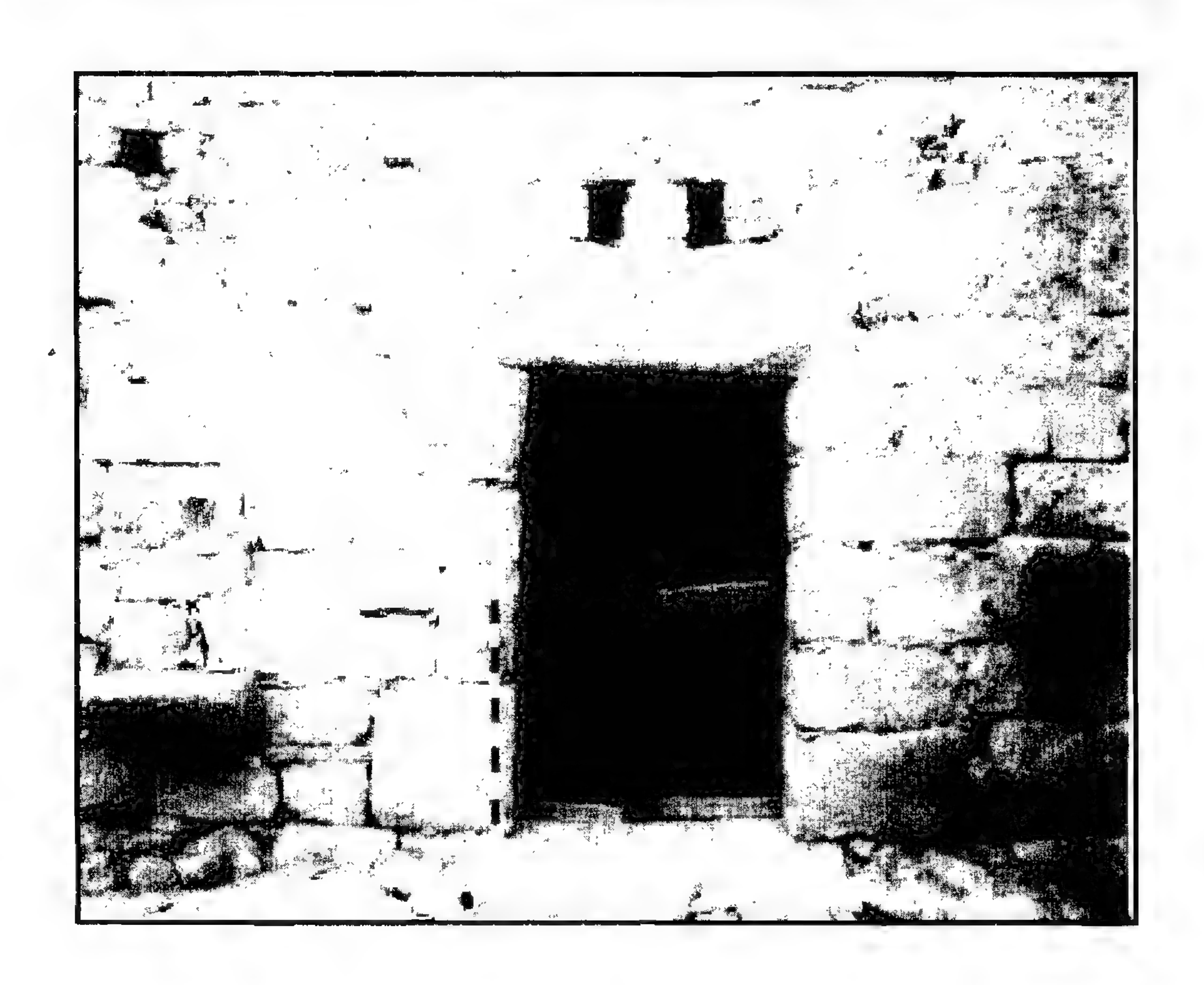
شكل رقم (٢٧) القصر: الحجرة رقم (٢) في المنزل رقم (٢)، بالإضافة إلى الساحة الرئيسية.



شكل رقم (٢٧) القصر: صورة تظهر فيها قنوات مياه مغطاة ببلاطات حجرية تنقل المياه إلى أحد الآبارالموجودة في ساحة التجمع السكني رقم (٢).



شكل رقم (٢٨) القصر: صورة يظهر فيها قنوات المياه المؤدية إلى بئرٍ موجود في ساحة التجمع السكني رقم (٢).



شكل رقم (٢٩) القصر: صورة يظهر فيها الباب ونوافذ التهوية في الحجرة رقم (١) من التجمع السكني رقم (٢).



شكل رقم (٣٠) القصر: صورة توضح الأبواب والشبابيك في الحجرة رقم (٤) من المنزل رقم (٢).

Residential Agglomerations in al-Qasr site, Kerak, Jordan An Ethno-archaeological Study

Abstract

This study sheds light on residential agglomeration in al-Qasr town which can be considered an extension to ancient agglomerations discovered by archeological excavations during the season of 1993 and 1996 . These agglomerations were dated back to the Nabateans period.

The study adopts the descriptive and social analytical method of agglomerations function, and their comparison to current uses furthermore, it employs an ethno-archeological perspective though which major transformations and changes such as reuse of Nabateans constructions.

The study reveals that the oldest residential agglomerations can be dated back to the Nabateans period and that the Nabateans style of building was used in later period such as Roman, Byzantine, Islamic and current ones.

Some residential models were selected to be examined both archaeologically and historically. An ethno archaeological analysis of social relationships and architectural aspects such as spaces, courtyard, storages, bed and guest rooms was also conducted.

مواقع سهل مارف دشت في إيران المعاصرة أوروك وجمدة نصر (بين الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد)

الدكتور نصار سليمان السعدون
كلية الآداب
جامعة الحديدة

مواقع سهل مارف دشت في إيران المعاصرة أوروك وجمدة نصر (بين الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد)

الدكتور نصار سليمان السعدون
كلية الآداب
جامعة الحديدة

مقدمة:

يقع سهل مارف دشت في محافظة فارس في جنوب – غربي إيران. وهذا السهل محاط بامتدادات سلسلة جبال زاغروس التي تكون هنا أقل ارتفاعاً من الجبال الموجودة في الشمال – الغربي. يقسم نهر هذا السهل إلى قسمين شرقي وغربي. ويجري نهر شيفاند (أو بولفار) الرافد الرئيس لنهر كور، في القسم الشرقي من السهل ويصب في نهر كور في وسط السهل تقريباً تبلغ مساحة وادي نهر كور حوالي ٢٠,٠٠٠ متر مربع[١]. فضلاً عن هذين النهرين، توجد في المنطقة مصادر أخرى للمياه مثل العيون، والعديد من الجداول الكبيرة. إن حوض نهر كور يأخذ شكل السهل المنبسط، ومعدل انحداره بحدود متر واحد لكل كيلومتر. ويبلغ ارتفاع الحوض حوالي ١٦٠٠ م فوق مستوى سطح البحر. يقع معظم هذا الحوض بين خطي هطول الأمطار البالغة ٢٠٠ و ٤٠٠ ملم سنوياً، ويقع جزء صغير منه بين خطي ٤٠٠ و ٦٠٠ ملم. ولا تستفيد الزراعة في هذا الحوض سوى من نسبة لا تتجاوز ٣% من كمية الأمطار، وذلك في الجزء الجنوبي منه فقط[٢].

يدور موضوع هذا البحث حول عمليات المسح والتنقيبات الأثرية في سهل مارف دشت. وقد سبق أن أجريت عدة عمليات مسح آثاري هناك، قام بإحداها فاندين بيرغي Vanden Berghe الذي حفر أيضاً عدة مجسات سير في مواقع السهل، ونتيجة لهذا استطاع فاندين بيرغي تحديد جدول زمني للعصور التي مرت بها مواقع المنطقة، ونشر نتائج أعماله في المرجع الآتي:

Vanden Berghe, Kaart V in Archeaologistogischen in de Omstreken Van Persepoitis, (Leisen, 1954).

وكذلك نشر الباحث نفسه ملخصاً لأعماله في وقت لاحق[٣]، وقام الباحث باول غوتش Paul Gotch بعمليتي مسح آثاري في هذا السهل في عامي ١٩٦٦ و ١٩٦٨م، أما سيومنير M.W. Summer فقد أجرى مسحاً آثارياً آخر لحوض نهر كور، ثم قام بالتنقيب في موقع تل مليان، وسيتطرق هذا البحث إلى أعمال المسح والتنقيب هذه كلها.

لقد تم التنقيب في عدد من مواقع سهل مارف – دشت، ومنها برسيولبس (العاصمة الأخمينية المعروفة)، باكون، غاب، موشكي، دروازة، دورودزان، ومليان. ولما كان هذا البحث معنياً بما يوازي عصري أوروك وجمدة نصر في بلاد الرافدين، فقد تضمن دراسة نتائج التنقيبات في المواقع التي تعود إلى تلك الأزمنة فقط، وهذه المواقع هي: باكون، مليان، ونوخودي.

أعمال المسح الآثاري:

لقد أنجز باول غوتش مسحه الآثاري لسهل مارف دشت ومنطقة شيراز خلال موسمين، الأول في عام ١٩٦٦م[٤]، والثاني في عام ١٩٦٨م[٥]. في الموسم الأول شملت التحريات ٦٤ موقعاً من عصور ما قبل التاريخ وواحد وستين موقعاً من العصور التاريخية (تلاحظ الخارطة في الشكل رقم ١). إن ثمانية عشر موقعاً من مواقع ما قبل التاريخ هذه كانت قد مسحت سابقاً من قبل فاندين بيرغي، ووجد فخار أحمر بسيط في ثمانية مواقع منها، فضلاً عن عشرة مواقع أخرى من المواقع التي تم

مسحها لأول مرة. أحد عشر موقعا من هذه المواقع وجدت في منطقة مستنقعات تمتد إلى مسافة ٢٥ كم في القسم الغربي من السهل على مقربة من حدوده الجبلية حيث توجد مواقع لابويم (لابويم A, B, E. F)، انظر الخارطة في الشكل رقم ١). ومن الجدير بالذكر أن تل مليان مسح آثارياً لأول مرة في هذا الموسم.

وسّع غوتش أعمال مسحه الآثاري في الموسم الثاني لتشمل مواقع في المنطقتين الشمالية والجنوبية من السهل، وكان مجموع المواقع التي شملت بهذا المسح واحد وأربعين موقعا من عصور ما قبل التاريخ وواحد وثلاثين موقعاً إسلامياً. وقد ميزت ثقافة الفخار الأحمر البسيط من خلال أعمال المسح هذه، وهي ثقافة استعملت حصراً فخار باكون A-V في مجموعة من المواقع الأثرية في وسط السهل(٦).

شملت أعمال المسح الآثاري التي قام بها سومنير ٦٨٦ موقعاً(٧)، كشف فيها عن سبع مراحل استيطانية مرّ بها السهل منذ أقدم سكنى فيه (المرحلة الأولى) حتى قرون ما قبل الميلاد الأخيرة، اقترنت المرحلة الثانية بثلاثة أنواع من الفخار:

١- فخار موشكي: وجد على ستة تلال، لونه أصفر فاتح من تصاميم زخرفية هندسي باللون الأسود.

٢- فخار حاري: وجد على سبعة وأربعين تلاً، مصنوع من طينة بنية أو رمادية اللون ويحمل تصاميم زخرفية هندسية باللون البني أو الأسود.

٣- فخار باكون B-4: وجد على خمسة وتسعين تلاً، مصنوع من طينة صفراء أو بحبيبات رملية.

وكان مجموع المواقع التي وجد فيها فخار هذه المرحلة، على مختلف أنواعه، تسعة وتسعين موقعاً(٨).

وجد فخار المرحلة الاستيطانية الثالثة على ١٤٣ تلاً، وفخار هذه المرحلة هو ذاته الفخار المكتشف في موقع باكون B-II، ثم في باكون A، الطبقات ٤-١، ويتميز هذا الفخار بطينته النظيفة الصفراء. التصاميم الزخرفية على هذا الفخار تأخذ أشكالاً

هندسية مرسومة بألوان تتدرج من البنفسجي – الأحمر إلى البني أو الأسود على سطح مصقول. وتشمل هذه الزخارف أيضاً رجالاً راقصين، حيوانات، أفاعي وطيور[٩].

المرحلة الاستيطانية الرابعة تبدأ من الطبقة الخامسة في باكونA. ويقسمها سومنير إلى مستويين، يقترن المستوى الأول (A-) مع باكون A، ويقترن المستوى الثاني مع فخار بانيش[١٠]. ويميز المرحلة استيطان مقترن بمرحلة شوغا ويتموران A.

كما سبقت الإشارة، في المقدمة، يعني هذا البحث بالمرحلة الاستيطانية الرابعة. ففي هذه المرحلة حدثت الظاهرة نفسها التي شهدتها بلاد الرافدين ومنطقة سوسيانا (بلاد عيلام). وتتمثل هذه الظاهرة في التحول من الفخار المطلي إلى تنوع من فخار بسيط أحمر أو رمادي[١١]. وقد وضحنا آنفاً أن التلين A و B في موقع باكون تضمنا ثلاثة أنواع من الفخار. وآخر هذه الأنواع الثلاثة هو الذي يدرس في هذا البحث، وهذا الفخار جاء من التل، الطبقة الخامسة. أطلق سومنير على هذا الفخار الأحمر البسيط تسمية "فخار لابوي"، وشمل بهذه التسمية تنوعاً من الفخار المصقول الأحمر أو الرمادي، لتمييزه عن الفخار الأحمر المطلي من الطبقات ١–٤ والمعروف باسم فخار باكون. وقد اكتشف سومنير، في أثناء أعمال المسح الآثاري التي قام بها، فخاراً مضاهياً للآنية ذوات الفوهة البارزة، التي اشتهر بها عصر أوروك في العراق وسورية، وأطلق على هذا الفخار اسم "فخار بانيش" تبعاً لاسم قرية بانيش القريبة من الطرف الشمالي لسهل مارف – دشت، حيث اكتشفت هذه الأواني لأول مرة[١٢].

فخار لابوي:

وجد فخار لابوي في ١٠١ من مواقع نهر كور، وكان هو الفخار الوحيد المكتشف في خمسة وثلاثين من هذه المواقع. (انظر الشكل رقم ٢). ويمكن تقسيم هذا الفخار إلى مجموعتين، هما:

١- **فخار لابوي الناعم** (Lapui Fine Ware): وهو الفخار الذي جاء من الطبقة الخامسة في تل باكون A، وطينته حمراء في الغالب نقية ومحضرة بعناية مع بعض المكونات الكلسية السطح الخارجي لهذا الفخار منعم ومصقول تقريباً، وأشكاله تشمل الأقداح، والطاسات المفتوحة، الجرار ذوات الفوهات المستقيمة البسيطة أو بارزة الحافات والجرار التي لها ثقوب عند الفوهات التي تكون حافتها بسيطة أو مقرّصة.

٢- **فخار لابوي شائع** Lapui common ware: له طينة حمراء مقواة بحبيبات سوداء، وهذه الطينة أكثر خشونة من طينة فخار لابوي الناعم. السطح الخارجي لهذا الفخار منعم أو مصقول إما بحركة عمودية أو أفقية، وهو في الغالب متصدع أو محقّر. الأشكال مشابهة لأشكال فخار لابوي الناعم. ويلاحظ أن الجرار ذوات الثقب في الفوهة وذوات القاعدة الواطئة تظهر بشكل قليل في هذا الفخار(١٤).

يظهر فخار لابوي في تل باكون A، الطبقة الخامسة، التي تأتي فوق الطبقات ١-٤. وهذه الطبقات الأربع تضمنت فخار باكون الذي انتهى في حوالي ٣٥٠٠ق.م. إن التشابه الواضح بين فخار لابوي في أوائل الألف الرابع قبل الميلاد(١٥). وهذا التأريخ يعني أن فخار لابوي بدأ في زمن فخار باكون واستمر بعد نهاية المرحلة الاستيطانية الثالثة. وتأكد هذا الرأي باكتشاف بعض الكسر من فخار لابوي مع فخار باكون المطلي(١٦). فضلاً عن هذا نجد أن كلا النوعين من الفخار موجود على اثنين وخمسين تلاً. ويرجح أن هذه المواقع تعود إلى المرحلة الاستيطانية الرابعة، حين استمر فخار لابوي فقط، في حين انتهى استعمال فخار باكون. ويذهب سومنير إلى أن التداخل بين المرحلتين الاستيطانيتين الثالثة والرابعة أمر محتمل ولكن غير مرجح، ويحدد بداية المرحلة الاستيطانية الرابعة بحدود ٣٥٠٠ق. م(١٧). على الرغم من أن هذا التحديد

مرفوض استناداً إلى التشابه الذي ذكرناه قبل قليل مع الفخار الأحمر من دهلوان، سوسة، وتل إبليس.

فخار بانيش:

وجد فخار بانيش في ٢٦ موقعاً فقط، ومعظم هذه المواقع توفر فيها الفخار بأعداد قليلة جداً، ولذلك من الصعب تصنيف هذا الفخار وتحديد الأنواع الفرعية فيه بشكل ثابت، وما أمكن التوصل إليه حتى الآن تقسيم فخار بانيش إلى أربع مجموعات، وهي:

١- **فخار بانيش الأصفر الخشن:** تتضمن هذه المجموعة نوعين من الفخار يميزان بحسب المادة التي قُوِّيت بها الطينة التي صنعت منها القطع الفخارية. النوع الأول يحتوي على الحبيبات والنوع الثاني على القش، وهذا النوع يتصف بسطح خشن وبسماكة تكوينه. والأشكال النمطية من هذا النوع هي الطاسات ذوات الحافة البارزة، والقواعد الفخارية الثقيلة والأطباق ذوات القعر المسطح. ويتصف النوع الأول بسطح خشن وتكوين سميك ووجود حبيبات سوداء خشنة في طينته. وسطح القطع الفخارية من هذا النوع يكون بلون بني أو تبني وأحياناً بقشرة بنية أو حمراء. أشكال هذا النوع تشمل طاسات بارزة الحافات، أطباق منبسطة القعر وطاسات ذوات حافة غير نظامية(١٨).

٢- **فخار بانيش الأحمر الخشن:** فخار هذه المجموعة له سطح خشن تبني أو أحمر اللون، وأشكاله تشمل طاسات قليلة العمق، طاسات مقرصة الحافة ونوع الفخار من الجرار بعنق قصير.

٣- **فخار بانيش المطلي بلون واحد:** تتميز قطع هذا النوع بتصاميم زخرفية مطلية بلون بني على سطح ناعم أصفر إلى أصفر مائل للاحمرار. الطينة التي صنع منها هذا الفخار لها لون تبني ومقواة بحبيبات سوداء. أما الأشكال

فتتضمن طاسات بحافات مقرصة وطاسات بفوهات غير نظاميـــة، جــرار بارزة الوسط وطاسات قليلة العمق.

٤- **فخار بانيش، ثنائي اللون**: فخار هذه المجموعة نادر الوجود ولم يكتــشف سوى بعدد قليل في ستة مواقع فقط. التصاميم الزخرفية مرسومة بلون أحمر داكن أو أسود أو بني على شريط من الطلاء الخفيف الأبيض الذي يغطــي سطحاً ناعماً تبنياً أو أحمراً. الطينة بنية أو حمراء اللــون مقــواة بحبيبــات سوداء. الأشكال تشكل جرارا وطاسات بارزة الوسط وجرار كبيرة الحجم.

وجدت قطع متشابهة لفخار بانيش في الطبقة الخامسة في عــودين تيــه علــى وجــه الخصوص، وهذا ما يحدد تاريخه في أواخر الألف الرابع ومطلع الألف الثالــث قبــل الميلاد[١٩]. لكن الصلة الزمنية فيما بين فخار لابوي وفخار بانيش تبقى غير واضحة. ومن المحتمل أن يكون الفخاران متعاصران أو أن فخار لابوي أقدم قليلاً.

والآن نأتي على عرض نتائج التنقيبات، المتعلقة بموضوع هذا البحث، في مواقع تــل باكون، تل مليان وتل نوخودي.

١- تل باكون:

يقع تل باكون على بعد كيلومترين فقط إلى الجنوب – الغربي من برسيبوليس، ويتألف من مرتفعين A و B . الأول هو المرتفع الشمالي – الغربي، ويبلغ طوله ٢٠٠م، من الشمال إلى الجنوب، وعرضه ١٠٠ م من الشرق إلى الغرب، وترتفع أعلى نقطة فيه إلى ٤ م فوق مستوى السهل المحيط بالموقع (انظر الشكل رقم ٣). كان هرزفيلد أول من قام بأعمال التنقيب في هذا الموقع، وذلك في عام ١٩٢٨م، ونشر نتائجها في:

.Ieansche Denkaier I A, (Berlin, 1932)

استؤنفت التنقيبات في عام ١٩٣٢م من قبل بعثة آثارية من المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو بإدارة لانغسدورف A.Lanngsdorff. وفي عام ١٩٣٧م، قام شمدت E. F. Schmidt بالتنقيب في تل باكون. وأجريت اخر التنقيبات في هذا الموقع فــي عــام

١٩٦٥م، من قبل البعثة الآثارية اليابانية في العراق وإيران بإدارة كل من إيغامي N. Egami وما سودا S. Masuda.

في تنقيبات عام ١٩٣٢م، حفر خندقان اختباريان (I و II في مخطط الشكل رقم ٣) يمتدان من الشرق إلى الغرب. وقد تواصل الحفر في الخندق حتى الأرض البكر التي ظهرت على عمق ٤٠ سم تحت مستوى سطح السهل المحيط بالموقع. فضلاً على هذين الخندقين تم فتح قطاع على الجهة الشمالية من الخندق II ، حيث كشف عن أربع بنائية أعطبت الأرقام ١-٤ ولما لم يسجل أي تغيير في العمارة والفخار من طبقة إلى أخرى، من هذه الطبقات الأربع، فمن الواضح أنها طبقات تعود إلى عصر فخار لابوي، لكنهم أشاروا إلى أن هناك ثلاث قطع فخارية، تظهر خصائص مختلفة (انظر الشكل رقم ٤). وقد عثر على هذه القطع الثلاث في المربع m31 ويحتمل أنها تعود إلى المستوطن الأحدث[٢٠]. ويقترن معثر هذه القطع مع الجدران المخربة فوق الطبقة الرابعة. وتختلف هذه القطع تماماً عن أي فخار آخر مكتشف في تل باكون A وهي مصنوعة من طينة بلون أحمر فاتح مقواة بحبيبات دقيقة ولنم تشوَ بشكل جيد، حتى أنها قابلة للتصدع وللتقشير، السطح الخارجي لهذه القطع الثلاث مغطى بطلاء أبيض رقيق رسمت عليه زخارف هندسية بسيطة باللون الأسود لكنها اختفت من على الجرتين، وبقيت على القطعة الثالثة التي هي عبارة عن قدح أسطواني الشكل[٢١].

على الرغم من أن المنقبين لم يذكروا الطبقة الخامسة فإنهم رسموا في خارطة القطاع الذي نقبوا فيه جزءاً من جدار[٢٢] نسبوه إلى الطبقة الرابعة[٢٣]. لكن اتجاه هذا الجدار، الذي يختلف عن اتجاه جدران الطبقة الرابعة، واقترانه مع القطع الفخارية الثلاث، المتأخرة عن تأريخه تلك الطبقة، يؤكدان عدم إمكانية عودة هذا الجدار إليها وإنما إلى الطبقة الخامسة.

لقد أثبتت تنقيبات عام ١٩٣٧م، إن الطبقة العليا في المرتفع A تكونت في عصر الفخار الأحمر البسيط، فوق تراكم سميك من الفخار الملون[٢٤]. أما موسم تنقيبات عام

١٩٥٦م، الذي قامت به البعثة اليابانية، فكان قصيراً جداً واستمر لمدة أسبوعين فقط. وفي هذه التنقيبات فتح خندق صغير (١٠×٢م) في المرتفع A إلى الجنوب من الطرف الغربي للخندق II الذي حفرته البعثة الأمريكية. وسجل المنقبون اليابانيون وجود أربع طبقات في الخندق الصغير، واعتبروا الطبقة العليا هي الأولى، وتأتي تحت سطح التل مباشرة (انظر المخطط لمقطع الخندق في الشكل رقم ٥، أ). لم تكتشف بقايا بنائية في الطبقات الثلاث العليا، ولكن كشف عن ثلاث عرف في الطبقة الرابعة (انظر المخطط في الشكل رقم ٥ ، ب). ولما كان المنقبون لم يكتشفوا بقايا بنائية تحت الطبقة الرابعة[٢٥]، فيمكن القول إن الطبقة الخامسة لم تمتد إلى هذا الجزء من الموقع.

في المرتفع الثاني من تل باكون كشف عن طبقتين أنتجت أقدمهما (الطبقة الأولى) فخاراً خشناً نصف مشوي، وهذا الفخار مصنوع باليد وغير ملون، وطينته ذات لون بني خفيف، واقترن وجوده بالعديد من الأدوات الصوانية والعظمية، الطبقة الثانية، وهي العليا، في هذا المرتفع أنتجت أول فخار ملون. وهذا الفخار يعاصر فخار جلف والعبيد المبكر في بلاد الرافدين[٢٦]، وهو ذات الفخار الذي طور لاحقاً في الطبقات ١-٤ في المرتفع.

٢- تل مليان:

تل مليان موقع كبير يغطي مساحة من حوالي ٣٠٠ هكتار، ويبعد حوالي ٤٦كم إلى الشمال من مدينة شيراز. وقد سبق لبعثة من مديرية آثار شيراز أن حفرت بعض مجسات السبر في هذا الموقع في ستينيات القرن العشرين، وفي عام ١٩٧١م، بدأت بعثة آثارية من جامعة بنسلفانيا والمعهد الأمريكي للدراسات الإيرانية التنقيب في تل مليان. وقد أثبتت تنقيبات الموسم الأول أن هذا الموقع يضم طبقات من عصري بانيش كفتاري والعيلامي الوسيط، فضلاً عن طبقة عليا يحتمل أن تعود إلى العصر الفرثي أو الساساني[٢٧].

يتكون تل مليان من ثلاثة أجواء متميزة، وهي: بقايا سور المدينة عند الحافات الشمالية الشرقية، والجنوبية الشرقية، والجزء الثاني منطقة منبسطة واطئة بين سور المدينة والجزء الثالث، وأخيراً الجزء الثالث الذي هو عبارة عن تجمع من مرتفعات متداخلة تضم بقايا المستوطن الرئيس. والمستوطن الرئيس يشغل مساحة من حوالي ١٣٠ هكتار، يصل ارتفاعها العام إلى ما بين ٤ و ٦م فوق مستوى السهل المحيط بالموقع[٢٨]. وقد أجرى التنقيبات في الموقع من خلال حفر قطاعين رئيسين: الأول (القطاع ABC) في المستوطن الرئيس، والثاني (القطاع TUV) في مرتفع صغير يبرز في الزاوية الشرقية من الموقع (انظر الشكل رقم ٦).
تبلغ أبعاد هذا القطاع ٢٦×١٦م، وكشف فيه عن ركام دفني من عصر كفتاري بعمق مترين فوق الطبقة الثانية المؤرخة من عصر بانيش[٢٩]، لم تكتشف بقايا أحدث طبقة في القطاع ABC، ولكنها وجدت في بضعة أماكن متفرقة في الموقع[٣٠]. والطبقات ٢-٥ في هذا القطاع مؤرخة من عصر بانيش. في الطبقة الثانية، استظهرت بناية كبيرة تمتد مرافقها إلى ما وراء حدود القطاع في الجهة الشمالية، وثلاثة صفوف من الغرف المتصلة ببعضها (ا لأرقام ٤، و ٦-٩). فضلاً عن هذه الغرف وجدت غرف محيطة بها، وقد رُقِّمت من قبل المنقبين بالأرقام: ١، ٢، ١٠، ١١، ١٢، وهناك جدران مضافة في وقت لاحق من تأريخ البناية، مثل الجدران التي تسد مداخل الغرفتين ٦ و٧. كما أن المدخل الذي يربط فيما بين الغرفتين ١ و ٥ أغلق حينما شيدت دكة على طول الجدارين الطويلين للغرفتين ٤ و٥. في الغرفة ٤ عثر على بقايا اثنتي عشرة جرة خزن كبيرة الحجم. وعثر في الغرفة نفسها وكذلك في بعض الغرف الأخرى على آجر بقياسات ٤٠×٢٠×٣سم، وفي كل آجرة توجد أربعة أو ستة ثقوب، وأحياناً آثار ختم من القبر عند الحافات . الغرفة ٨ احتوت موقداً في قسمها الجنوبي وفي الغرفة ٦ عثر على جرار خزن مع الجزء الأعلى فقط من وعاء

فخاري، على مقربة من الأرضية، وعثر على طبق أنموذجي من فخار بانيش على أرضية الغرفة ٥ (انظر الشكل رقم ٨).

تضمنت المكتشفات في القطاع ABC عدداً غير اعتيادي من التطعيم، صفائح الهتمايت، أصداف مصنعة وخام، وعرى طينية، خرز خشبية، أحجار صوانية، أو بسيديان ونحاس، وبرونز، ومن المكتشفات الأكثر أهمية سبعة رُقم طينية تحمل كتابة شبه عيلامية وجدت في الممر ٣. وعثر على بعض سدادات الجرار الطينية والأختام في الغرفتين ٤ و ٦. واحد من هذه الأختام يحمل مشهداً موضوعه حيوانات تمشي منتصبة، ويعتبر مشهد أسد بهذه الوضعية مألوفاً من سوسة الطبقة C. ويبدو أن هذه البناية استعملت للخزن في مرحلتها الأخيرة، وهجرت مباشرة بعد نقل المواد المخزونة[٣١]. وقد كشفت دراسة الرقم المدونة عن الاسم القديم لتل مليان، وهذا الاسم هو أنشان (Anshan). وأظهر فحص الكاربون المشع أن أقدم سكنى، من عصر الكتابة الأولى شبه العيلامية في الموقع بدأت في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد[٣٢].

في الطبقة الثالثة وجدت آثار بناية كبيرة أخرى كانت قد هدمت وسويت تمهيداً لإقامة بناية الطبقة الثانية. إن بناية الطبقة الثالثة (انظر المخطط في الشكل رقم ٩). مشيدة بعناية، وتشمل على ١٦ غرفة. الغرف ١٠-١٣، في الجهة الغربية من البناية، تمثل إضافة لاحقة وهجرت قبل سائر الغرف الأولى، ومخطط هذه البناية مشابه لمخطط بناية الطبقة الثانية. والمدخل الرئيس للبناية -كان على ما يبدو- من الجهة الشرقية عبر الغرفة ١٤. وهذه الغرفة تؤدي إلى الغرفة ٨ التي تفضي إلى الغرف ٣ و ٧ و ٩. وقد وجدت مواقد وأفران مقببة عند منتصف الجدار الطويل في عدة غرف، مثل الغرف ٢، ٥ و ٩، وعند الزاوية كما في الغرفتين ٣ و١٦. جدران البناية كلها مطلية باللون الأحمر باستثناء الغرف ١٠-١٧، التي طليت جدرانها باللون الأبيض واسكفات المداخل مطلية باللون الأبيض أو الأصفر، والأرضيات ملونة بالأبيض.

شملت مكتشفات الطبقة الثالثة كسر فخارية تحمل مشاهد نافرة لأبقار، ثيران، ماعز وزخارف تمثل أوراق الأشجار، وتعود هذه الكسر إلى أواني منبسطة القعر وبأشكال أسطوانية منتفخة الوسط، ووجدت أختام ورقم طينية تحمل كتابة شبه عيلامية في بناية الطبقة الثالثة أيضاً(٣٣).

وفي القطاع ABC نفسه تم النزول إلى ما تحت الطبقة الثالثة في مساحة أبعادها ٢٢×١٢م، وكشف في هذه المساحة عن بناية جيدة التشييد ولها نفس الاتجاه والمخطط لبناية الطبقة الثالثة (انظر المخطط في الشكل رقم ١٠). تتضمن بقايا هذه البناية غرفاً وممرات مع جدران عير مستقيمة مشيدة على أسس من الحجارة. وقد استظهرت جدران من الطبقة الرابعة في مجس سبر صغير عند الزاوية الشمالية الشرقية للموقع. واكتشفت بقايا عشر غرف من الطبقة الخامسة في القطاع ABC أيضاً. وأدت حفرة صغيرة في هذا القطاع تحت الطبقة الخامسة، إلى اكتشاف طبقة من التراب بسمك ٥٠ سم. وهنا اكتشفت مجموعة من الأحجار، بعض القطع الصوانية وحبوب الشعير، ولكن بم يتم الوصول إلى الأرض البكر(٣٤).

القطاع TUV:

فتح القطاع TUV في المرتفع الصغير عند الزاوية الشمالي الشرقية من الموقع. وفي هذا القطاع لم يعثر إلى بقايا كفتاري فوق طبقات بانيش، لذلك فإن الطبقة الأولى (العليا) تعود إلى عصر بانيش.البناية التي اكتشفت في الطبقة الأولى كبيرة جداً، ومن المرجح أنها لم تكن بناية سكنية. كما أن هناك بناية دائرية صغيرة أفترض أنها تعود إلى الطبقة الأولى أيضاً.

في الطبقة الثانية استظهر بناء يبدو أنه مجمع سكني يضم عرفة واسعة في الجانب الشرقي وغرف أصغر في الجانب الغربي، وقد عثر في هذه الغرف الصغيرة على مواقد كبيرة وصغيرة، أحجار طحن، جرار خزن كبيرة، صوامع داخلية، كثير من

عظام الحيوانات ورُقم بكتابة شبه عيلامية Proto-Elamite (انظر رسوم الفخار في الشكل ١١).

الطبقة الثالثة في القطاع TUV ظهرت في عدة حفر صغيرة، وجاءت منها كمية من الأختام بطراز خطي مختصر. عدة رُقم طينية بكتابة شبه عيلامية ومجموعة مهمة من الفخار تبدو مشابهة تقريبا لمجموعة فخار القطاع TUV، الطبقة الرابعة[٣٥]. وقد قدمت الطبقة الثالثة في القطاع دليلاً على وجود تصنيع للمعادن. وهذا الدليل يشمل كسر من رقائق متناثرة من جدار فرن لصهر المعادن بوتقات صهر وقطع من فتات النحاس/ البرونز[٣٦]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن التنقيبات في تلك مليان لم تقدم الدليل الذي يمكن أن يساعد في دراسة الانتقال من عصر لابوي إلى عصر بانيش طالما لا توجد سكنى في الموقع من عصر لابوي[٣٧].

٣- تل نوخودي:

يبعد تل نوخودي ٨٠٠ متر إلى الشمال الغربي من ضريح كورش ويطل على وادي يصب في نهر بولفار. التل صغير وأبعاده ١٢٠×٨٠م، وارتفاعه ٢م، قامت مديرية الآثار للدراسات الفارسية بالتنقيب في الموقع بموسمين خلال عامي ١٩٦١ و١٩٦٢م. في الموسم الأول فتح خندقان (A وB)، كل منهما بأبعاد ٥×٤م (انظر الشكل رقم١٢). وقد أمكن الكشف عن أربع طبقات في هدين الخندقين. الطبقتان الأوليتان شغلتا ما سمكه متر واحد من الركام الدفني، وظهر فيهما فخار بطلاء خفيف أحمر ورمادي له صلة بالفخار المعروف باكون A، الطبقة الخامسة (فخار لابوي). الطبقتان الأختان أنتجتا تبنياً وملونا من النوع المعروف من باكون A، الطبقات ١-٤ (فخار بانيش)[٣٨].

أما في الموسم الثاني (١٩٦٢م)، فقد فتح الخندقان C و E إلى الغرب من الخندق الذي سبق أن فتح من قبل مديرية الآثار الإيرانية. وقد أصبح واضحاً من خلال الموسم الثاني أن التسوية المتأخرة تشمل ثلاث طبقات بنائية، هي: Ia ، IB، II لم

تكتشف بقايا من الطبقة الأولى (ai) ومن الطبقة الثانية (ib) اكتشفت بقايا بيت وموقد. في الطبقة الثالثة (ib) اكتشفت بقايا بيت شيد أولاً ملاصقاً للباحة رقم ١ (انظر مخطط الطبقة في الشكل رقم ١٣). يشتمل هذا البيت على الغرف ٢، ٦، ٧، ٧٨. وفي زمن لاحق (الطبقة الثانية iib) أضيف البيت الذي يتألف من الغرف ٣، ٤، ٥ بعد ذلك، تعرضت الغرف ٢، ٦، ٨ للحرق وشيد في موضعها بيت الطبقة الأولى بمخطط مختلف. ومن بين مكتشفات الطبقة الثانية بعض المواد المعدنية، مثل رأس مطرقة وقطع أخرى[٣٩]، وبعض الفخار (انظر الشكل رقم ١٤).

الهوامش

(l)W.M. Sumner, Cultural Development in the Kur River Basin , Iran : An Archaeological Analysis of Settlement Patterns .(PH.D.Thesis, Columbia University, 1972),p.13.

(2) Ibid., pp . 11 f.

(3) L . Vanaden Berghe, Archgologie de L'lran Ancien ,(Leiden , 1965).

(4)Paul Gotch, "A survey of the PersepoSis plain and Shiraz area", in IRAN 6 (1968), **pp.** 163-70.

(5)Paul Gotch , "A survey of the Persepolis plain and Shiraz .field survey 2" in IRAN 7 (1969).

(6) Ibid . ..p . 190 .

(7) W.M. Sumner, Op. Cit, pp . 20 .

(8) Ibid. , pp. 36-8.

(9) Ibid., p. 39 .

(10) Ibid. p. 40 .

(11) W.M. Sumner, "Excavations at Tall - i Malyan , 1971 - 72 " in IRAN 12 (1974), p." 156 .

(12)W.M. Sumner, Cultural Development In the Kur River Basin...., p-. 40 ,

(13) Ibid., p. 23 .

(14) Ibid.,pp.42f.

(15) Ibid., p. 58.

(16)Alexander Langsdorff and Donald E. McCown, Tall-i-Bakun A, Season of 1932, (OIP 59), (Chicago, 1942), pp. 32f.

(17) W.M. Sumner "Cultural Development in the Kur River Basin..., p. 59 .

(18) Ibid.,pp.42f.

(19) Ibid., p.59.

(20) A. langsdorff and D. E. McCown , Op ,01 , p.5 .

(21) Ibid., p.32. (22}!bid., Fig. 4 .

(23) Ibid. ,p. 32.

(24) Erich . Schmidt The Tressury of Persepolis and other Discoveries In the H of the Achaemenians (= OIC. xx), (Chicago 1939), p.123 .

(25) Namio Egami and Seiichi Masuda The Excavations at Tall-i-Bakun 1956 (- Marv- Dasht 1), (Tokyo , 1962), p. I.

(26) Donald E. McCown The Comparative Stratigraphy of Early Iran , 3rd ed., (Chlgago 1970Lp.23.

(27) W.M. Sumner, "Survey of excavations : Tall-i-Malyan", in IRAN 10 (1972), p.176.

(28) W.M Sumner /'Excavations at Tall-i- Malyan , 1971-72", in IRAN 12 (1974), p.158.

(29) W. M. Sumner "Excavations at Tal-e- Malyan , a summary of three seasons, results", in Symposium on Archaeological Research in Iran 3 (Tehran , 1975) / p.157.

(30) W.M. Sumner "Tall-i- malyan and the chronology of the Kur River Basin , Iran", in American Journal of Archaeology 77 (1973), p. 288.

(31) W.M. Sumner, in IRAN 12 (1974), p. 154.

(32) W.M. Sumner, in American Journal of Archaeology 77 (1973), p.304.

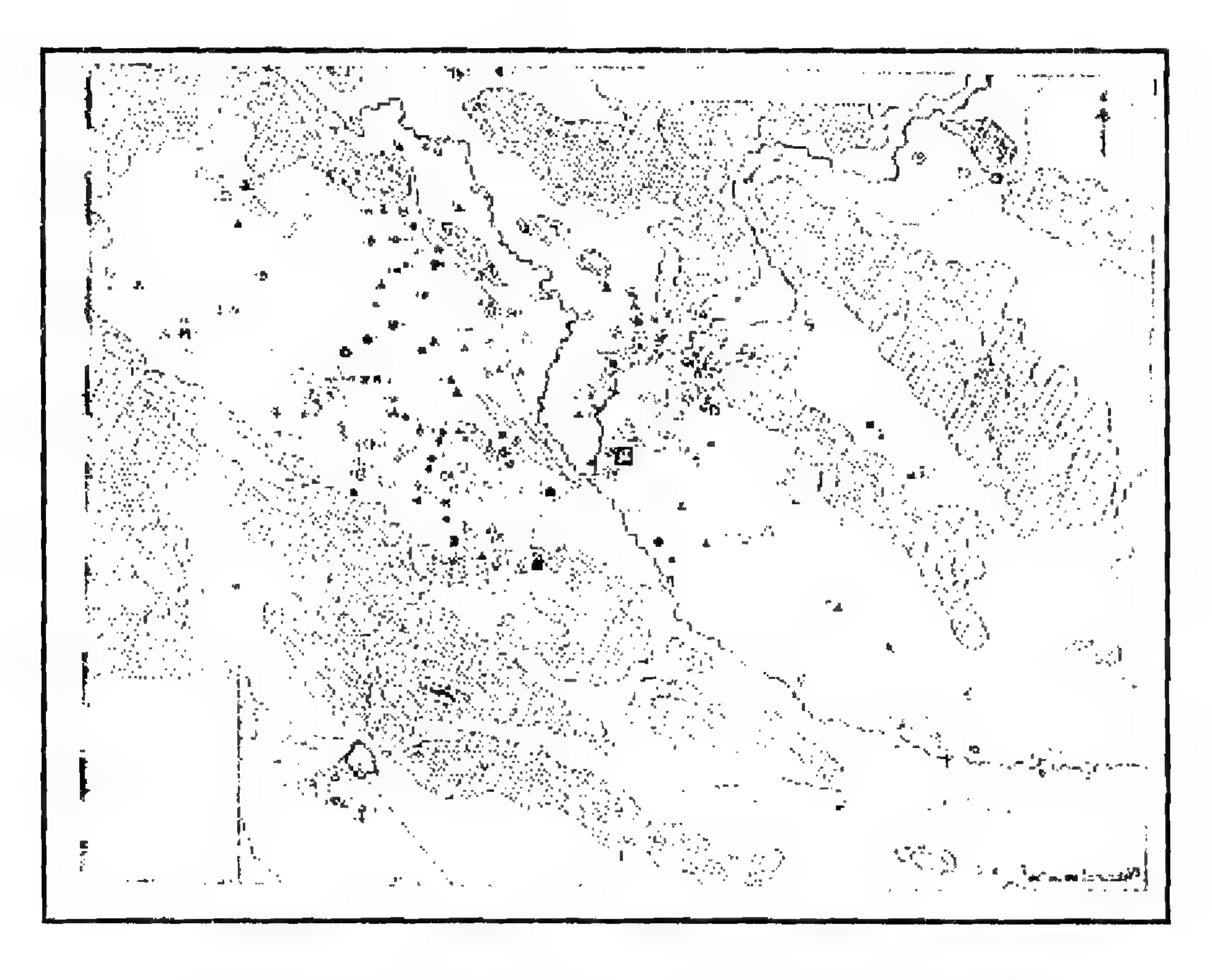
(33) W.M. Sumner, "Excavations at Tall-e- Malyan (Anshan)1974" ,In IRAN 14 (1976), W-105f.

(34) W.M. Sumner "Survey of excavations : Tal-e Malyan (Anshan)" , in IRAN 15 (1977), p.178.

(35) W.M. Sumner ,In IRAN 15 (1977), p.17S.

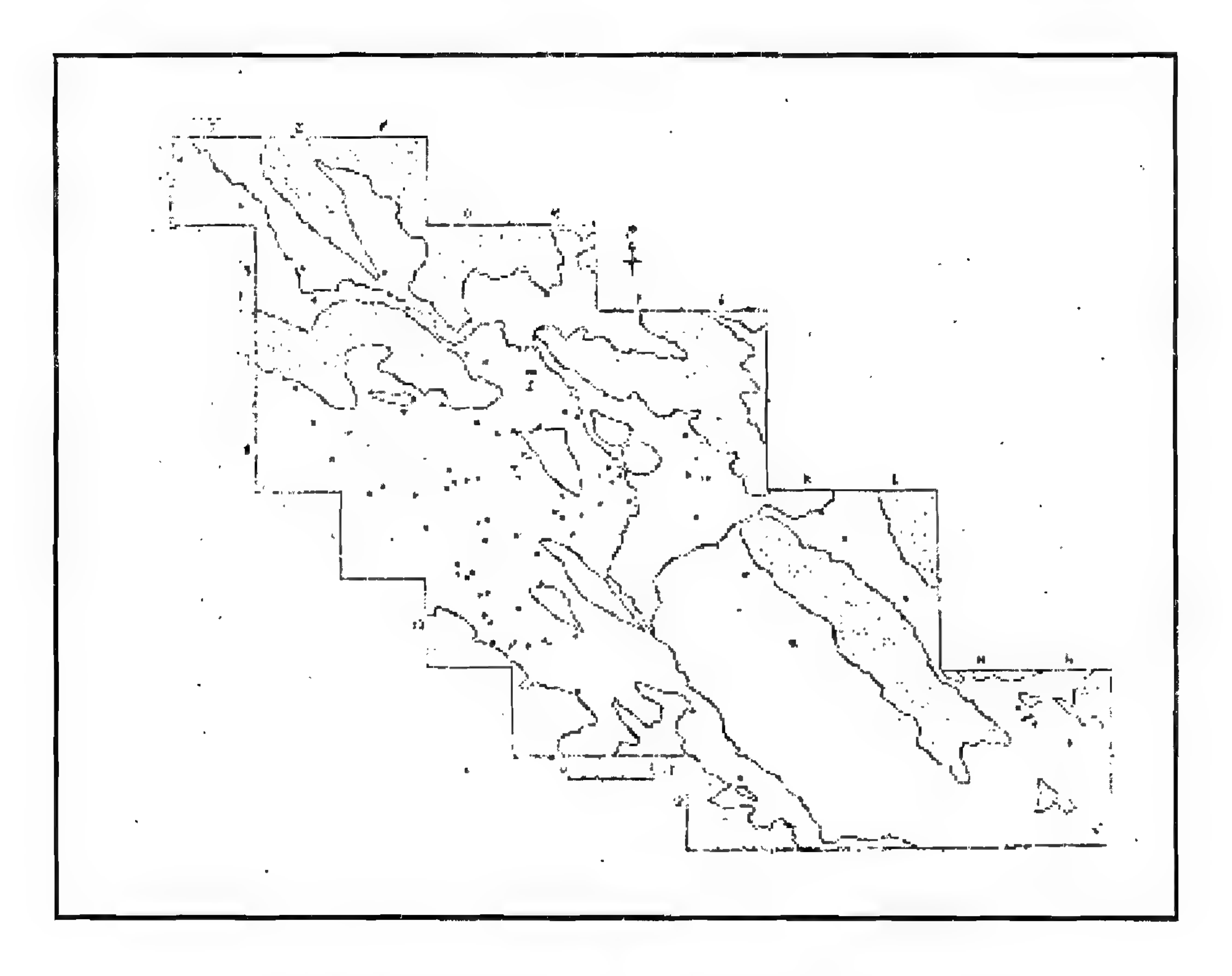
(37) W.M. Sumner, in American Journal of Archaeology 77 (1973), p.290. (38) Clare Goff /"Excavations at Tall-i- Nokhodi, 1962" in IRAN 1 (1963), p.45.

(39) Clare Goff, "Excavations at Tall- i- Nokhodi, 1962" .in IRAN 2 (1964). pp.41-4 .



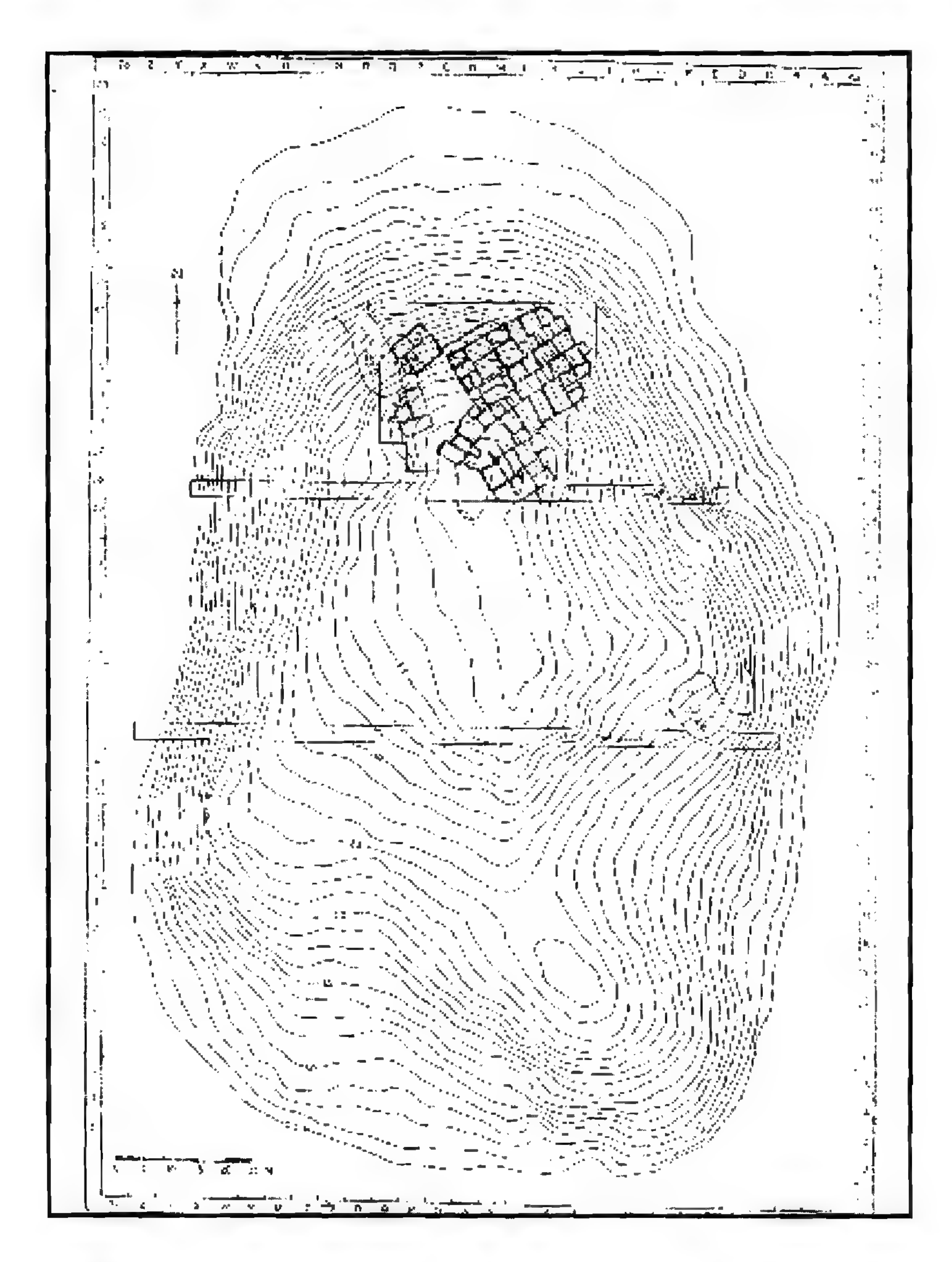
المواقع الأثرية في الشكل رقم ١: سهل مارف دشت ووادي نهر كور

المرجع: P.Gotch, IRAN, (1968)



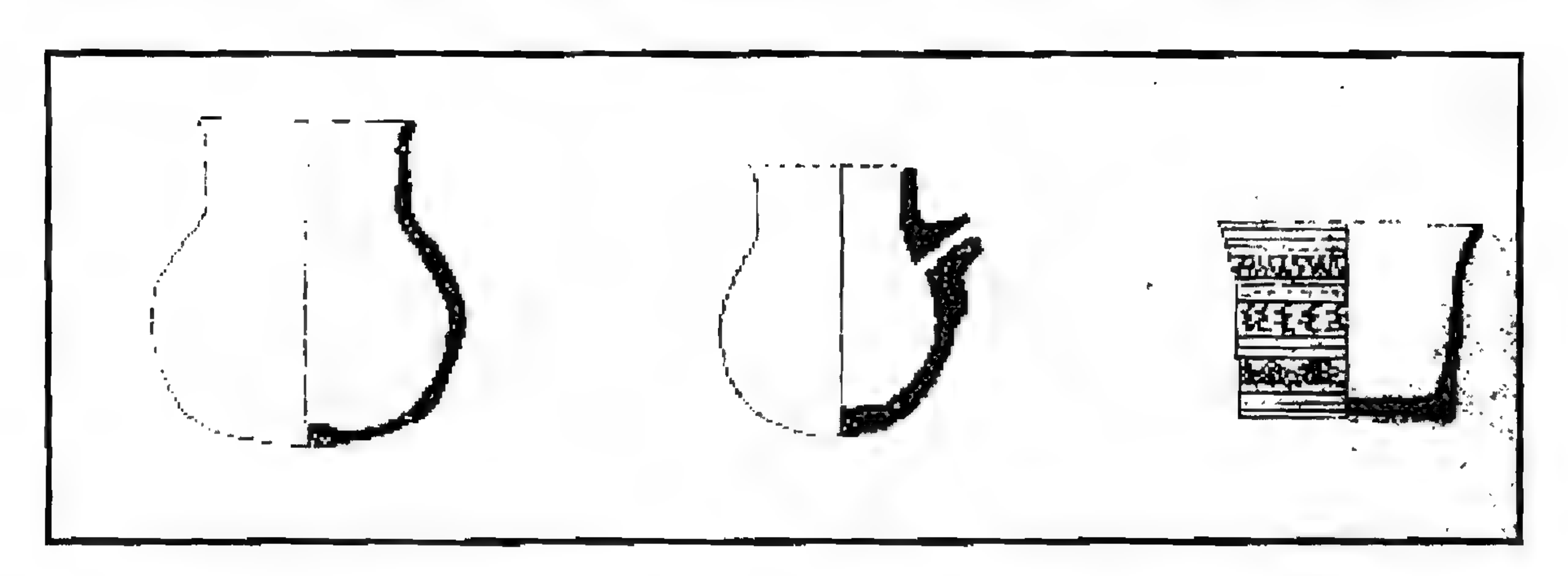
الشكل رقم ٢: توزيع المواقع الأثرية في سهل مارف دشت

W.M. Sumner, (Cutural Develiopment....Fig. 13 المرجع



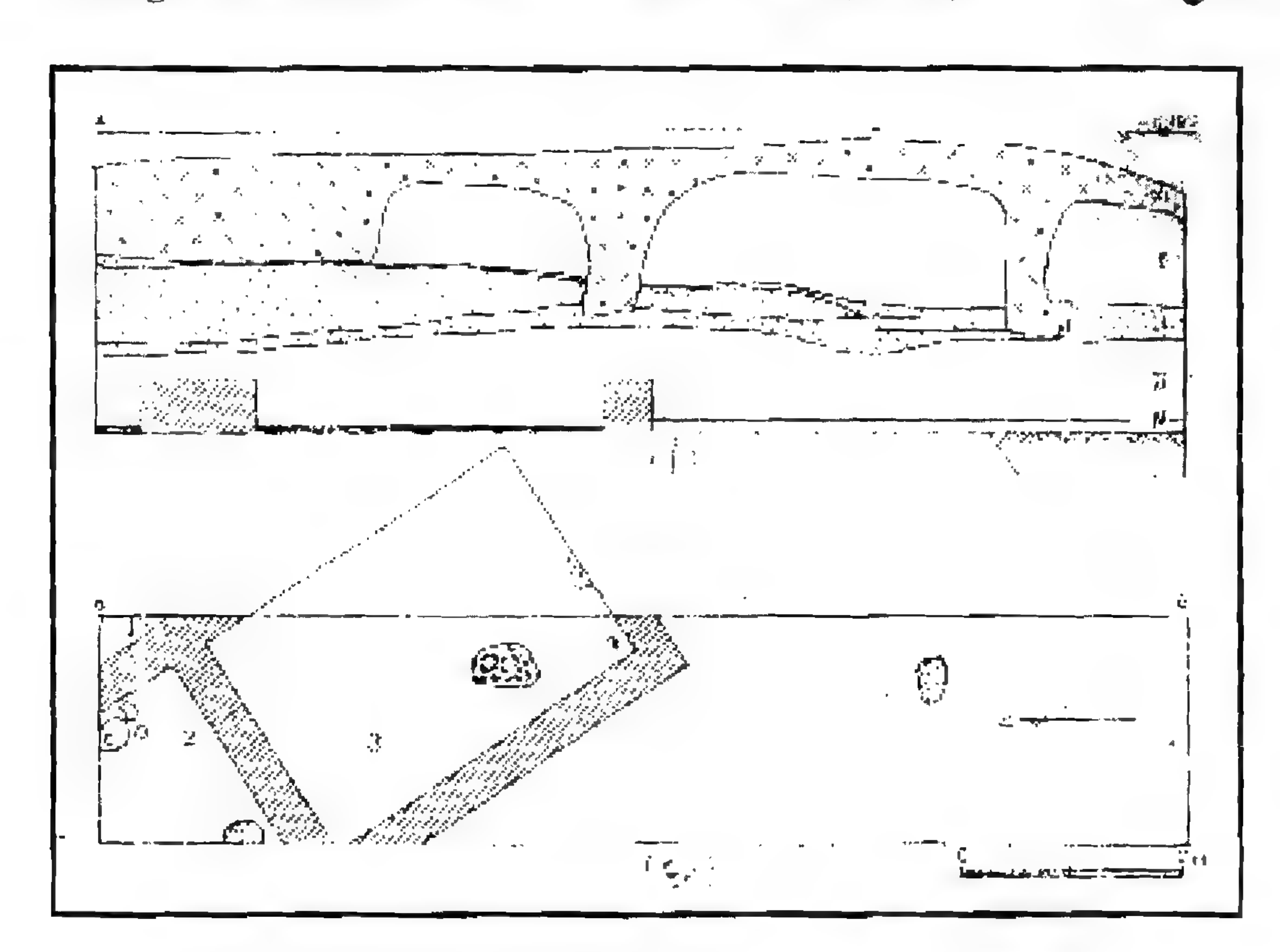
الشكل رقم ٣: المخطط الكنتوري لتل باكون والتنقيبات التي أجريت فيه

المرجع: A. Langsdorff and D,E. McCwn. OIP 59 (1942) Fig. 2



الشكل رقم ٤: ثلاث قطع من فخار لابوي، تل باكون – الطبقة الخامسة.

المرجع: A. Langsdorff and D,E. McCwn. OIP 59 (1942) No17-19

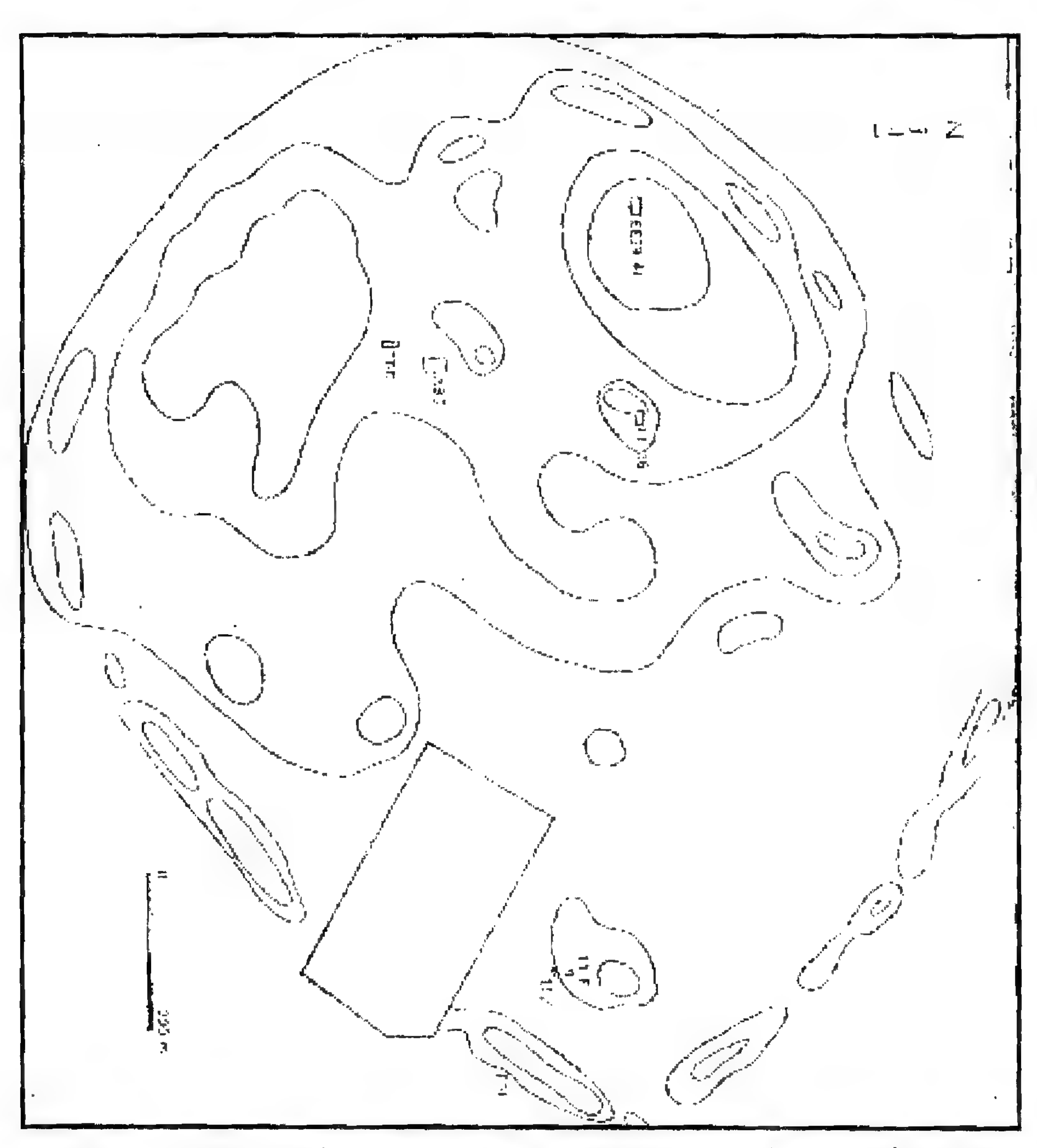


الشكل رقم ٥: تنقيبات البعثة الآثارية اليابانية في تل باكون A

(أ) مقطع عمودي يبين الطبقات الأربع في المرتفع A

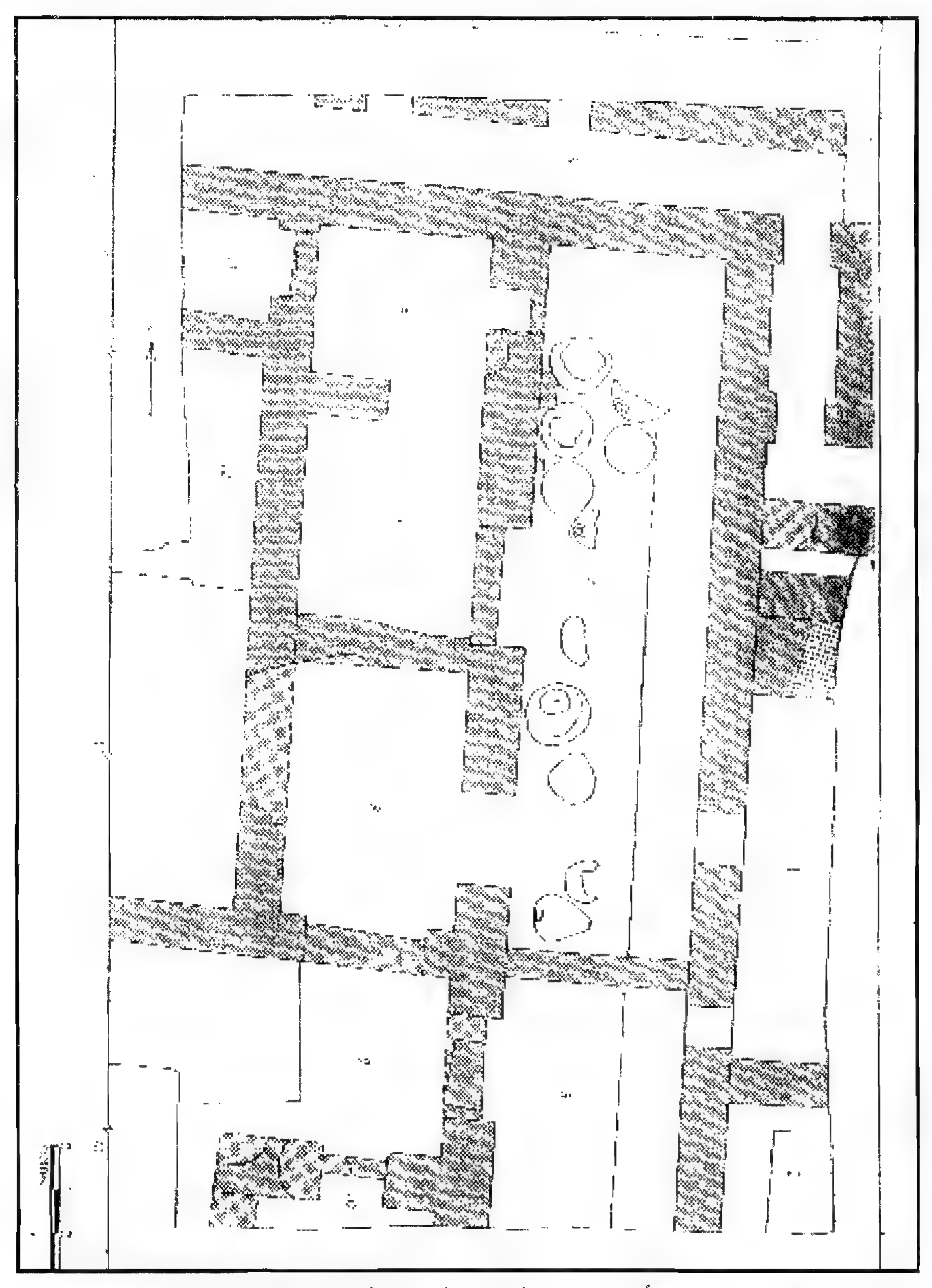
(ب) مخطط أرضي للطبقة الرابعة.

المرجع: N.Egami and S. Masuda, Marv-Dasht I (1962). Fog. 3



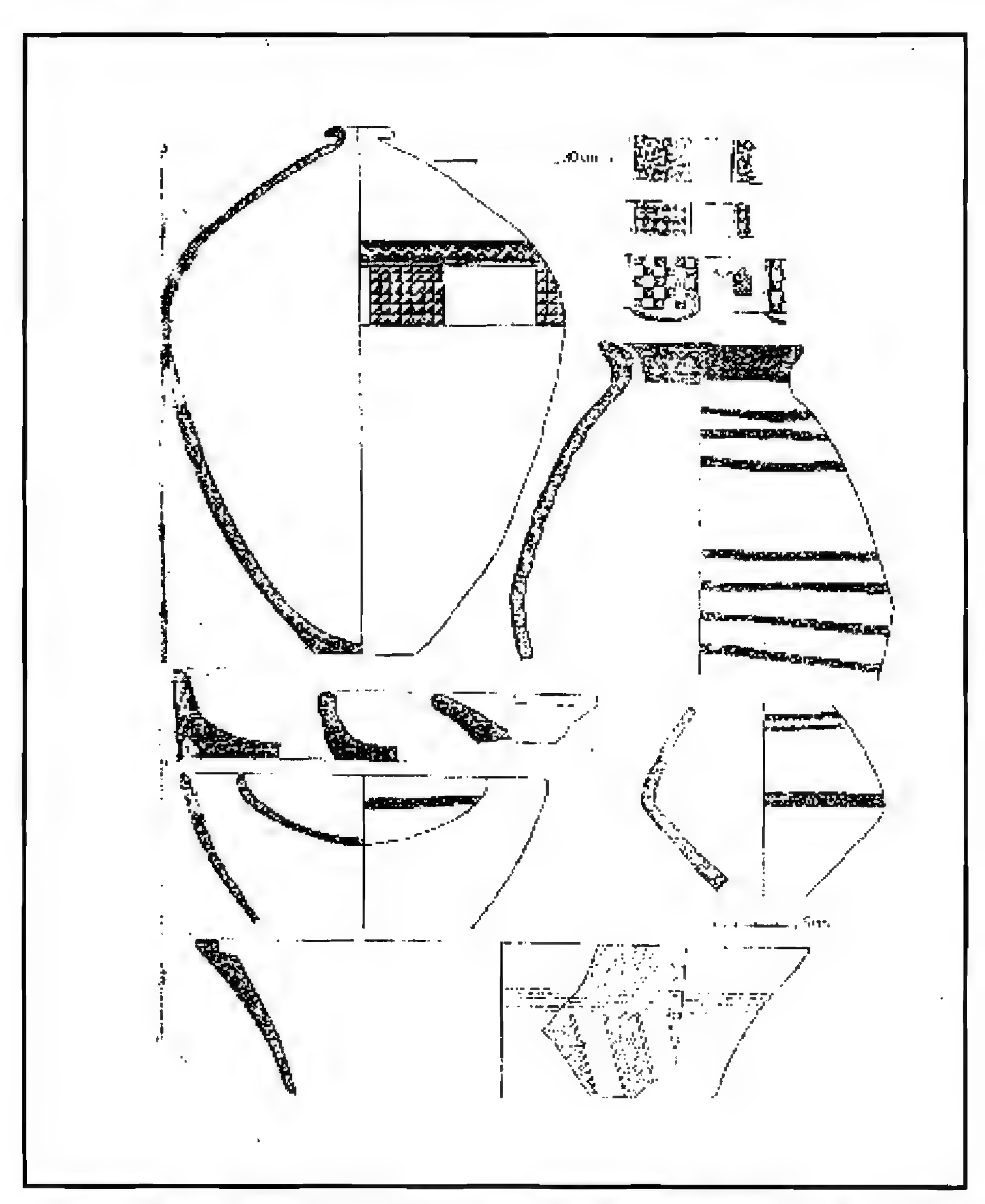
الشكل رقم ٦: مخطط كنتوري لتل مليان مع موضعي القطاعين ABC و TUV

المرجع: W.M. Sumner, IRAN 12 (1974), Fig 2



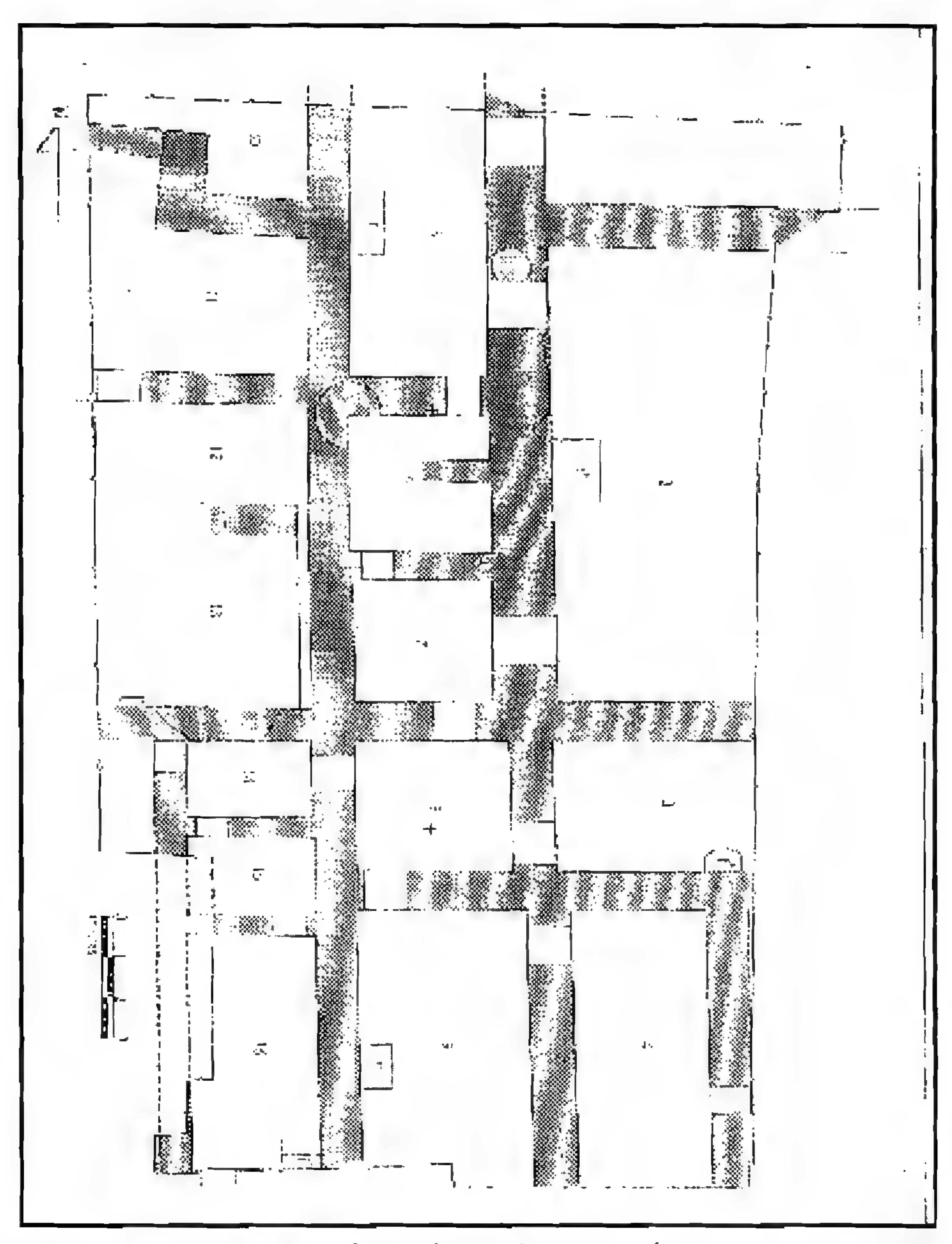
الشكل رقم ٧: مخطط أرضي لبناية الطبقة الثانية في القطاع ABC، تل مليان

المرجع: W.M. Sumner, IRAN 12 (1974), Fig 3



الشكل رقم ٨: رسوم لقطع من فخار عصر بانيش من تل مليان، القطاع ABC.

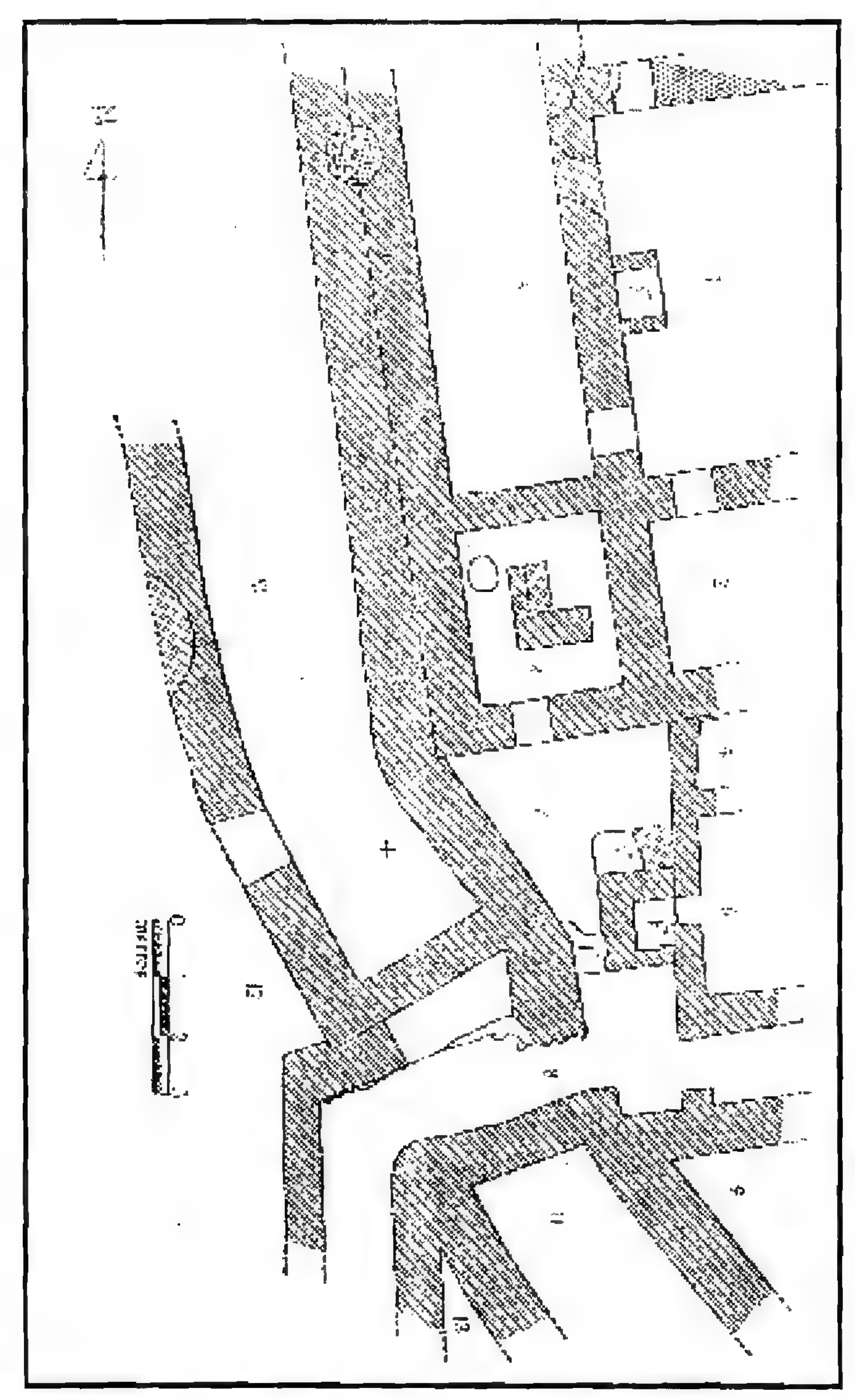
W.M. Sumner, IRAN 12 (1974), Fig 5 المرجع



الشكل رقم ٩: لمخطط الأرضي لبناية الطبقة الثالثة في القطاع ABC، تل مليام

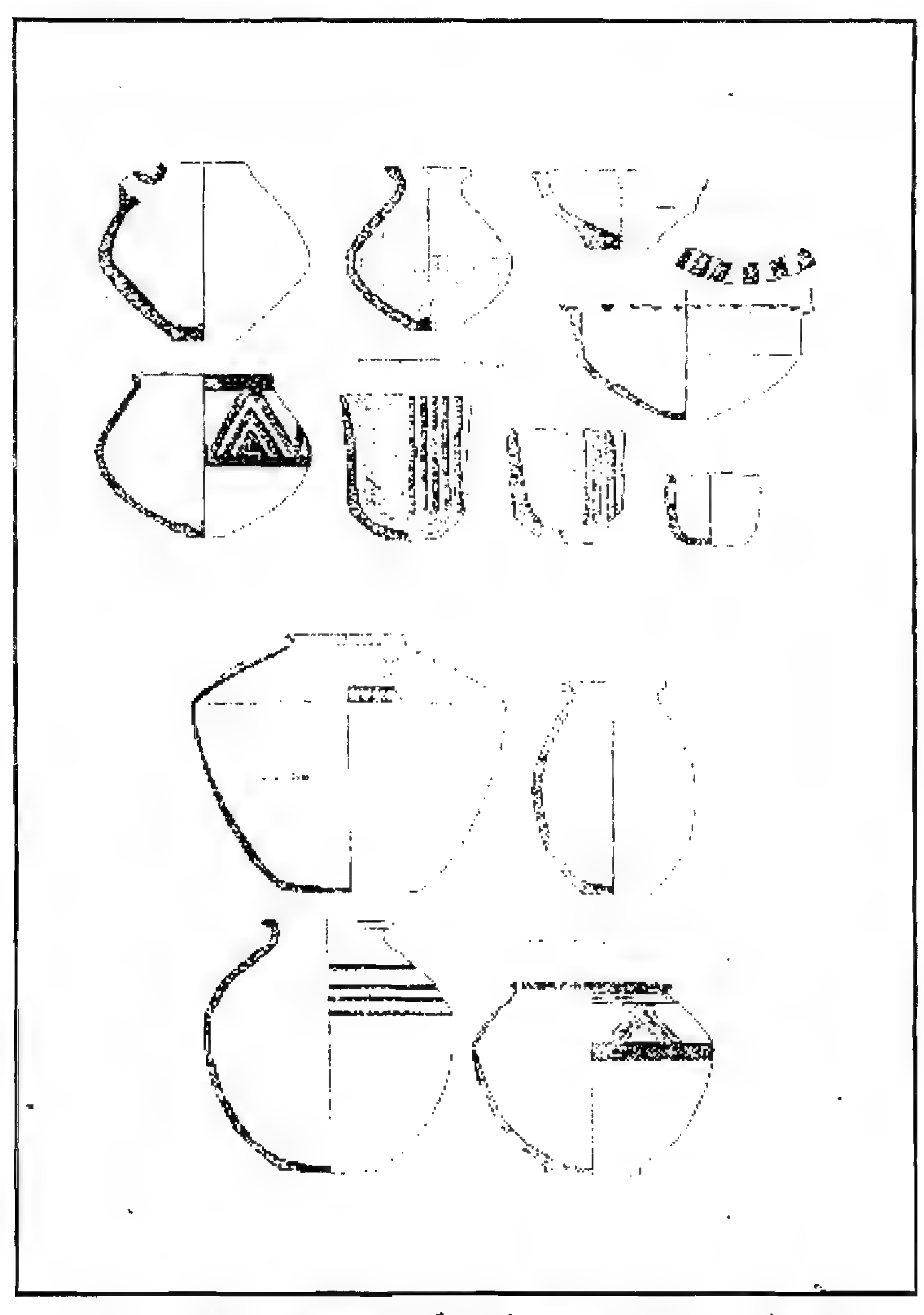
م= موقد

المرجع: W.M. Sumner, IRAN 14 (1974), Fig 2



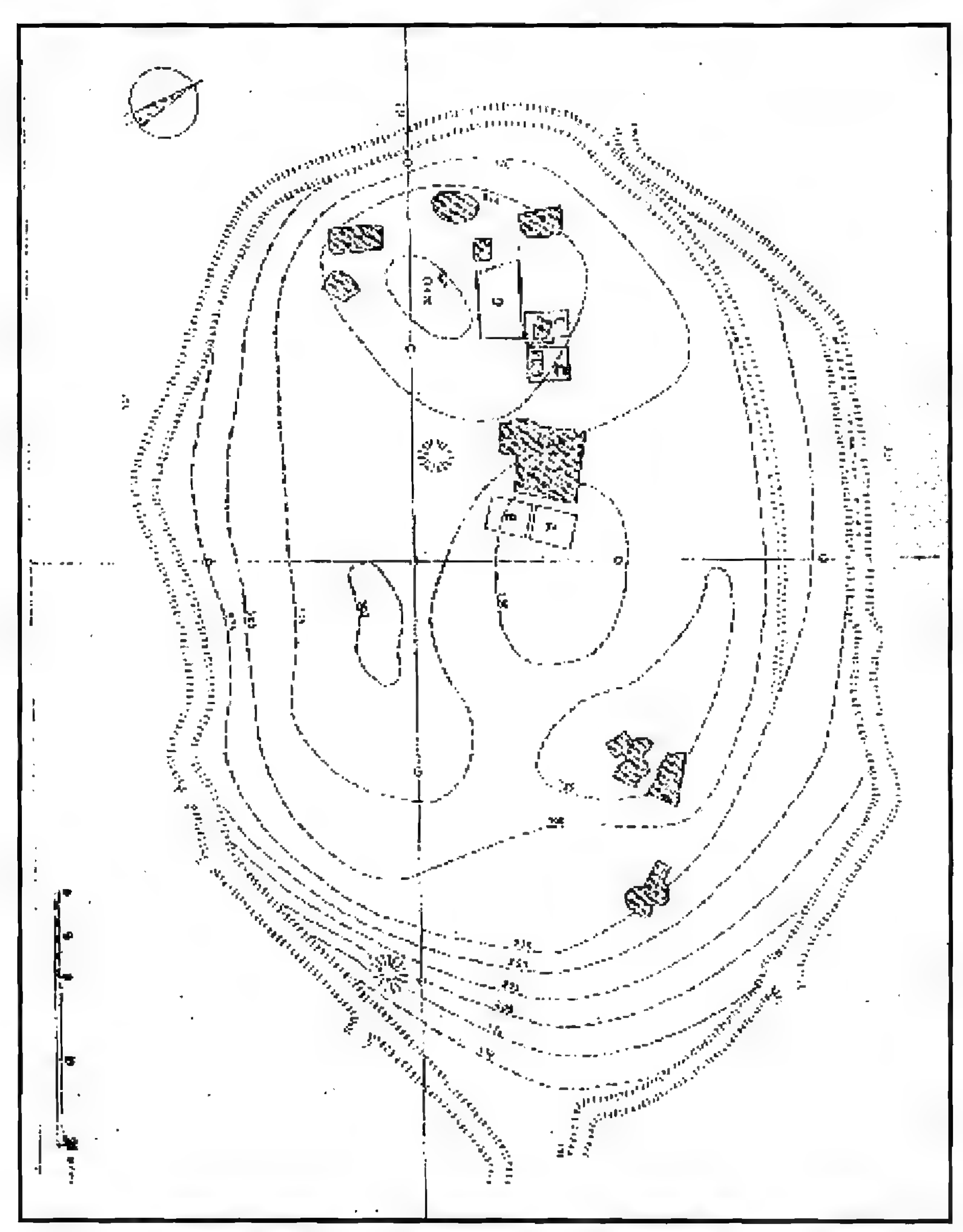
الشكل رقم ١٠: المخطط الأرضي لبناية الطبقة الرابعة في القطاع ABC، عصر بانيش، تل مليان م= موقد

المرجع : W.M. Sumner, IRAN 14 (1976), Fig 1



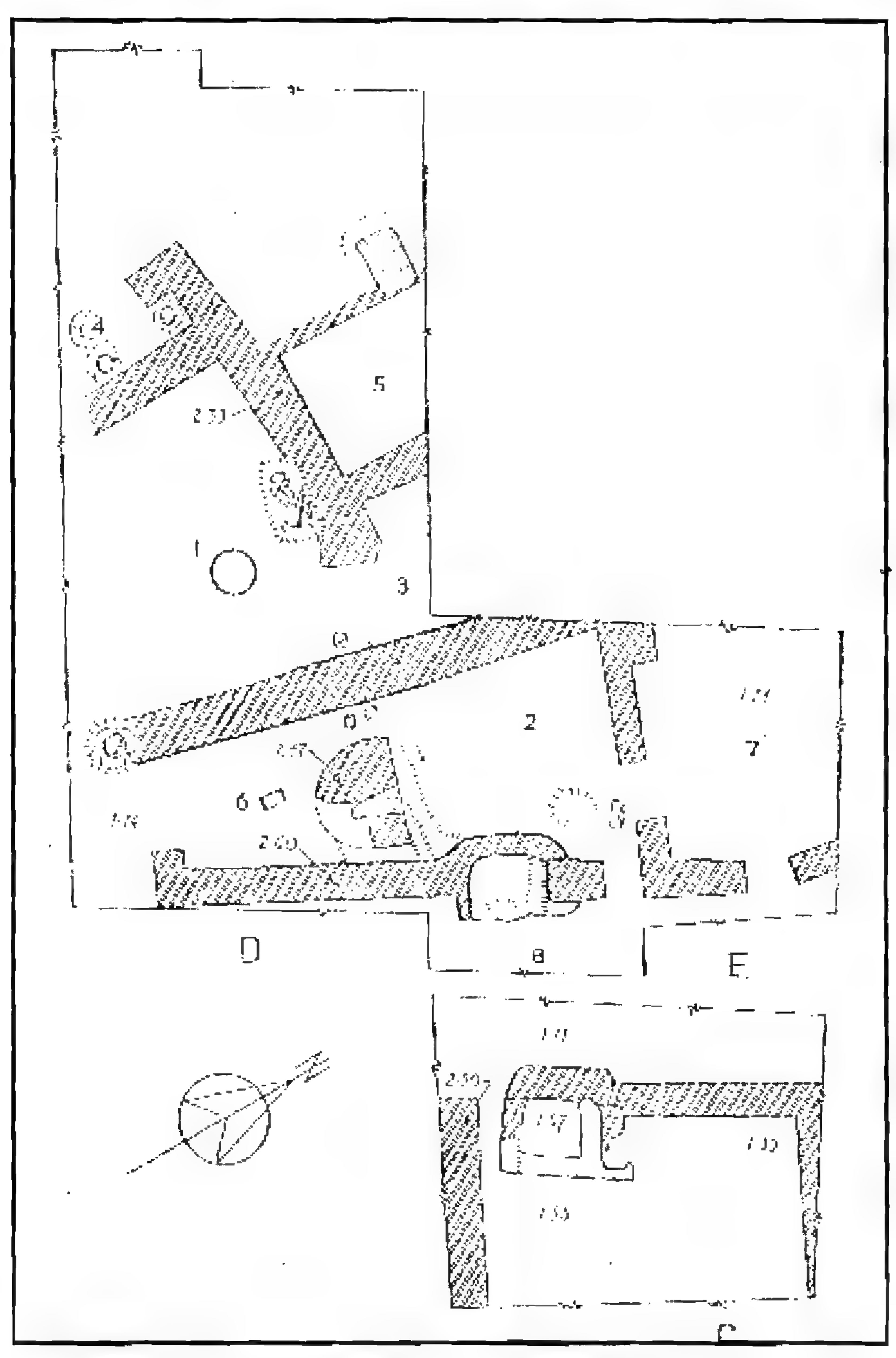
الشكل رقم ١١: رسوم لقطع فخارية من القطاع TUV، تل مليان.

المرجع: W.M. Sumner, IRAN 12 (1976), Fig 7



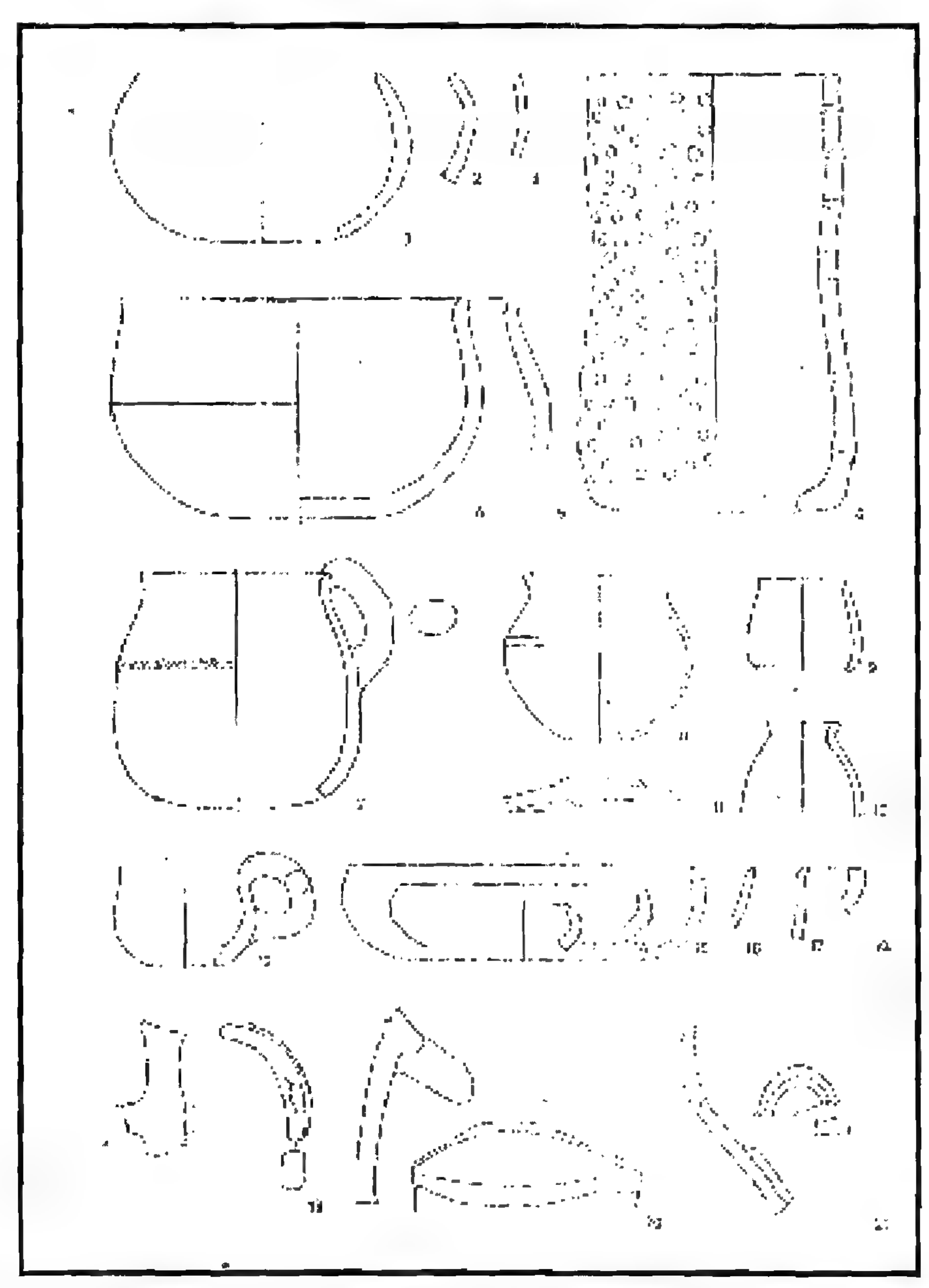
الشكل رقم ١٢: الخارطة الكنتورية لتل نوخودي مع مواضع التنقيب فيه.

المرجع: C. Goff, IRAN 2 (1964), Fig 1



الشكل رقم ١٣: المخطط الأرضي لأبنية الطبقة الثانية، تل نوخودي.

المرجع: C. Goff, IRAN 2 (1964), Fig 2



الشكل رقم ١٤: رسوم لقطع فخارية من الطبقتين الأولى والثانية، تل نوخودي.

المرجع: C. Goff, IRAN 2 (1964), Fig 6

عوامل قيام مدينة دمشق واستمرارها

الدكتور صالح وهبي

قسم الجغرافية

جامعة دمشق

عوامل قيام مدينة دمشق واستمرارها

الدكتور صالح وهبي

قسم الجغرافية

جامعة دمشق

ملخص البحث:

مدينة دمشق أقدم عاصمة في التاريخ بقيت حية منذ تأسيسها حتى الآن. يبين البحث العوامل الطبيعية والبشرية التي ساعدت على قيام مدينة دمشق وساهمت ببقائها منذ آلاف السنين حتى الآن، وأهم الأحداث التاريخية التي أثرت فيها سلبياً وإيجابياً. إضافة إلى تحديد العوامل التي تهدد التوازن البشري والاقتصادي والبيئي في مدينة دمشق. وتم استخلاص مجموعة من النتائج إضافة إلى وضع سلة من المقترحات لحل المشكلات التي تعاني منها مدينة دمشق حالياً.

المقدمة:

تعدُّ مدينة دمشق ثاني أقدم مدينة في التاريخ بعد مدينة أريحا في فلسطين، وأقدم عاصمة بقيت مأهولة حتى الآن منذ تأسيسها، وساهمت عوامل عديدة في نشوئها وحافظت على نبض الحياة المزدهرة فيها خلال عمرها الطويل الذي يقدر بآلاف السنين، حيث تدل الرقم المكتشفة في إيبلا عام ١٩٧٥ أن دمشق كانت موجودة خلال الألف الثالثة قبل الميلاد. ولولا توافر مقومات الحياة الطبيعية والبشرية لما استطاعت

دمشق الصمود والبقاء في وجه الغزوات والظروف الصعبة التي رافقتها، فكانت تتغلب على كل الظروف القاهرة التي مرت عليها لتستعيد نشاطها وتطورها من جديد. وتدين دمشق بأهميتها ووجودها إلى نهر بردى وغوطة دمشق وجبل قاسيون.

ولكن في الآونة الأخيرة بتنا نلحظ بعض العوامل البشرية الضاغطة على نبض الحياة في هذه المدينة العريقة. مما يستدعي التدخل بسرعة لإعادة التوازن إليها.

١ - أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الآتي:

١ – تحديد وإظهار عوامل قيام مدينة دمشق واستمرارها.

٢ – تحديد العوامل التي تهدد التوازن البشري والاقتصادي والبيئي في مدينة دمشق.

٣ – وضع مجموعة من المقترحات لحل المشكلات التي تعاني منها مدينة دمشق.

٢ -إشكالية البحث:

تعدُّ مدينة دمشق من أقدم مدن العالم حيث تعايشت وتناغمت آلاف السنين مع الظروف البشرية والتاريخية والسياسية إضافة إلى الموارد البيئية الطبيعية المتوازنة المحيطة بها. ولكن في الآونة الأخيرة بلغ الاكتظاظ السكاني فيها حداً يفوق طاقتها على الاستيعاب وهذا ولد العديد من المشكلات المختلفة التي تهدد أقدم عاصمة مأهولة في التاريخ وتسيء إلى عراقتها التاريخية والحضارية وتهدد أهم عوامل قيام مدينة دمشق وهي بردى والغوطة.

٣ – المناهج المتبعة:

١ – **المنهج التاريخي:** وذلك لملاءمته لهذا البحث للتعرف على أهم العوامل التي ساهمت بقيام واستمرار مدينة دمشق حتى الآن والتغيرات التي طرأت عليها من نمو وتوسع عبر تاريخها الطويل.

٢ – **المنهج الوصفي التحليلي**: للتعرف على الموقع والموضع الجغرافي لمدينة دمشق وخصائصه وتأثيره في نمو مدينة دمشق وإظهار المشكلات المعاصرة التي تسيء إلى مدينة دمشق.

٤ – **الدراسات السابقة**: لقد تعددت الدراسات السابقة حول مدينة دمشق من قبل المؤرخين والجغرافيين والرحالة والمهندسين المعماريين والمهتمين بالآثار والسياحة. وتطرقت معظم الدراسات السابقة إلى الأحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت فيها مدينة دمشق خلال الحضارات التي تعاقبت عليها، وموقع مدينة دمشق وأهميتها وجمال غوطتها مع نهر بردى، إضافة إلى الجانب العمراني وأهم المباني فيها ودور العبادة والمدارس والأسواق والخانات والحمامات والقلعة والسور وأبواب دمشق وغيرها. ومعظم هذه الدراسات تميزت بالتعريف والوصف وبعضها تميز بالشمولية وبعضها تخصص ببعض الجوانب العمرانية أو الاقتصادية والاجتماعية والسكانية. وعلى حد علم الباحث لا توجد دراسات سابقة عالجت موضوع عوامل قيام مدينة دمشق واستمرارها حتى الآن بشمولية.

ويمكن تقسيم العوامل التي ساهمت في قيام مدينة دمشق واستمرارها إلى عوامل طبيعية، وبشرية واقتصادية.

أولاً – العوامل الطبيعية:

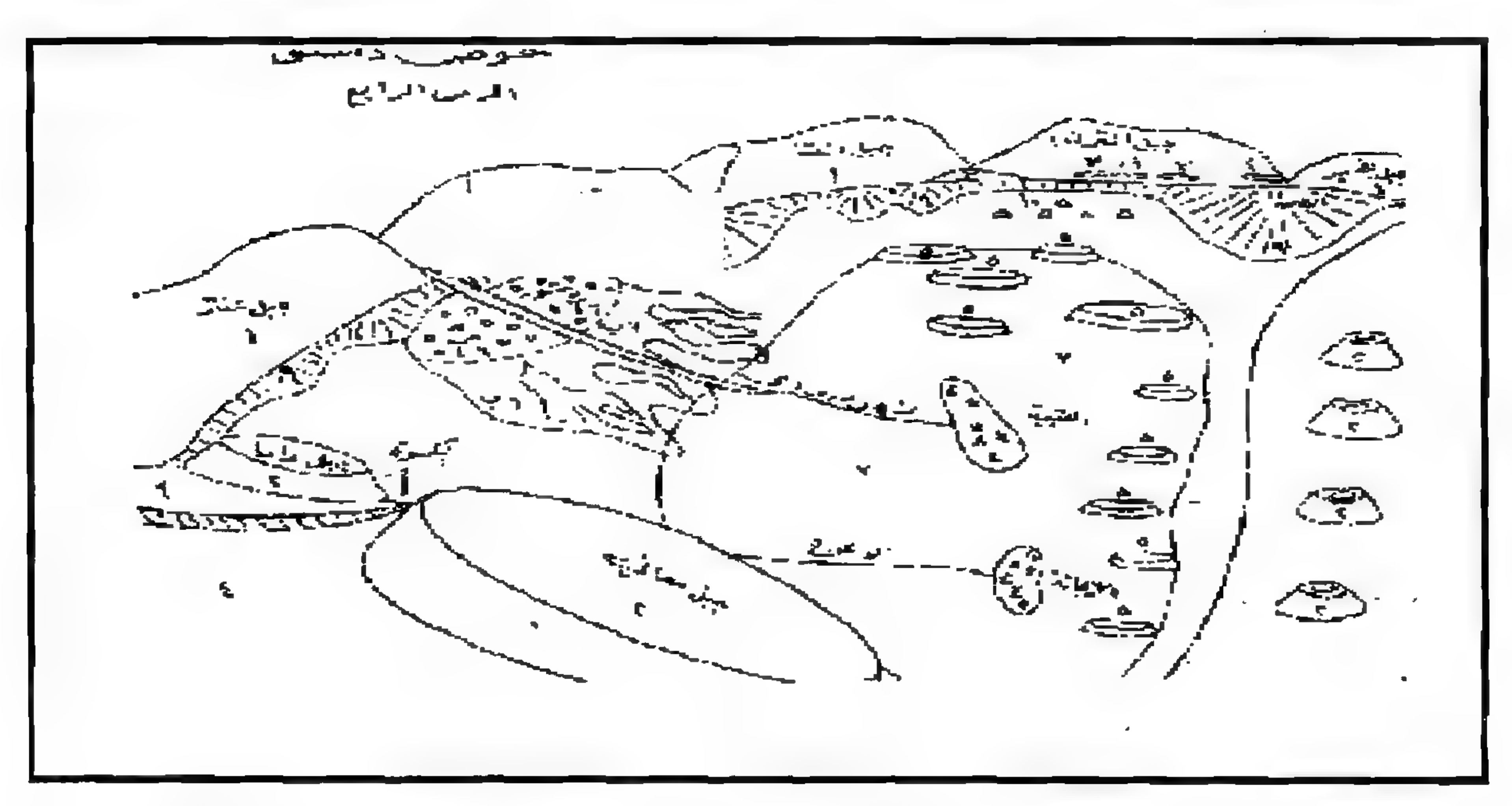
١ – الموقع الفلكي والتضاريس:

تقع مدينة دمشق القديمة على خط الطول (18َ – 36ْ) شرقي غرينتش، وخط العرض (٣ َ21 ْ3) شمال خط الاستواء[١]. وتقع دمشق وغوطتها ضمن حوض دمشق المغلق المحاط بمجموعة من الجبال والتلال هي جبال عنتر وقاسيون وأبو العتا وبداية السلاسل الجبلية التدمرية من الشمال والغرب، ويحيط به من الجنوب والجنوب الشرقي التلال البركانية لمنطقة الكسوة وأطراف صبة الصفا، ومن الشرق هضبة

ديرة التلول وعتبة أبو الشامات. ويبلغ ارتفاع الحوض وسطياً نحو ٦٥٠ متراً فوق مستوى سطح البحر ويتراوح ارتفاعه من الغرب بين (٧٠٠ – ٧٢٥ م) وبشكل عام ينحدر الحوض باتجاه منخفض الهيجانة والعتيبة أخفض نقاط الحوض نحو (٥٩٨ متراً). ويبلغ أكبر طول للحوض (٥٠ – ٦٠ كم) وعرض يتراوح بين (٤٠ – ٤٥ كم). ويقسم الحوض إلى قسمين الأول الغربي وتمثله الغوطة والثاني شرقي ويمثله المرج ويخترق هذا الحوض نهر بردى والأعوج[٣].

وتشكل حوض دمشق في أخر الزمن الجيولوجي الثالث، عندما ارتفعت السلاسل التدمرية كرد فعل للإلتواءات الألبية. وغمرته مياه الأمطار الغزيرة خلال العصر المطير وشكلت بحيرة فيه كونه حوضاً مغلقاً تحيط به الجبال ولكن هذه البحيرة ردمت بالرواسب التي نقلتها المياه من المناطق الجبلية المجاورة (الشكل ١).

(الشكل ١) حوض دمشق والجبال المحيطة به خلال الزمن الجيولوجي الرابع.



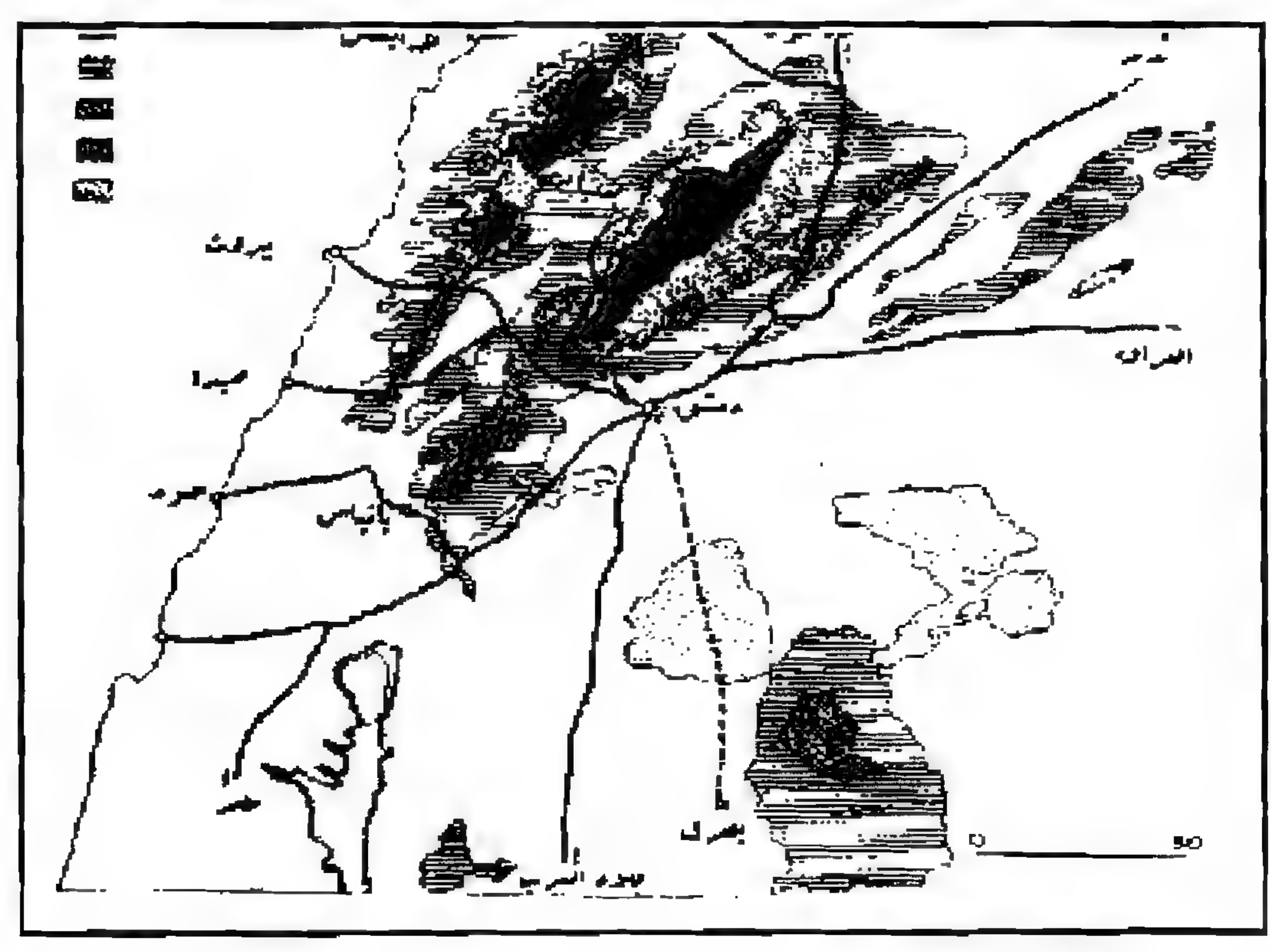
١–جبال جيرية ٢ – بازلت ٣ – كثبان رملية ٤ – مارن بحيري يرجع إلى البحيرة الكبيرة ٥ – بقايا البحيرة الصغيرة ٦ – مروحة بردى ٦ أ – حصى خشن ٦ ب –

رمل وحصى صغير ٧ – صلصال أسود ٨ – مستنقعات ٩ – رواسب سفحية حديثة١٠– تلال طينية. (مصدر الشكل صفوح خير عن فان لير، مدينة دمشق، ١٩٦٩).

واحتل موقع مدينة دمشق أهمية كبيرة كونه كان يتحكم بعدد من الطرق الحربية والتجارية في العالم القديم والوسيط، حيث كان باباً مفتوحاً إلى بادية مأهولة، تقع من خلفها بغداد وفارس والهند، ومكة واليمن، وتشكل مخرجاً من البادية إلى البحر عبر ممرات جبال لبنان الشرقية والبقاع، كما أنها كانت صلة الوصل بين حضارتي وادي نهر النيل وبلاد الرافدين، إضافة إلى الحضارة الإفريقية والرومانية في الشمال، كما شكلت دمشق محطة لتجمع وانطلاق الحجاج إلى الحجاز. وشكلت عقدة مواصلات ربطت هذه الحضارات وأثرت وتأثرت فيها (الشكل ٢).[4]

وجرت عملية تفاعل حضاري مع الحضارات المجاورة لها شملت كل ميادين الحياة البشرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية منذ العصر الحجري القديم.

(الشكل٢) يبين طرق المواصلات التي كانت تربط مدينة دمشق بالمناطق المجاورة لها.



وشكلت دمشق واحة ومحطة تجارية للقوافل التي كانت تنقل البضائع في مختلف الاتجاهات حيث ينعم التجار بها بعد قطع مسافات طويلة في البوادي والجبال.[٥]

وأصبحت دمشق منذ مطلع القرن السادس عشر مركز إحدى الولايات العثمانية. وكان لها عند الأتراك أهمية جيوسياسية باعتبارها أخر مستوطنة مدنية تقع على طريق الحج ومركزاً لتجمع الحجاج للانطلاق إلى مكة، قبل دخول الصحراء.

٢- جبل قاسيون:

يعدُّ جبل قاسيون أحد رموز مدينة دمشق الطبيعية وله شأن كبير في نشأة هذه المدينة العريقة وموضعها الجغرافي، حيث سكنه أهل مدينة دمشق قبل أن يسكنوا مدينة دمشق فلجأ إليه الإنسان ليحمي نفسه بالكهوف والمغاور المنتشرة فيه وعندما زاد عدد السكان وارتقت معارفهم وتجاربهم نزلوا إلى الحوضة وبنوا دمشق[٦].

وأخذ جبل قاسيون مكانة وشهرة كبيرة نتيجةً لما نُسج حوله من أساطير ذات صبغة دينية، حيث أحاطوه بالأماكن المقدسة المنسوبة إلى الأنبياء، ومن المواقع المقدسة نذكر دير مران ودير الرهبان ودير النساء ودير صليبا ولكن لا أثر لهما في وقتنا الحاضر. وهناك مغارة الدم التي تعرف اليوم بمقام الأربعين، حيث قتل قابيل أخاه هابيل، وكان يزوره الناس والحجاج ويعتقدون أن الدعاء فيه مستجاب. وبالقرب من مغارة الدم مغارة الجوع التي يعتقد الناس أنها كانت مأوى للأنبياء والمتعبدين. وبالقرب من هاتين المغارتين كهف جبريل الذي يذكره العمري في كتابه مسالك الأبصار، حيث أن أبا الفرج ابن المعلم بنى عند الكهف مسجداً عام ٣٧٠هـ، سماه كهف جبريل لأنه رآه في المنام فطلب منه أن يبني مسجداً عند الكهف. كما يوجد مسجد إبراهيم في شرقي قاسيون بالقرب من قرية برزة.[٧]

ويذكر ابن بطوطة في رحلته، الربوة المباركة "وفي أخر جبل قاسيون الربوة المباركة في كتاب الله، ذات القرار المعين، ومأوى المسيح عيسى وأمه عليهما السلام".[٨]

وفي كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر، المجلد الثاني ص ١١٢، توجد قصيدة في قدسية جبل قاسيون يمكن ذكر بعض الأبيات منها.

يا صاح كم في قاسيون وسفحه ... من مشهدٍ يستوجب التعظيما
ومغارة الدم فضلها متواتر ... مازلت أسمعه هديت عظيما
ولكهف جبريل الأمين فضيلةٌ ... مذكرة وقعت إلي قديما
ومغارة الجوع الشريفة تحته ... كم عابدٍ فيها ابن مقيما
ومقام برزة ليس ينكر فضله ... أعني مقامَ أبيك إبراهيما
وبه قبور الأنبياء فمن مضى ... ليزورهم، فقد ابتغى التكريما
جبل كثير الخير كلمه الإله ... فجال في ذاك اللسان وأنطقا
كم من ولي قد توسد سفحه ... بل من نبي حل فيه محققا

وبذلك غدت دمشق وجبلها قاسيون رابع المدن المقدسة بعد مكة والمدينة وبيت المقدس بأنبيائها وأوليائها ومزاراتها.

وحالياً أصبح قاسيون ملتقى سكان دمشق وزوارها يصعدون إليه لرؤية مدينة دمشق وغوطتها ويرتادون المقاهي التي تنتشر على سفوحه المطلقة على دمشق وخاصة في ليالي الصيف.

وإذا قلّت مكانة جبل قاسيون الدينية حالياً فقد بقيت محبته وأصبح رمزاً لمدينة دمشق وعزتها وصمودها.

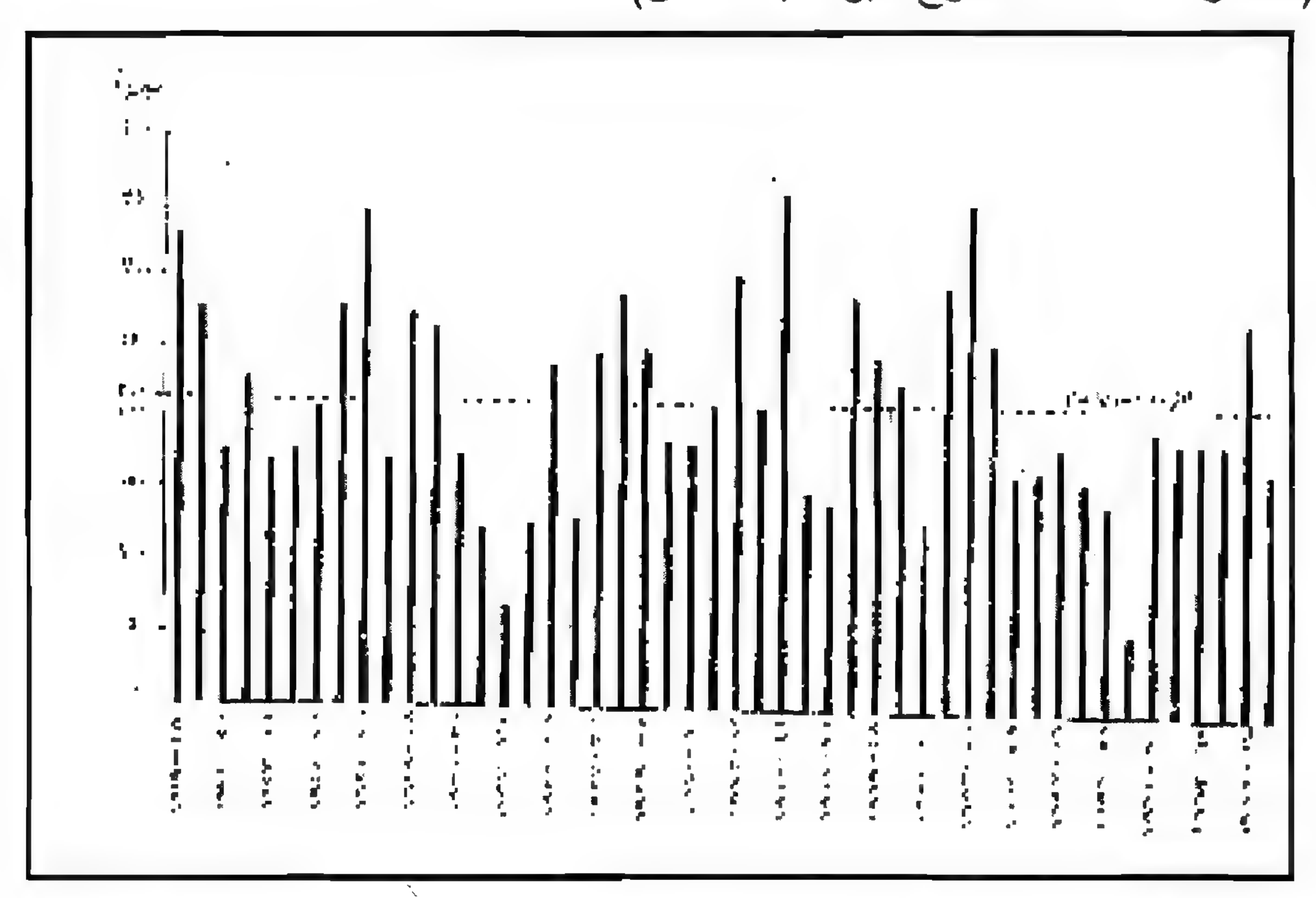
٣ – مناخ مدينة دمشق:

تقع مدينة دمشق ضمن الإقليم المناخي المتوسطي الداخلي الجاف والحار صيفاً والماطر والبارد نسبياً شتاءً. حيث يبلغ المتوسط السنوي للأمطار نحو ٢١٠ مم سنوياً (الشكل ٣) وهذه الكمية غير كافية للزراعة البعلية وعلى الرغم من أن دمشق لا تبعد عن البحر المتوسط سوى ٨٠ كم كخط نظر إلا أن أمطارها قليلة نسبياً وذلك بسبب وجود الحواجز الجبلية المتمثلة بجبال لبنان الغربية والشرقية التي تحد من وصول

الرياح الرطبة الماطرة القادمة من جهة الغرب. كما تتميز الأمطار بتذبذبها السنوي والفصلي والشهري. وسجلت أعلى كمية للأمطار في النصف الثاني من القرن العشرين نحو ٤٠٠ مم وذلك عام ١٩٥٣ م. وسجلت أخفض كمية للأمطار عام ١٩٩٩ وكانت نحو ٥٣ مم. ويهطل نحو ٦٥ % من الأمطار السنوية في شهور الشتاء (كانون الأول والثاني وشباط) ويهطل في فصل الربيع نحو ٢٠ % من الأمطار، و١٥ % في فصل الخريف. كما تتساقط الثلوج على مدينة دمشق في بعض السنوات بمعدل سنة كل سنتين. [٩]

(الشكل ٣) متوسط الأمطار السنوي بدمشق بين عامي ١٩١٨ - ١٩٦٢.

(مصدر الشكل د. صفوح خير مدينة دمشق)



ويتراوح المعدل السنوي للرطوبة في مدينة دمشق بين ٥٠ - ٦٠ %. ويتركز حدوث الضباب في شهري كانون الأول والثاني بمعدل سنوي ١٦ يوماً وسطياً.

الحرارة: يبلغ المتوسط السنوي للحرارة في مدينة دمشق نحو ١٧ درجة مئوية، وأحر الأشهر هو شهر تموز حيث يصل متوسط درجة الحرارة فيه ما يزيد عن ٢٦ درجة مئوية، ويبلغ متوسط الحرارة العظمى لشهر تموز نحو ٣٥،٦ درجة مئوية، أما متوسط الحرارة الدنيا فيبلغ نحو ١٧ درجة مئوية. أما أبرد شهور السنة فهو شهر كانون الثاني حيث يصل متوسط الحرارة فيه إلى نحو ٦،٥ درجة مئوية، ويصل متوسط درجة حرارته العظمى نحو١٢،٢ درجة مئوية، في حين يصل متوسط درجة حرارته الصغرى ٢،٦ درجة مئوية. [١٠] وسجلت أدنى درجة حرارة في دمشق خلال النصف الثاني من القرن العشرين حيث بلغت ٦،٥ درجة مئوية تحت الصفر عام ١٩٧٥ في حين وصلت أعلى درجة في دمشق إلى نحو ٤٥،٨ درجة مئوية بتاريخ ٣١ تموز عام ٢٠٠٠ م.

وتتميز دمشق بشمسها الساطعة وخاصةً في الصيف حيث يصل عدد ساعات السطوع إلى ١٣ ساعة في شهر تموز وينخفض إلى نحو خمس ساعات في شهر كانون الثاني. ويصل عدد ساعات السطوع السنوي إلى٣٥٠٠ ساعة، بمعدل ٩،٦ ساعة سطوع في اليوم وسطياً.

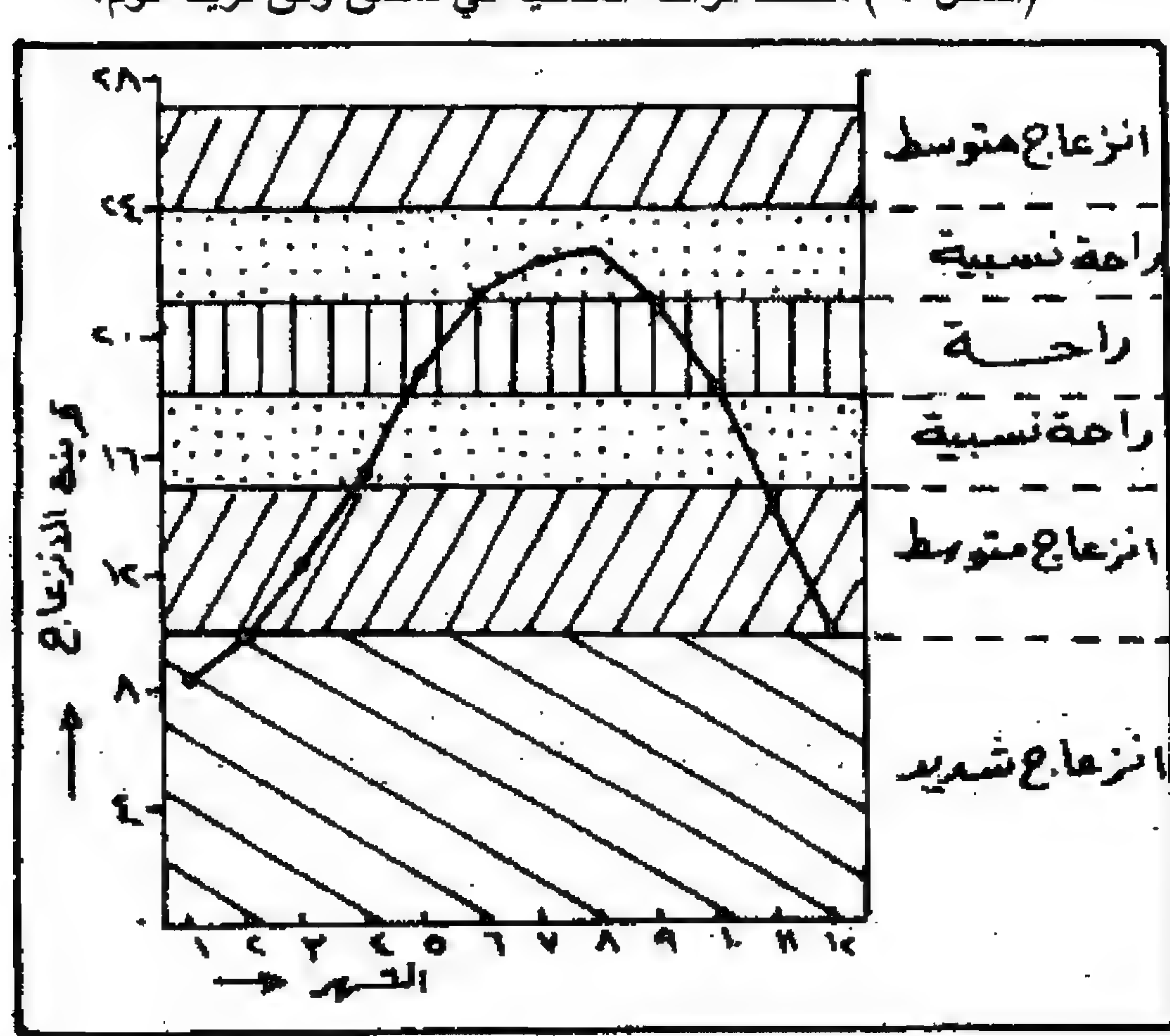
ويحدث الصقيع في مدينة دمشق بين شهري تشرين الثاني وبداية شهر آذار ويتراوح عدد أيام الصقيع السنوي وسطياً بين ٢٥ – ٣٠ يوماً. [١١]

وتتراوح سرعة الرياح بمعدل سنوي (١٢ – ١٤ كم) وتكون سرعتها في فصل الصيف أكثر من سرعتها في فصل الشتاء. وتهب على مدينة دمشق رياح الخماسين في فصلي الربيع والخريف ولكن عدد مرات هبوبها قليلاً.

وتتكشف أهمية مناخ دمشق حيوياً من خلال استخدام (قرينة توم Thom وقرينة تيرجنج Tergung) إذ تبين قرينة توم أن مناخ مدينة دمشق مريحاً من بداية الشهر

الرابع وحتى منتصف الشهر الحادي عشر من السنة، وغير مريح بـــدرجات مختلفـــة بقية أشهر السنة (الشكل٤).

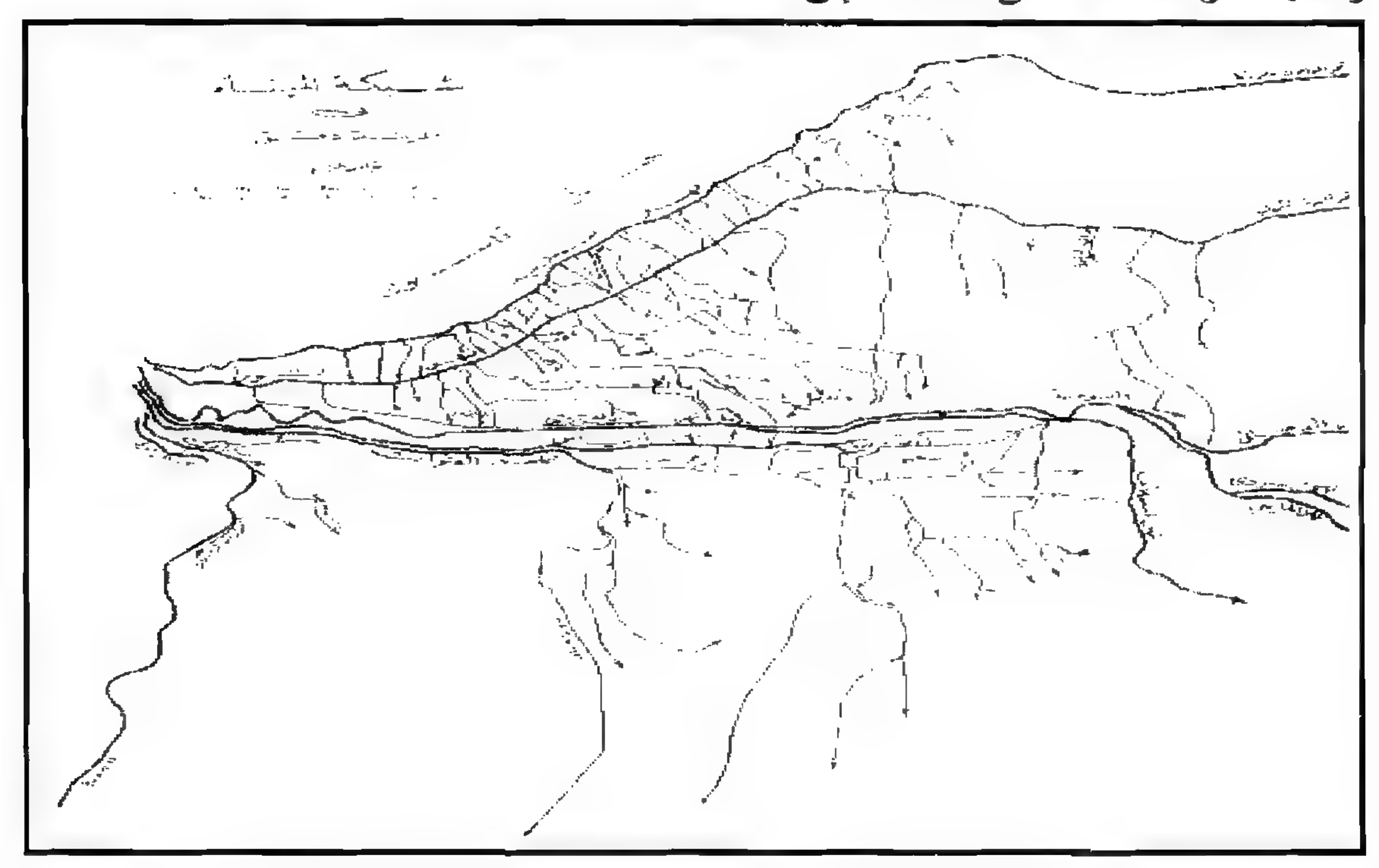
(الشكل ٤) مخطط الراحة المناخية في دمشق وفق قرينة توم.[١٢]



- المياه:

لا يمكن لأي تجمع بشري كبير أن يبقى ويستمر فترة طويلة من الـــزمن دون تـــوفر موارد المياه التي تعد أساس الحياة بمختلف أشكالها. لقد ارتبطت دمـــشق وغوطتهـــا بنهر بردى فدمشق وغوطتها هبة نهر بردى وهو مانح الحياة والتطور والبقاء لهمـــا. وخاصة أن الأمطار في حوضة دمشق غير كافية للزراعة. وشكل نهر بردى مركـــز جذب واستقرار للسكان بعد أن استطاع أهل سكان مدينة دمشق من اســـتثمار مياهـــه

أفضل استغلال لري الأراضي الزراعية وإيصال المياه إلى المنازل عبر شبكة متقنة من الأقنية (الشكل ٥) وقد كانت المياه وفيرة في مدينة دمشق مقارنة مع عدد سكانها وحتى وقت ليس ببعيد من الآن. وأثناء زيارة ابن بطوطة لدمشق وصف وفرة الماء فيها حيث قال: "وظل ظليل وماء سلسبيل، تنساب مذائبه انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياض يحيى النفوس نسيمها العليل " وقال أيضاً دالاً على كثرة الماء " وقد سئمت أرضها كثرة الماء، حتى اشتاقت إلى الظمأ ".[١٣]



(الشكل٥) شبكة المياه في مدينة دمشق.(عن أمانة العاصمة)

وورد في معجم البلدان لياقوت الحموي " من خصائص دمشق التي لم أر في بلدة مثلها كثرة الأنهار وجريان الماء في قنواتها، فقل أن تمر بحائط، إلا والماء يخرج من أنبوب إلى حوض يشرب ويستقي منه الوارد والصادر، ولا رأيت مسجداً ولا مدرسة ولا خاناً إلا والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان.[١٤]

ويبنع نهر بردى من حفرة الزبداني على ارتفاع ١١١٥ م عند أقدام جبل الشير منصور من نبع بردى الكارستي.ويبلغ طوله نحو ٧١ كم من منبعه وحتى مصبه في

بحيرة العتيبة التي جفت حالياً. وتبلغ غزارته وسطياً (١١ م٣ / ثا) ويصل معدل تصريفه السنوي إلى نحو ٤٠٠ مليون م٣ سنوياً. ويغذي النهر مجموعة من الأودية السيلية في الشتاء إضافة إلى مجموعة من الينابيع أهمها نبع عين الفيجة الذي تبلغ غزارته وسطياً (٩ م٣ /ثا أي نحو ٢٥٠ مليون م٣ / السنة). وبقي نبع الفيجة يكفي دمشق لمياه الشرب طيلة الفترة الماضية إلى أن ظهر العجز عام ١٩٨٠ م. وتميزت دمشق بأنها أول مدينة في العالم مددت المياه إلى منازلها منذ خمسة آلاف سنة مضت تقريباً. [١٥]

وهناك نهر آخر هو نهر الأعوج الذي يصب في بحيرة الهيجانة التي جفت حالياً.[١٦] وينبع من كتلة جبل الشيخ في حوض عرنة عند ارتفاع ١٣٠٠ – ١٤٠٠ م ويبلغ طوله نحو ٦٦ كم. ويبلغ متوسط غزارته السنوية (٢،٥ م٣ /ثا) وتغذيته مطرية ثلجية كما هو الحال في نهر بردى.[٣]

ومن الموارد المائية الأخرى هي المياه الجوفية، والفجارات التي كانت تنتشر سابقاً والتي جفت بسبب انخفاض منسوب المياه الجوفية. وفي المنطقة التي تقع فيها مدينة دمشق توجد أغنى طبقة مائية في حوض دمشق حيث يزيد سمك الطبقة الحاملة للماء على ١٧٥ متراً. وقديما كانت تحفر الآبار باليد لقرب مستوى المياه من سطح الأرض، وتراوحت أعماق الآبار بين (١٠ – ٢٠ متراً).[١٧]

ثانياً: العوامل البشرية والاقتصادية التي ساهمت في استمرار مدينة دمشق:

١ – طبيعة سكان مدينة دمشق:

اكتسب سكان مدينة دمشق خبرات متراكمة منذ القدم في مختلف مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وقد وصف الفارس دارفيو سكان دمشق في القرن السابع عشر الميلادي بأنهم " يتمتعون بصفاء الذهن، كما يتصفون بالرقة والظرافة والدهاء، وتجدهم يتصرفون بتهذيب مع من يحسن معاملتهم. إنك تجد مظهراً

معيناً من العظمة إلى جانب الحرية في هذه المدينة مما لا يشاهد عـادةً فـي المـدن الأخرى ".[١٨]

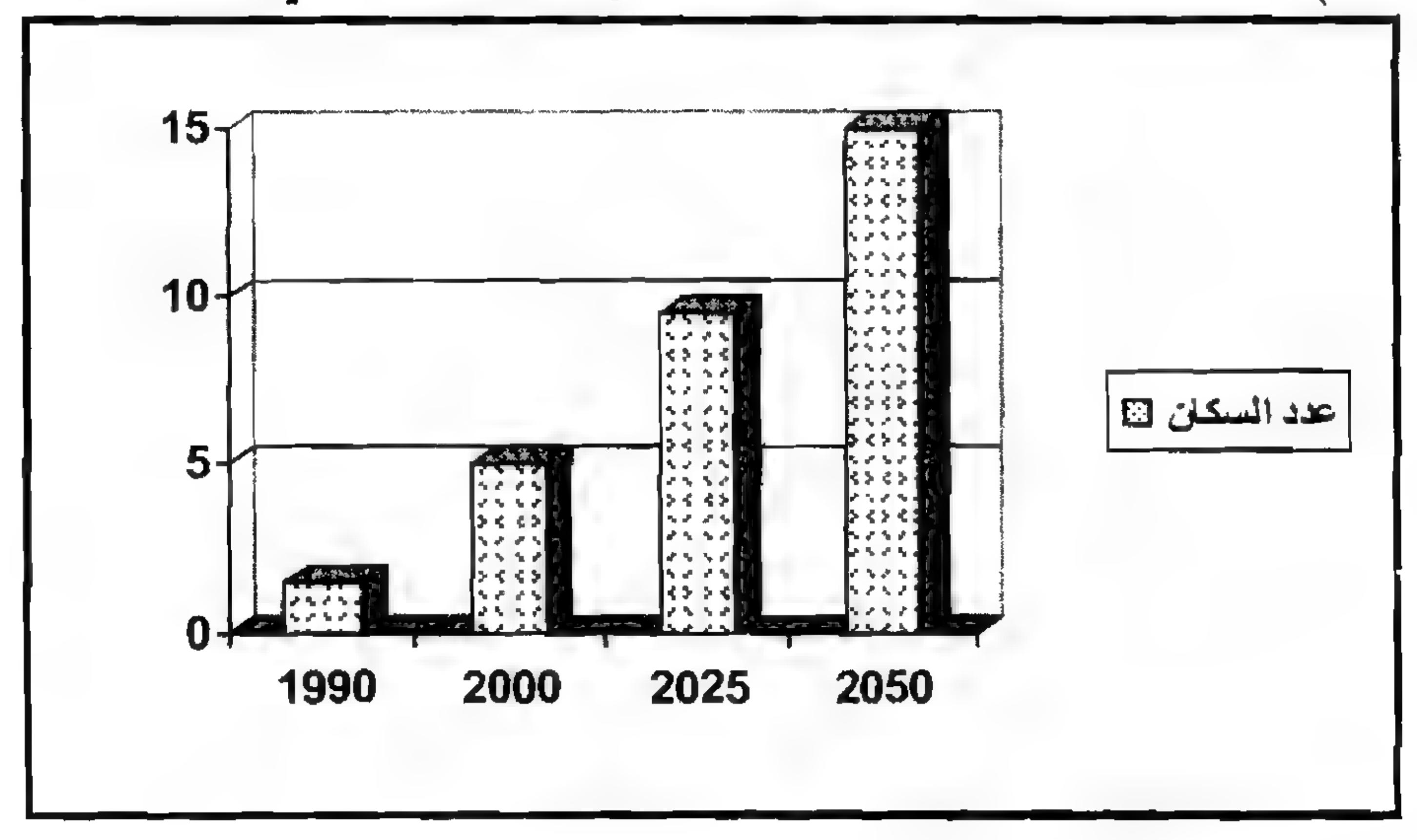
ومن الصعوبة بمكان معرفة عدد سكان مدينة دمشق بدقة في الماضي وذلـك لعـدم وجود تعدادات سكانية دقيقة، فكل الأرقام القديمة كانت تقديرية، حيث قـدرت قـوات الحملة الفرنسية عام ١٧٩٩ عدد سكان دمشق بنحو ٩٠ ألفاً. وفي عام ١٨٦٠ وصـل إلى نحو ١٦٠ ألفاً. (الجدول) و (الشكل ٦).

(الجدول ١) تطور عدد سكان دمشق بين عامي ١٨٦٠ – ٢٠٥٠ م.[١٩]

السنة	١٨٦٠	١٩٦٠	١٩٧٠	١٩٨١	١٩٩٠	١٩٩٣	٢٠٠٠	٢٠٢٥	٢٠٥٠
	١٦٠ألف	٥٣٠ألف	٨٣٧ألف	١،١١٢م	١،٣٧٩م	٤م	٥،٠٠٨م	٩،٥٠٨م	١٥،٠٢٥م

تم تقدير عدد سكان مدينة دمشق لعامي ٢٠٢٥ – ٢٠٥٠ اعتماداً على عـدد سـكان مدينة دمشق عام ١٩٩٣ كأساس في الحساب حسب تقديرات د. قاسم الربداوي ويدخل سكان المخالفات السكنية في هذا التقدير.

(الـشكل ٦) عـدد سـكان مدينـة دمـشق بـين عـامي ١٩٩٠ – ٢٠٥٠ م.



(الشكل البياني من إعداد الباحث)

٢ – غوطة دمشق والزراعة فيها:

إذا استثنينا نهر بردى كأحد العوامل التي ساهمت بقيام مدينة دمشق واستمرارها حتى الآن فإن الغوطة تحتل العامل الثاني من حيث الأهمية، فلولا الغوطة ما كانت دمشق جنة الله في الأرض، ولولا دمشق ما كانت الغوطة إلا بادية.

وقد وصفت الغوطة ببستان الله في أرضه. وقال أبو بكر الخوارزمي برحلته " إن جنان الأرض أربع صغد سمرقند، ونهر الأبلة، وشعب بوان، وغوطة دمشق "[٢٠]

وقد زارها كلها فكان في رأيه فضل غوطة دمشق على الثلاث كفضل الأربع على غيرهن. وزار الشيخ عبد الولي الحضرمي هذه الجنان الأربع وقال: "دخلت إلى دمشق وتنزهت في غوطتها، أجدها أحسن من الثلاث وأكثرها خيراً وأكبرها مساحةً".[٢١]

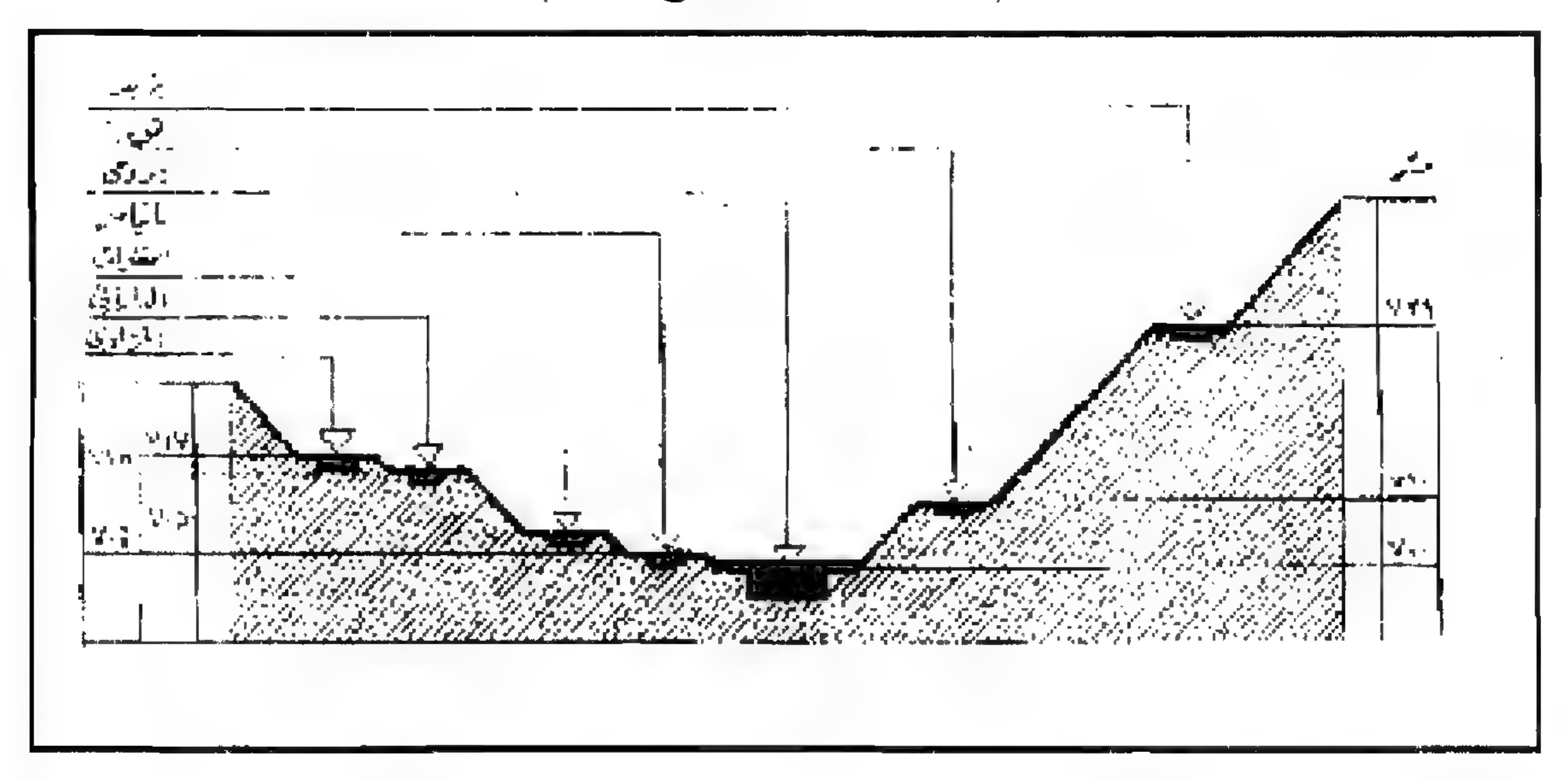
وقد تغنى بغوطة دمشق عدد كبير من الشعراء لا مجال لذكرهم هنا لكثرتهم وكثرة أشعارهم.

وتشمل الغوطة المناطق المحيطة بدمشق والمروية من نهري بردى والأعوج. وتم تقسيم نهر بردى إلى ستة فروع إضافة إلى مجرى نهر بردى الرئيسي وكل هذه الفروع أعلى من مجرى نهر بردى الرئيسي مما ساعد على إرواء أكبر مساحة ممكنة (الشكل ٧). وهذه الفروع هي يزيد وتورا ويقعان إلى الشمال من النهر وأربعة فروع جنوب النهر هي بانياس والقنوات والداراني والمزاوي. (الشكل ٨). كما تم توزيع المياه إلى الأراضي الزراعية ضمن شبكة كثيفة من الأقنية

(الشكل ٩).

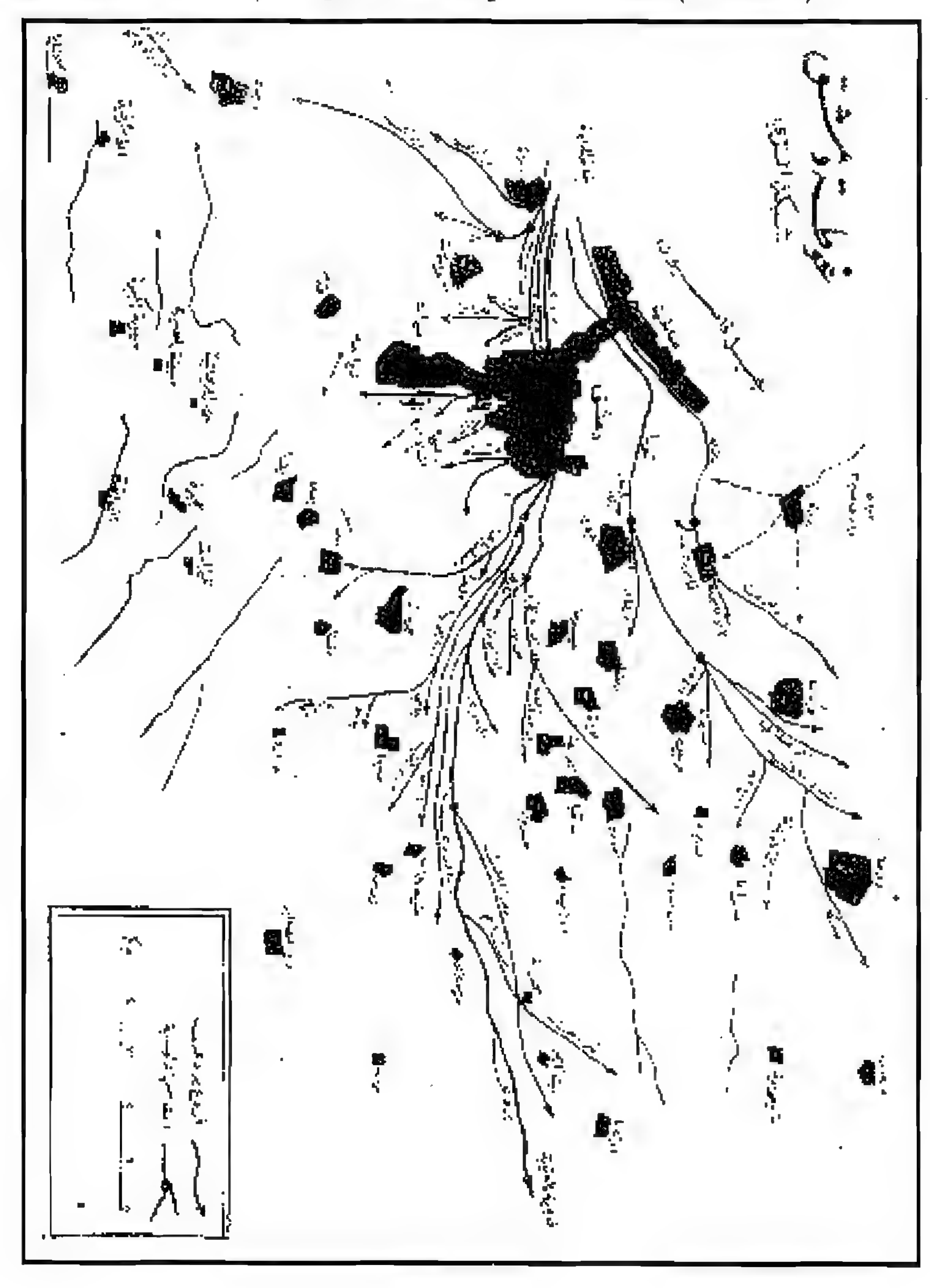
الشكل (٧) مقطع عرضي في وادي بردى عند الربوة يبين ارتفاعات القنوات فوق مجرى نهر بردى الرئيس.

(الشكل عن صفوح خير)



(الشكل ٨) يبن منشأ الفروع الرئيسية لنهر بردي قبل مدينة دمشق.

(الشكل ٩) يبين شبكة الري بغوطة دمشق وأهم المراكز السكنية فيها.



وتتميز غوطة دمشق بتربتها الخصبة، وهناك اختلاف بين تربتها وتربة المرج، فتربة الغوطة تتكون من رواسب نهرية وسيلية، أما أساس تربة المرج طين بحيري وجيري، كما تتميز تربة الغوطة بارتفاع سماكة الطبقة الدبالية فيها أكثر من تربة المرج.[٢٢]

واستطاعت غوطة دمشق أن تزود مدينة دمشق بما تحتاجه من المنتجات الزراعية المختلفة التي تعد بالعشرات منذ نشوئها حتى الآن مما ساعد في استمرارها طيلة هذه الفترة ووفرت صعوبة وتكاليف النقل من أماكن بعيدة حتى وقت ليس ببعيد.

واكتسب الفلاح في غوطة دمشق خبرة زراعية عريقة، واتبع أسلوب الزراعة الكثيفة وهذا مكنه من إنتاج عدة محاصيل من الخضار في قطعة الأرض نفسها خلال السنة، وساعده في ذلك خصوبة التربة واستخدام الأسمدة ووفرة مياه الري وعامل المناخ. ويذكر محمد كرد علي في كتابه غوطة دمشق أنه من يملك مساحة من الأرض مقدارها أربعة أفدنة ويعمل بنفسه بالأرض فإنه يعيش سعيد مُرفه. ويقول أيضا: " ولو كان عندهم الحديد والفحم الحجري لما احتاجوا إلى شيء في صناعاتهم وزراعاتهم".[٢٣]

وكانت الغوطة تؤمن لسكانها ولسكان مدينة دمشق الزيت والزيتون والدبس وقمر الدين والعطور والصابون ومنتجات الألبان ومختلف أنواع الخضار والفواكه الطازجة والحبوب والأخشاب لصناعة الأساس وللوقود والبناء والتربة لبناء المساكن.

وأهم المزروعات التي كانت تزرع في غوطة دمشق وتزود المدينة فيها هي الآتي: البندورة والخيار والكوسا والفليفلة والبامية والقرع والقثاء والبازيلاء والفول والحبوب بمختلف أنواعها، إضافة، إلى اليانسون والكمون وحبة البركة. ومن الخضار الورقية النعنع والبقدونس والكزبرة والبقلة والسبانخ والسلق والملفوف والخس والزعتر والكرفس والهندباء والملوخية وغيرها. أما المزروعات التي تزرع لأجل جذورها فهي البطاطا والجزر واللفت والفجل والكرنب والشوندر والثوم والبصل. ومن الثمار

التي كانت تزرع في غوطة دمشق والتي مازال معظمها يزرع حتى الآن يمكن ذكر المشمش والجوز واللوز والكمثرى والتفاح والتوت والخوخ والدراق والصبار والرمان والعنب والتين والزعرور والكرز. ومن المزروعات التي نسيت الزعفران والقطن والتوت لتربية دودة الحرير والبندق والكستنة والقنب والتبغ والتنباك.

ومن موارد الغوطة المهمة أشجار الحور والصفصاف التي كانت تستخدم في بناء المنازل والأساس.[٢٤]

٣ – المكانة التجارية لمدينة دمشق:

لقد استغلت دمشق موقعها الجغرافي لزيادة فعالية الوظيفة التجارية فيها، كما ارتبطت التجارة بأهمية دمشق الصناعية ومكانة الغوطة الزراعية حيث اكتملت حلقة التكامل الصناعي الزراعي من خلال تخزين وتصنيع المنتجات الزراعية وإعدادها للتصدير، إضافة إلى المنتجات الأخرى التي يتم تصنيعها. وعلاقة دمشق التجارية قديمة مع كل الحضارات والشعوب التي جاورتها. فقبل الإسلام كانت رحلة الصيف إلى دمشق من مكة المكرمة. كما كانت التجارة نشيطة مع البدو الموجودين على أطراف دمشق.[٢٥] وكانت تنتقل الأقمشة الدمشقية المشهورة والصناعات النحاسية والمعدنية والأسلحة والمنتجات الزراعية إلى سائر البلاد والأصقاع.

ويذكر أبو بكر عبد الله بن محمد (أبو بقاء البدري) في القرن الخامس عشر الميلادي في كتابة المشهور(بنزهة الأنام ص ٣٦٤ – ٣٦٧) أن عشرة منتجات تبدأ بحرف القاف كانت تحمل من دمشق إلى الديار المصرية هي: قصب ذهب، قبع، قرضية، قرطاس، قوس، قبقاب، قراصيا، قمر الدين من المشمش، قنب،قريشة.[٢٦]

وكانت تنتشر في مدينة دمشق عشرات الأسواق المتخصصة وكل سوق مختص ببيع سلعة معينة حيث يذكر الإمام جمال الدين يوسف بن حسن الهادي المقدسي ثمان وخمسون سوقاً متخصصاً زال معظمها حالياً.[٢٧]

٤ – المكانة الصناعية لمدينة دمشق:

لم يعتمد سكان مدينة دمشق في معيشتهم على الزراعة بل اعتمدوا على النشاط الحرفي والصناعي والتجارة إضافة إلى عملهم في السياسة والثقافة وتوفير الخدمات.[٢٨]

وتمكنت بعض المنتجات الصناعية الدمشقية من غزو أسواق العالم القديم حيث ذاعت شهرتها وجودتها مثل الصناعات النسيجية من الداماس والبروكار، وصناعة الموزاييك ونقش الأواني النحاسية، وصناعة السيوف الدمشقية التي لم يكتشف العالم سرها حتى الآن. كما انتشرت في المدينة صناعة طحن الحبوب ودباغة الجلود والصناعات النسيجية والمعدنية. وتميزت الحرف الصناعية بمدينة دمشق بالتخصص الدقيق، وكان لكل حرفة أخلاقياتها المهنية السائدة.[٢٩]

كما كان لكل حرفة شيخ يشرف على تنظيمها وإنتاجها، ويعمل على منع الإساءة إلى الحرفة والعاملين بها، وكان يعين هؤلاء الشيوخ شيخ المشايخ الذي كان يفصل في الأمور المهمة التي تخص الحرف التي تجاوزت مائتي صنعة.[٣٠]وهذا ما حافظ على جودة وإتقان منتجات هذه الحرف. وكان لمعظم هذه الحرف سوقه المتخصصة حيث كانت تصنع المنتجات وتباع في هذه الأسواق. وكان عدد هذه الأسواق بالعشرات زال معظمها حالياً.وكانت تنتقل هذه الحرف بالوراثة من الآباء إلى الأبناء، وكثيراً ما كان يحل اسم الحرفة مكان الكنية للذين يعملون بها.

٥ – المكانة السياحية لمدينة دمشق:

تميزت مدينة دمشق بوجود الكثير من مقومات الجذب السياحي قديماً وحديثاً، فهي غنية بالمعالم الأثرية والتاريخية والدينية، والصناعات اليدوية التقليدية المتنوعة وأسوقها التجارية العريقة التي تعج بمختلف المنتجات التي ترضي أذواق السياح فأصبحت دمشق قبلة السياح على مدار السنة فزاد عددهم عن مليون سائح سنوياً.

وهذا أدى إلى تنشيط مختلف القطاعات الاقتصادية والخدمية. وأهم الأماكن التي يرتادها السياح هي مدينة دمشق القديمة وسورها وأبوابها وقلعتها وحماماتها وأسواقها التقليدية القديمة والمعالم الدينية مثل الجامع الأموي والسيدة زينب والسيدة رقية وكنيسة مريم وحنانيا وغيرها ومقامات الصحابة وآل البيت الموجودة فيها.

٦ – المكانة الثقافية لمدينة دمشق:

احتلت دمشق منذ القدم مكانة ثقافية وعلمية مرموقة. حيث كانت تنتشر مجالس العلم والفقه في مساجدها وخاصةً في الجامع الأموي، حيث كان يدرس فيها أشهر العلماء والمحدثين، مما ساهم في الحفاظ على التراث العلمي والثقافي. وبقي الجامع الأموي يؤدي دوره العلمي حتى إنشاء جامعة دمشق في الربع الأول من القرن العشرين. واشتهر في دمشق عدد كبير من العلماء بمختلف العلوم منهم ابن عساكر، وابن النفيس، وتاج الدين السبكي وابن كثير وغيرهم.[٣١] كما انتشرت في دمشق المدارس التي تعود لعهود تاريخية عديدة، وما زال بعضها قائماً حتى يومنا هذا ويزيد عمر بعضها عن ٣٠٠ سنة وقد تحول بعضها إلى مساجد، وبقيت المدرسة الظاهرية حتى الآن تؤدي دورها الثقافي بما تحتويه من كتب ومخطوطات قديمة.

٧ – المكانة الدينية لمدينة دمشق:

منذ آلاف السنين لمدينة دمشق مكانتها الدينية عند سكانها فقد أنشأ الآراميون معبداً للإله (حدد) في بداية الألف الأول قبل الميلاد. وبنا الرومان معبداً للإله (جبيتر الدمشقي) الذي يعد من أعظم المعابد في عصرهم. وتحول هذا المعبد إلى كنيسة يوحنا المعمدان في أواخر القرن الرابع الميلادي.[٣٢] وفي العصر الأموي تحولت الكنيسة إلى جامع كبير عرف بجامع بني أمية، حيث وصفه ابن بطوطة قائلاً: " هو أعظم مساجد الدنيا احتفالاً، وأتقنها صناعةً، وأبدعها حسناً وبهجةً وكمالاً، ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه. وكان الذي تولى بناءه وإتقانه الوليد بن عبد الملك بن مروان "ويذكر أن الوليد بن عبد الملك عندما بنا مسجد دمشق الكبير تحدث إلى أهل دمشق بقوله: "

تفخرون على الناس بأربع خصال: تفخرون بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببت أن يكون مسجدكم الخامسة".[٣٣] ويأتي جامع السيدة رقية في المرتبة الثانية من حيث المساحة والأهمية بعد الجامع الأموي في مدينة دمشق القديمة، ويزور مقام السيدة رقية مئات الآلاف من الإيرانيين والعراقيين وغيرهم من الشيعة سنوياً، إضافة إلى مقام السيدة زينب الذي يقع في جنوب مدينة دمشق بمنطقة السيدة زينب.

كما توجد مجموعة من الأضرحة تنسب لآل البيت مثل: ضريح السيدة سكينة بنت الحسين وفاطمة الصغرى بنت الحسين وميمونة بنت الحسين، وزينب الصغرى بنت الإمام علي بن أبي طالب، وعبد الله بن الإمام على زين العابدين في مقبرة الباب الصغير، والسيدة سكينة بنت الإمام علي بن أبي طالب في داريا،ومشهد الحسين في الجامع الأموي، والست رقية شمال الجامع الأموي،ومقامات السيدات أم حبيبة وحفصة وأم سلمة أزواج رسول الله (ص) في مقبرة الباب الصغير. ومقام رؤوس الشهداء الستة عشر الذين استشهدوا في كربلاء ويقع على يمين المدخل الرئيس لمقبرة الباب الصغير وهو يتجه غرباً على جادة أهل البيت وغيرهم.

كما يوجد العديد من القبور تنسب للصحابة مثل: بلال الحبشي ويقع ضريحه في مقبرة الباب الصغير، وهو أول مؤذن في الإسلام ، وأُبي بن كعب مقابل باب شرقي ويبعد ضريحه عن سور مدينة دمشق القديمة عشرات الأمتار، وشرحبيل بن حسنة وخولة بنت الأزور بالقرب من الشيخ أرسلان، والصحابة السبعة في جامع الشهداء (الأقصاب) حجر بن عدي الكندي ورفاقه بشارع الملك فيصل في حي السادات. والصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي في مقبرة المزة القديمة، والصحابي عبد الله بن أم مكتوم مؤذن رسول الله (ص) ويقع ضريحه في مقبرة الباب الصغير، وصحابة جامع الشهداء في الصالحية وغيرهم، ولكن لا توجد دلائل كافية على أنهم توفوا في دمشق كلهم.

ويوجد مجموعة من الكنائس مثل كنيسة مريم وكنيسة حنانيا وتقعان إلى الشمال الشرقي من الجامع الأموي وغيرها. ولكن أعظمها هي كنيسة مريم حيث ذكرها ابن جبير في رحلته فيقول عنها: " كنيسة لها عند الروم شأن عظيم، تعرف بكنيسة مريم، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها ".[٣٤]

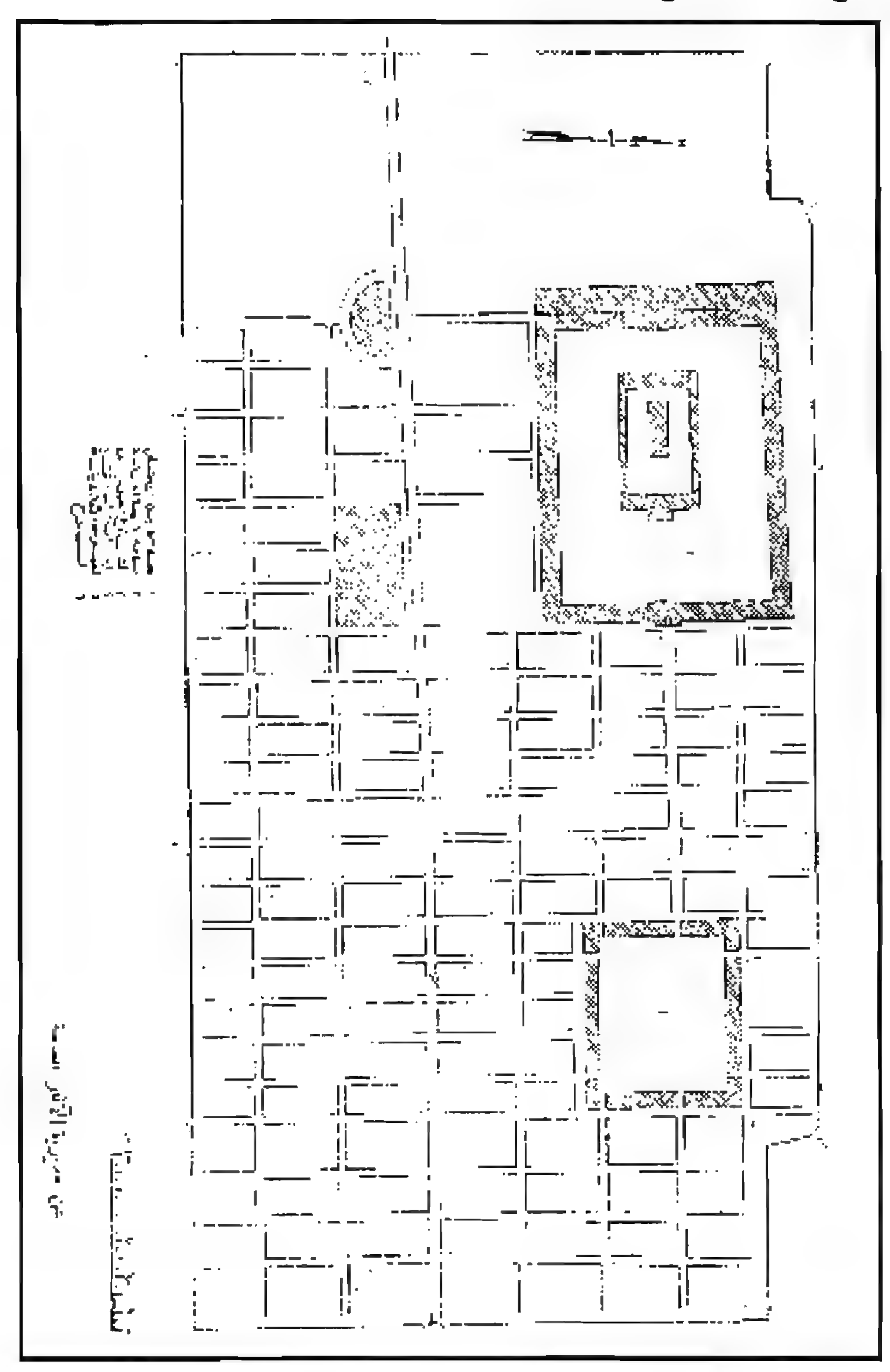
ثالثاً – بعض الأحداث التي ساهمت في ازدهار مدينة دمشق:

١ – اتخاذ الآراميين دمشق عاصمة لهم، حيث أصبحت أعظم مملكة في سورية في القرن الحادي عاشر قبل الميلاد. وقاموا بعدد من المنجزات الحضارية منها شق قناة تورا من نهر بردى التي أدت إلى تطور الزراعة وزيادة المساحة المروية، وبنوا معبد الإله حدد الشهير (إله الصاعقة).[٣٥]

٢ – بعد انضمام دمشق إلى الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور بومبي عام ٦٤ قبل الميلاد. شهدت تطوراً ملحوظاً في العهد الروماني. وأهم الإنجازات التي تحققت هي إنشاء سور المدينة الذي يبلغ طوله ١٥٠٠ متراً وعرضه ٧٥٠ متراً يضم بداخله نحو ١٠٥ هكتاراً. وتم بناء معبد جوبيتر الدمشقي على أنقاض المعبد الآرامي في القرن الثالث الميلادي. وشق قناة مياه جديدة سميت (القنوات) والتي كانت تزود نحو ثلاثة أرباع المدينة القديمة بالمياه حتى وقت قريب. والاهتمام بعمران المدينة وشق الشارع الطويل الذي يمتد من شرقي المدينة حتى غربها بطول ١٥٠٠ مترا (الشكل ١٠). وفي العهد الروماني ذاقت دمشق طعم السلم والاستقرار وتمت السيطرة على هجمات البدو على المدينة. وهذا أدى إلى ازدياد عدد سكانها وتطورها عمرانياً واقتصادياً.

٣ – بعد دخول المسلمين مدينة دمشق عام ٦٣٥ م (١٤ هـ)واتخاذها عاصمة للأمويين ومركزاً للحضارة العربية الإسلامية وصلت دمشق إلى أوج ازدهارها من مختلف النواحي واتساع نفوذها من الصين شرقاً إلى الأطلسي غرباً. وأهم الإنجازات التي تحققت فيها خلال العصر الأموي هي بناء الجامع الأموي الذي

كان يعد أعظم جامع، وشق قناة يزيد من نهر بردى. وازديـــاد عـــدد الـــسكان واتساع المدينة خارج السور.



الشكل (١٠) مخطط مدينة دمشق في العهد الروماني.

٤ – كان للخط الحديدي الحجازي دور كبير في نمو مدينة دمشق خارج السور ونشوء أحياء وخانات جديدة، كما وصل دمشق ببيروت ودرعا بهذا الخط الحديدي مما أدى لنشوء أسواق ومراكز لخدمة المسافرين والحجاج.

٥ – أنشأ الفرنسيون في دمشق العديد من الأحياء والساحات الحديثة والشوارع العريضة واهتموا بشق الطرقات التي تخدم مصالحهم.

٦ – بعد الاستقلال توسعت مدينة دمشق في مختلف الاتجاهات وأنشئت أحياء جديدة.

رابعاً– بعض الأحداث التي ساهمت في تدهور مدينة دمشق:

١ – تدهورت أحوال مدينة دمشق في أعقاب احتلال الأشوريين لها عام ٧٣٢ ق. م. ثم تتالى احتلال دمشق من قبل البابليين ثم الفرس وبعد ذلك فتحها الاسكندر المقدوني عام ٣٣٣ ق. م. والرومان عام ٦٤ ق. م، وقد تخلت مدينة دمشق عن دورها الطليعي إلى مدينة أنطاكية التي تفوقت على مدينة دمشق طيلة العهد اليوناني والروماني.

٢ – بعد سقوط الدولة الأموية على أيدي العباسيين نقلوا مركز الخلافة إلى بغداد وهدموا سورها وقصورها وعملوا على ملاحقة الأمويين وطمس آثارهم وبذلك فقدت دمشق عصرها الذهبي لتتحول إلى مدينة ثانوية. وبعد تمزق الدولة العباسية إلى دويلات حكم الطولونيون والإخشيديون دمشق وكانت أحوالها مشابهة لما كانت عليه في العصر العباسي.

٣ – سيطر الفاطميون على دمشق بعد الإخشيديين لمدة قرن تقريباً بدءاً من عام ٩٩٩م فنالها منهم الإهمال والعنف والاضطهاد وتدهورت أحوالها من مختلف النواحي. وتعرض الجامع الأموي لحريق عام ١٠٦٥ م.

٤ – تعرض دمشق لطاعون قضى على معظم سكانها عام ٤٦٧ هجرية، فكان من أعظم الكوارث التي أصيبت بها.

٥ – دخل المغول دمشق بقيادة هولاكو ونشر فيها الخوف والدمار. ولكن سرعان ما هزمهم المماليك المصريين في معركة عين جالوت، فأصبحت دمشق تحت سيطرة المماليك، وازدهرت في عهد بعض سلاطينهم مثل السلطان الظاهر بيبرس وقلاوون. وفي عهد المماليك تم بناء بعض القصور والجوامع والحمامات. وأصبحت دمشق أعظم مدينة صناعية متخصصة بالمنتجات الشرقية.[٣٦]

٦– دخل المغول دمشق بقيادة هولاكو ونشروا الخوف والدمار في المدينة. ولكن لم يطل عهدهم، حيث هزموا على أيدي المماليك المصريين بسرعة في معركة عين جالوت.

٧ – غزو تيمورلنك لدمشق عام ١٤٠٠ م وتهديمه لعدد كبير من الأبنية ونقل عدد كبير من صناعها المهرة إلى سمرقند.

٨ – وفي فترة الاحتلال العثماني الطويلة لها التي دامت نحو ٤٠٠ سنة بين عامي ١٥١٦ – ١٩١٨ تدهورت أحوالها من مختلف النواحي. وساد الظلم والاضطهاد وفرضت الضرائب القاسية على السكان، حيث كان الجانب المظلم هو السائد بشكل عام.

٩ – تعرض مدينة دمشق للحرائق والزلازل مرات عديدة مما أدى إلى تهديم وخراب جزء كبير من صروحها المعمارية ومنازلها. ويمكن ذكر حريق الجامع الأموي في العهد الفاطمي. كما تعرضت لعدة زلازل منها زلزال حدث في ٦ كانون الأول عام ١٧٠٥ م وأدى إلى هدم وتصدع أبنية كثيرة وموت عدد كبير من السكان في دمشق وريفها.

١٠ – تعرض مدينة دمشق للقصف بالقنابل أثناء الاحتلال الفرنسي لها مما أدى إلى تهديم عدد كبير من منازلها في المدينة القديمة.

١١ – تعرض دمشق للتلوث البيئي للماء والهواء والتربة في غوطة دمشق حالياً.

١٢ – تعرض دمشق للازدحام الشديد لزيادة عدد السيارات وضيق الشوارع. وبحسب تنظيم ايكو شار عام ١٩٦٨ لمدينة دمشق التي درست مخططا تنظيماً لـ ١,٥ مليون نسمة وليس ٥ ـ ٦ ملايين نسمة وهذا العدد السكاني قابلِ للزيادة مما سيساهم في زيادة تلوث البيئة ففي عام ١٩٩٠ كان عدد السيارات /٢٤٤٥٢٥/ ألفا وأصبح في عام ٢٠٠٥ العدد أكثر من مليون مركبة من كل الأشكال أي زيادة بمعدل ٤ ـ ٦ مرات وإن هذا العدد يزداد سنوياً بنسبة ٢٠ ـ ٣٠% دون أن يواكب ذلك إجراءات لمكافحة سلبيات هذه الزيادة ونتائجها المختلفة الضارة. فالسيارة الصغيرة مثلاً تنفث في كل ساعة عمل حوالي ٦٠ متراً مكعباً من غازات العوادم والباص الكبير ينفث ضعف هذا الرقم. ويتم في مدينة دمشق ترسيم ٢٥٠ سيارة جديدة كل يوم وكل سنة مابين ٧٠ ـ ٨٠ ألف سيارة.

١٣ – نمو المخالفات والأحياء السكنية العشوائية التي تحيط بمدينة دمشق والتي تمت بمعظمها على حساب المساحات الخضراء في غوطة دمشق.

١٤ – نقص مياه الشرب منذ عام ١٩٨٠والري وانخفاض منسوب نهر بردى والمياه الجوفية في دمشق وحوض بردى.

النتائج:

أهم النتائج التي توصل إليها البحث الآتي:

١ – أهم العوامل التي ساهمت في نشوء مدينة دمشق هي نهر بردى الذي أمدها بالمياه، طيلة أيام السنة وغوطة دمشق بتربتها الخصبة التي كانت تروى من نهر بردى لأن الأمطار لا تكفي للزراعة البعلية. وكانت تعد الغوطة إحدى جنان الأرض الأربع فوصفت بأنها أحسنها وأكثرها خيراً وأكبرها مساحة . كما كانت الغوطة تمد مدينة دمشق حتى وقت قريب بكميات كبيرة وقائمة طويلة من

الخضار والفواكه والحبوب وبعض المحاصيل الصناعية. إضافة إلى جبل قاسيون الذي اكتسب شهرةً كبيرةً ذات صبغة دينية، وأصبح حالياً رمزاً لمدينة دمشق بشموخها.

٢ – ملاءمة مناخ مدينة دمشق للنشاط البشري والحيوي معظم أيام السنة حيث بينت قرينة توم أن مناخ مدينة دمشق مريح من بداية الشهر الرابع وحتى منتصف الشهر الحادي عشر من السنة، وغير مريح بدرجات مختلفة بقية أشهر السنة.

٣ – إن ملاءمة درجة الحرارة للزراعة (التي يبلغ متوسطها السنوي نحو ١٧درجة منوية) والتربة الخصبة وتوافر مياه الري سمح للفلاح في غوطة دمشق من تكثيف الزراعة وإنتاج عدة أنواع من الخضار والمحاصيل من قطعة الأرض نفسها خلال السنة.

٤ – موقع دمشق المهم الذي جعلها تتحكم بعدد من الطرق التجارية في العالم القديم والوسيط ووقوعها على أطرف بادية مأهولة من خلفها بلاد الرافدين وفارس والهند، ومكة واليمن، كما كانت صلة الوصل بين حضارتي وادي نهر النيل وبلاد الرافدين، والحضارة الإغريقية والرومانية في الشمال. وكانت تشكل واحة ومحطة تجارية للقوافل التي كانت تنقل البضائع إلى مختلف الاتجاهات وكانت مركزاً لتجمع الحجاج للانطلاق إلى مكة، حيث كانوا ينعموا بها.

٥ – جبل قاسيون الذي يعد أحد رموز دمشق الطبيعية والجغرافية، والدينية، حيث أحاطوه بالأماكن المقدسة المنسوبة إلى الأنبياء. حيث سكن الإنسان كهوفه قبل أن يسكن دمشق.

٦ – مكانة دمشق الدينية ساهمت في ازدهار مدينة دمشق فكان فيها معبد الإله حدد ومعبد جوبتر الدمشقي وكنيسة مريم ويوحنا المعمدان والجامع الأموي ومقامات وأضرحة منسوبة إلى مجموعة من الصحابة وأهل البيت. كما احتلت دمشق مكانة تجارية وصناعية وثقافية هامة. وتميزت دمشق بوجود كل مقومات الجذب

السياحي قديماً وحديثاً فهي غنية بالمعالم الأثرية والتاريخية والدينية والصناعات التقليدية المتنوعة وأسواقها التجارية العريقة.

٧ – اكتساب سكان دمشق خبرات عريقة ومتراكمة في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية وهذا مكنهم من الأخذ والعطاء والتفاعل بإيجابية مع الحضارات المجاورة، والتي مرت على مدينة دمشق.

٨ – في الآونة الأخيرة أصبحت تعاني دمشق من مشكلات عديدة مثل نقص المياه والازدحام المروري والتلوث البيئي ومناطق السكن العشوائي والتضخم السكاني والعمراني غير المخطط. وهذا يستدعي المعالجة الشاملة لجملة هذه المشكلات التي تهدد الحياة وتسيء إلى مكانة وعراقة مدينة دمشق.

المقترحات:

من أجل حل المشكلات التي تشكل عبئاً ثقيلاً على مدينة دمشق وتسيء إلى عراقتها وتعرقل تطورها يمكن اقتراح الآتي:

١ – وقف بناء السكن العشوائي فوراً كخطوة أولى ووضع المخططات التنظيمية لجميع مناطق المخالفات السكنية وتنظيمها. وتقديم القروض طويلة الأجل والكافية لبناء مسكن منظم بما يتناسب مع دخل المواطن.

٢ – منع البناء في الأماكن الصالحة للزراعة ووقف التوسع العمراني على حساب غوطة دمشق.

٣ – وضع خطة وطنية شاملة تقوم على أسس التخطيط الإقليمي السليم لمختلف القطاعات الإنتاجية والخدمية لوقف الهجرة إلى مدينة دمشق من الريف والمناطق الريفية فيها لتأمين أكبر قدر من فرص العمل للمواطنين لإيقاف الهجرة إلى مدينة دمشق.

٤ – تنظيم النمو السكاني بما يتناسب مع الموارد المتاحة.

٥ – نشر الوعي لدى المواطنين لوقف هدر المياه في مختلف الاستخدامات المنزلية والزراعية والصناعية. وتنقية مياه الصرف الصحي لإعادة استخدامها في ري الحدائق وأشجار الشوارع وتشجيع استخدام طرق الري الحديثة في الزراعة وتأمين مستلزماتها للجميع بأسعار رمزية أو مجانية.

٦ – منع فتح الآبار في حوض نهر بردى منعاً باتاً إلا برخصة من قبل الجهات المختصة وإغلاق الآبار غير المرخصة وتركيب عدادات على الآبار لضبط كمية المياه التي يتم ضخها وفرض أسعار عالية للمياه في حال استهلاكها عن حد معين.

٧ – تنظيم وتنظيف مجاري نهر بردى ومنع رمي الملوثات فيها لإعادة الحياة إليها.

٨ – العمل على تخفيف الازدحام المروري وتلوث الهواء في مدينة دمشق من خلال إنشاء الأنفاق والجسور وتعريض الشوارع في النقاط الضيقة،والإسراع بإنشاء مترو الأنفاق الذي طال الحديث عنه، والتشدد في تطبيق قوانين السير وتقليل الإشارات المرورية قدر المستطاع.

٩ – تضمين المخططات التنظيمية الجديدة إنشاء كراج للسيارات في كل بناء، وخزان لجمع مياه الأمطار من أسطح المنازل لاستخدامه في ري الحدائق.

١١ – المحافظة على طابع مدينة دمشق القديمة وترميم الأبنية فيها بالمواد التي كانت تستخدم سابقاً مع التشدد في هذا الموضوع.

الهوامش

(١) - رياض شريف الصيداوي، **مدينة دمشق القديمة**، رسالة دكتوراه، دمشق ٢٠٠٥ م، ص ١٧.

(٢) - عادل عبد السلام، **جغرافية سورية العامة**، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٠ م، ص ٩٣- ٩٤.

(٣) - جان سوفاجيه، **دمشق الشام، لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى عهد الانتداب**، ترجمة فؤاد البستاني، دمشق ١٩٨٩، ص ١٧.

(٤) - ماجد اللحام، **دمشق في نصف قرن**، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٠، ص١٧.

(٥) - محمد أحمد دهمان، **في رحاب دمشق**، دار الفكر، ١٩٨٢، ص ١٠ - ١١.

(٦) عبد القادر الريحاوي، **روائع التراث في دمشق**، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٥م، ص ١٣.

(٧) - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، ح١، تحقيق على المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٥، ص١١٦.

(٨) - رياض شريف الصيداوي، **مدينة دمشق القديمة**، رسالة دكتوراه، دمشق ٢٠٠٥ م، ص ٢٢ - ٢٣.

(٩) - علي موسى، **دمشق مصايفها ومتنزهاتها**، دار الثائر، ١٩٩٩ م، ص ٢٤.

(١٠) - رياض شريف الصيداوي، **مرجع سابق** ص ٢٢.

(١١) - علي موسى، **مرجع سابق**، ٢٦.

(١٢) – أحمد الإيبش، وقتيبة الشهابي، **دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين**، ج٢، ص، ٥١٨.

(١٣) – ياقوت الحموي، **معجم البلدان** ج٢، دار صادر بيروت،١٩٧٧ م، ص ٤٦٥.

(١٤) – حسن زكي الصواف، **بردى الفيجة حياة دمشق العامرة**، دار بعل، دمشق، ٢٠٠٧ م، ص ٢٢.

(١٥) – عادل عبد السلام، **جغرافية سورية العامة**، مرجع سابق، ص ١٩١ – ١٩٤.

(١٦) – صفوح خير، **غوطة دمشق**، دراسة في الجغرافية الزراعية، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٦٩، ص ١٣٧.

(١٧) – الفارس دارفيو، **وصف دمشق في القرن السابع عشر**، ترجمة أحمد إيبش، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٢م. ص٦٨ – ٦٩.

(١٨) – قاسم الربداوي، **دمشق، التحولات الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية**، دمشق، ١٩٩٨، ص ٣٥.

(١٩) – صغد سمرقند: هو نهر تحيط به قصور وبساتين في وسط مملكة وراء النهر.

(٢٠) وشعب بوان: هي بقعة مذكورة بنيسابور تلتحفها الأشجار وتجري فيها المياه والأنهار.

(٢١) نهر الأبلة: وهي بقعة قرب البصرة مزروعة بالنخيل.

(٢٢) - أحمد الإيبش، وقتيبة الشهابي، **مرجع سابق**، ج٢، منشورات وزارة الثقافة السورية دمشق، ١٩٩٨، ص ٦٧٦ -٦٧٧.

(٢٣) - صفوح خير، **غوطة دمشق**، دراسة في الجغرافية الزراعية، دمشق، وزارة الثقافة السورية، ١٩٦٩، ص٣٦.

(٢٤) 23 - محمد كرد علي، **غوطة دمشق**، دمشق، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤ م، ص ٢٥.

(٢٥) - محمد كرد علي، **المرجع السابق نفسه**، ص ٨٣ - ٨٤.

(٢٦) - جان سوفاجيه، **دمشق الشام**، لمحة تارخية منذ العصور القديمة، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٢٧) - أحمد الإيبش، قتيبة الشهابي، **مرجع سابق**، ص ٦٧٩.

(٢٨) - جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي المقدسي، **رسائل دمشقية**، تحقيق صلاح محمد الخيمي، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٨، ص٧٣ - ٨١.

(٢٩) - ليندا شيلشر، **دمشق في القرنين الثامن والتاسع عشر**، ترجمة عمر الملاح، ودينا الملاح، دمشق، ١٩٩٨م، ص ١٨.

(٣٠) - يوسف جميل نعيسة، **مجتمع مدينة دمشق** ج١، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٦ م، ص ٢٩٨.

(٣١) - عبد الله حنا، **حركات العامة الدمشقية**، دار ابن خلدون، دمشق، ١٩٨٥ م، ص ٤٠.

(٣٢) - ماجد اللحام، **مرجع سابق**، ص١٧.

(٣٣) - رياض الصيداوي، **مدينة دمشق القديمة**، مرجع سابق، ص ١٣٣.

(٣٤) - ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسـفار**، ج١، تحقيق على المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٥، ص١٠٣.

(٣٥) - ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، دار صادر بيروت ١٩٩٥ م، ص٢٥٥.

(٣٦) - علي موسى، **مرجع سابق**، ص٣٠.

(١٥)- علي موسى، **نفس المرجع** ، ص ٣٤.

المراجع

- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج١، تحقيق على المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٥م.
- ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر بيروت، ١٩٩٥ م.
- أحمد الإيبش، وقتيبة الشهابي، دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين، ج٢، منشورات وزارة الثقافة السورية دمشق، ١٩٩٨م.
- حسن زكي الصواف، بردى الفيجة حياة دمشق العامرة، دار بعل، دمشق،٢٠٠٧ م.
- جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي المقدسي، رسائل دمشقية، تحقيق صلاح محمد الخيمي، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٨م.
- جان سوفاجيه، دمشق الشام، لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى عهد الانتداب، ترجمة فؤاد البستاني، دمشق ١٩٨٩م.
- رياض شريف الصيداوي، مدينة دمشق القديمة، رسالة دكتوراه، دمشق ٢٠٠٥ م.
- صفوح خير مدينة دمشق، دراسة في جغرافية المدن، وزارة الثقافة. دمشق، ١٩٦٩م.
- صفوح خير، غوطة دمشق، دراسة في الجغرافية الزراعية، دمشق، وزارة الثقافة السورية، ١٩٦٩.
- عادل عبد السلام، جغرافية سورية العامة، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٠ م.
- عبد الله حنا، حركات العامة الدمشقية، دار ابن خلدون، دمشق، ١٩٨٥ م.
- علي موسى، دمشق مصايفها ومتنزهاتها، دار الثائر، دمشق،١٩٩٩ م.

- الفارس دارفيو، وصف دمشق في القرن السابع عشر، ترجمة أحمد إيبش، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٢م.

- قاسم الربداوي، دمشق، التحولات الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية، دمشق،١٩٩٨ م.

- ليندا شيلشر، دمشق في القرنين الثامن والتاسع عشر، ترجمة عمر الملاح، ودينا الملاح، دمشق، ١٩٩٨م.

- محمد كرد علي، غوطة دمشق، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤ م.

- ماجد اللحام، دمشق في نصف قرن، دار الفكر، دمشق، م١٩٩٠.

- محمد أحمد دهمان، في رحاب دمشق، دار الفكر، ١٩٨٢م.

- ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٢، دار صادر بيروت،١٩٧٧ م.

- يوسف جميل نعيسة، مجتمع مدينة دمشق ج١، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٦ م

Factors of standing up and continuation of Damascus

Dr. Saleh Wahbi

Damascus University
Faculty of Letters – Geography Department

Research brief

Damascus is the oldest capital in the history, it stands alive since its foundation up till now .The research shows the human and natural factors which assisted in standing up of Damascus and contributed in its existence since thousands of years up till now , and the historical events that affected its existence negatively and positively as well as to specify the factors which threat the environmental, economic and human balance in Damascus . Some results were concluded in addition series of recommendations were made to solve the problems that underwent Damascus at present .

دمشق من الفتح العربي الإسلامي حتى عهد معاوية ١٤-٦٠هـ / ٦٣٦-٦٧٩م

الأستاذة الدكتورة شكران خربوطلي
قسم التاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة دمشق

دمشق من الفتح العربي الإسلامي حتى عهد معاوية ١٤-٦٠هـ / ٦٣٦-٦٧٩م

الأستاذة الدكتورة شكران خربوطلي

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق

توطئة:

تأتي أهمية البحث من كونه يتناول حقبة مفصلية من تاريخ الدولة العربية الإسلامية في بلاد الشام عامة،ودمشق خاصة، والتي بدأت من سنة ١٤هـ / ٦٣٦م وامتدت حتى عهد معاوية ٦٠هـ / ٦٧٩م.

فمع فتح العرب لبلاد الشام أصبحت دمشق قصبة لجند من أهم الأجناد التي انقسمت إليها الشام.

أما المدن التي تبعت جند دمشق فقد كانت عرقة، وجبيل، وصيدا، وبيروت وطرابلس، وقد بقيت هذه المدن الساحلية تابعة لمن يتولى جند دمشق حتى سيطرة الفاطميين سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨م.

هذا البحث محاولة لدراسة دمشق بأوضاعها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية، منذ الفتح العربي الإسلامي حتى عصر معاوية

وقد دفعني إلى اختياره إهمال المؤرخين لدراسة أوضاع دمشق في هذه المدة الزمنية، حيث أدى الفتح إلى تغيير شامل في النظام الكليّ لشؤون الحياة، فالفتح العربي

الإسلامي جاء بقيم جديدة، وبعقلية مختلفة، وبتصور ثقافي مغايرٍ كثيراً لما كان عليه الحال أيام البيزنطيين.

وكان وراء اختيار البحث أسباب عدة من أهمها:

- أهمية دمشق بالنسبة لبلاد الشام واشتراكها في الأحداث التي وقعت في هذه الحقبة من تاريخ المنطقة كونها الحلقة الواصلة بين شمال بلاد الشام حيث البيزنطيون الذين كانوا يسيطرون على المنطقة، وبين جنوب بلاد الشام القريب من الحجاز مهد الإسلام.
- اهتمام الخلفاء والولاة في الدولة العربية الإسلامية بدمشق، فقد عدوها القاعدة الأساسية لنشر الإسلام في الشمال، ولمقارعة البيزنطيين في كل المناطق التي احتلوها.
- التعرف على الأسباب التي سهلت على الفاتحين دخول دمشق والانتصار على الدولة البيزنطية، وكيف تم ذلك، وأسباب النجاحات التي حققها الفاتحون وموقف أهل الذمة من الفتوحات، وإبراز دور التسامح الديني في كسب تأييد السكان ونشر الإسلام.
- رصد طبيعة العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين، وإبراز دور المؤسسات الدينية كالمسجد، وكذلك التعليمية كالكتاتيب في دمشق في التآلف والتعايش.
- إبراز دور معاوية بن أبي سفيان وتآلفه مع قبيلة كلب، وقدرته على إضعاف خصومه، والتفريق بينهم، والتغيير الشامل الذي أحدثه في شؤون الحياة.

وقد اشتهرت دمشق بحضاراتها المتنوعة، وموقعها الاستراتيجي، فوصفها المؤرخون والرحالة بأنها جنة الله على الأرض، وقبلة الباحثين، وكما هو معروف تعد أقدم

عاصمة مأهولة حتى الآن سكنها الآراميون والفرس الأخمينيون، والإغريق ثم الرومان، والبيزنطيون.

وعبر القرون التالية برزت خصوصيتها السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، وشهدت توسعاً ضمن الدولة العربية الإسلامية الأمر الذي استوجب أن تتجاوز حدود سور المدينة الذي يرجع إلى العصر الآرامي في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، حيث دعت الضرورة لبنائه لصد الهجمات الآشورية المتكررة عليها "١". وقد تعرض السور إلى أعمال صيانة، ونشأت ضواحي جديدة خارجه وسط البساتين المنتشرة حوله.

وللمدينة أبواب عدة أكد ابن جبير أنها ثمانية أبواب فيها منارة، وربما قصد بذلك الأبراج التي في الأبواب"٢". كباب توما، وباب الفراديس، وباب جنيق، وباب كيسان، وباب الصغير، وباب السلامة، وباب الفرج، وباب النصر. وقد كان لهذه الأبواب أهمية كبيرة عند السكان لعلاقتها ببعض التقاليد، والمناسبات كالأعياد مثلاً وغيرها.

ولقد صممت واجهات هذه الأبواب بشكل هندسي، وعلمي تدل على مستوى رقي العمارة، وفن البناء، كما دعم السور بخندق لأغراض تعبوية حيث كان يسهم بحماية المدينة، ويدفع مخاطر الأعداء لأنه كان مغموراً بالمياه، وهو يدور حول السور.

واعتمدت المدينة بمياهها على نهر بردى الذي ينبع من مرتفعات الزبداني في جبل لبنان الشرقي، ثم يتجه شرقاً ليسقي قسماً كبيراً من الأراضي، ويروي بساتينها، ودورها ثم يتفرع بعدها إلى فروع عدة تمر بدمشق"٣".

وقد أسهم في زيادة جمالية المدينة من خلال الغوطة المشهورة والتي تشتمل على خمسة آلاف وثلاثمائة بستان وخمسمئة وخمسين كرماً "٤".

وقد امتدت هذه الأراضي من جبال لبنان إلى إقليم قليل المطر، ولوقوعها على الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب مخترقاً الأراضي الداخلية.

وتقع المدينة على حافة الصحراء العربية الشمالية، ويشغل الحاجز المزدوج، وجبال لبنان الشرقية دوره في حمايتها من ناحية الشمال، ومن أشهر هذه المرتفعات جبل حرمون، وجبل قاسيون، ومن الجنوب يحميها الجبل الأسود، وجبل المانع، ولكنها مكشوفة من الشرق،ومناخها ملائم للصحة، لذا احتلت مكانة مهمة اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، وثقافية، وعمرانية.

والمفيد ذكره وقبل الحديث عن الفتح الإسلامي وضع بعض الملاحظات وفي مقدمتها العلاقة بين شبه الجزيرة العربية، وأهل الشام، سواء سكان البادية منهم، أو سكان المدن، وكان هناك تفاعل دائم شمل كافة النواحي، وهكذا احتفظت بلاد الشام – منذ ألف سنة ونيف –على الرغم من الحكم الأجنبي الفارسي ثم الإغريقي، والروماني، والبيزنطي – بشخصيتها العربية المتميزة ثقافياً، واجتماعياً، ودينياً، وعرفت الأرض الشامية صراعات عسكرية شبه دائمة بين قوى الإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الفارسية، وحاولت الأطراف المتنازعة زج شبه جزيرة العرب في هذه الصراعات،ولاشك أن عرب شبه الجزيرة استفادوا من التقنيات العسكرية التي عرفتها الصراعات، و لاسيما في أواخر العصر البيزنطي، أو بكلمة أوضح، خلال الصراع الساساني البيزنطي.

وكانت الإمبراطورية الساسانية قد سيطرت على اليمن، ورعت إنشاء دويلة عربية مستقلة في الحيرة، وبالمقابل رعت بيزنطة إقامة دويلة عربية في حوران هي إمارة الغساسنة، وعمل كل من الغساسنة والمناذرة على ضبط القبائل القادمة من شبه الجزيرة العربية، كما أسهمتا في الصراع الساساني البيزنطي إما بالوساطة أو بشكل مباشر، وبذلك توفرت لدى عرب شبه الجزيرة العربية مختلف أنواع الأسلحة الفردية، وأحياناً الجماعية، وتسلح عرب شبه الجزيرة بشكل رئيس بالسيوف، والحراب، وأحياناً بالرماح، كما تسلحوا بالقسي، وعرفوا الدروع والسوابغ والترسة، واستخدموا الخيول، لكن اعتمدوا على الجمال أكثر، وغالباً ما أمتطوا الخيول مجردة، ويرجح

أنهم لم يعرفوا "الركابات" حتى العصر الأموي، ولعل أهم الانجازات قبيل ظهور الإسلام تمثل في استخدام القتب الخشبي (الأكاف) لدى امتطاء الجمال، وعرفوا نوعاً من (الركابات) وكانت القتب في شبه الجزيرة العربية بدون إطار خشبي، وكان واحدها يوضع خلف السنام، وهكذا كان كافياً للغايات السلمية، ولكن كان بلا فائدة حربية، وما أن امتلكت القبائل المنتجة للجمال القتب الجديدة حتى بات من الصعب السيطرة عليها من قبل الإمبراطوريتين المجاورتين، وكذلك الغساسنة والمناذرة، وفي روايات أخبار أيام العرب قبل الإسلام أحاديث عن مصادمات مع الفرس والروم والغساسنة والمناذرة، ويفيد هذا أن عرب شبه الجزيرة اطلعوا على فنون السوقية التي كانت معروفة آنذاك، وبات العرب بالفعل يستطيعون مواجهة قوات بيزنطة وفارس بكفاءة ومساواة وتفوق أحياناً، وكما ستتضح الأمور في معارك الفتوحات الكبرى.

وكان الرأي المتداول بين الباحثين هو أن أعمال فتوح بلاد الشام قد بدأت بعد فتوح العراق، وهذا صحيح ظاهرياً، لكن الواقع ينقضه، لأن العصر النبوي شهد نشاطات عسكرية واضحة ضد بلاد الشام، ولم يعرف شيئاً من هذا القبيل ضد بلاد العراق وهذا ما سنوضحه لاحقاً.

وقبل ذلك يجب التعرف على الأوضاع العامة في بلاد الشام كالأوضاع الاقتصادية والمالية، فالزراعة والتي هي المعتمد الأكبر للاقتصاد لا في دمشق وحدها بل في بلاد الشام كلها، والإمبراطورية البيزنطية بشكل عام، كان يقع على عاتقها الجزء الأكبر من الضريبة، مثل النفقات العسكرية، والخدمة المدنية، وصيانة نظام النقل، أي أن الفلاح كان يدفع على ملكية صغيرة النسبة نفسها التي يدفعها عضو مجلس الشيوخ على أملاكه الواسعة وعلى أهل الأرياف ضريبة رأس يعفى منها أهل المدن، أضف إلى ذلك تعرض مستأجرو الأرض لمضايقات من السيد وأعوانه، كالتطفيف في المكاييل والموازين وليس من المبالغة في شيء أن يقال أن الفلاحين كانوا مضطهدين بؤساء.

وكان نتيجة هذا العنت والإرهاق أن لجأ الملاك الصغار والمستأجرون، وبخاصة في بلاد الشام إلى ظل حام يحميهم من الجابي، أومن السيد المالك نفسه، وتفسير هذه الحماية أن يدفع أهل القرية رشوة لقائد الولاية لكي يضع جنداً في القرية فإذا جاء الجابي أو السيد أو وكيله لجمع الضرائب أو الأجور دافعوا عن حقوق الأهالي، وعلى الفلاحين أن يضمنوا حياة جيدة للجند لقاء تلك الحماية"٥".

والجدير بالذكر أن التوكيد على أهمية الزراعة لا يعني التقليل من الصناعة و أهمية التجارة والتي هي الحرفة الأساس، وقد ارتبطت السلع التجارية بالزراعة كالقمح والخمور وزيت الزيتون، وبما أن دمشق نقطة استراتيجية هامة لالتقاء الطرق التجارية فقد عملت الإمبراطورية الرومانية على الاهتمام بشبكة المواصلات، ولم يكن العرب بمعزل عن تلك الطرق لأنهم كانوا على اتصال كبير ببلاد الشام تجارياً وكانت معرفتهم بالطرق المؤدية إلى فلسطين ودمشق، وبعض موانئ البحر المتوسط الشامية كغزة وصور واسعة، فأكسبت هذه الصلات تجار مكة معرفة دقيقة بأحوال بلاد الشام قبل الفتح الإسلامي، ولذلك نجد أن أبا بكر حينما وجه قادة الفتح لبلاد الشام وجههم عبر الطرق المعروفة"٦".

أضف لذلك أن دمشق كانت مركزاً لولاية داخلية أطلق عليها اسم فينيقية الثانية، أو فينيقية المقابلة للبنان"٧".

ولعل الحروب التي قامت بين الفرس والبيزنطيين حدّت من الازدهار الاقتصادي. وعندما خرجت الدولة البيزنطية منها كانت في موقف اقتصادي ضعيف وكانت البلاد تتطلب وقتاً طويلاً من السلم لاستعادة عافيتها. فخزانة الدولة أفرغت والكنيسة تلح في تقاضي دينها الذي قدمته لمساعدة هرقل في الحرب والضائقة الاقتصادية تحكم قبضتها على الناس في كل مكان، ذلك أن الدولة لجأت إلى فرض ضرائب جديدة لتدفع للكنيسة دينها، ومن أجل التوفير أرجأ هرقل الإصلاحات الإدارية، ومنع عن شيوخ القبائل أعطياتهم السنوية"٨".

هذه الأوضاع جعلت أحوال الشام أكثر ملاءمة لفتوح العرب فأسباب الظفر موفورة، والسكان مستاؤون، والدين عالمي.

كان هذا في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية البيزنطية ترصد الأحداث التي كانت تجري في شمال شبه جزيرة العرب بسبب الدعوة إلى الإسلام، فحاولت أحياناً بشكل مباشر، أو غير مباشر لاسيما بعد معركة بدر الكبرى التدخل وحشد القوى، وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم بعض سراياه إلى أطراف الشام حتى يستطلع المسلمون استعدادات البيزنطيين وقد أبلغ رسول الله عليه السلام أن جمعاً كبيراً بدومة الجندل يظلمون من مرّ بهم ممن يجلبون الميرة والطعام، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من المسلمين فأخذ نعمهم وشاتهم، ورجع ولم يلق كيداً.

وفي سنة ٦هـ-٦٢٧م ندب الرسول صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فصالح صاحبها على الجزية.

بعدها أرسل الرسول كتباً إلى هرقل والحارث بن أبي شمر الغساني يدعوهما للإسلام وفي السنة ٨هـ-٦٢٩م بعث الرسول سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح من ناحية الشام، وهي وراء وادي القرى بين تبوك وأذرعات، وكان ينزلها قوم من قضاعة، وكذلك استنفر الرسول صلى الله عليه وسلم الناس إلى الشام فكانت غزوة ذات السلاسل، والسلاسل ماء بأرض جذام، والغالب أنهم رجعوا من هذه الغزوة دون جدوى.

وأرسل سرية زيد بن حارثة إلىٰ جذام وراء وادي القرى مما يلي فلسطين من أرض الشام"١١".

ومن هذا المنظور تكتسب غزوات الرسول للشمال تلك الأهمية في مواجهة التحدي الذي فرضته إعادة ترتيب مواقع النفوذ البيزنطي في الأطراف الشمالية.

وقد حدثت هذه المغازي بعد صلح الحديبية، وأسلم في تلك الآونة عدد من شخصيات مكة يتقدمهم خالد بن الوليد""١٢".

هذا النشاط الإسلامي ضد أطراف الشام دفع بالإمبراطور البيزنطي هرقل إلى إصدار الأوامر إلى أخيه ونائبه في الشام تيودور لمعالجة هذا الموضوع، فحشد بعض القوات البيزنطية، واستنفر عرب الروم، وكسب ودّ الزعماء منهم فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بهذه التحركات أراد أن يباغت الحشود البيزنطية مع أحلافها فحشد قوة قاربت الثلاثة آلاف مقاتل ٨هـ / ٦٢٩م وأوكل قيادتها إلى زيد بن حارثة، وقال إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة وقد أصحب النبي صلى الله عليه وسلم الحملة بخالد بن الوليد "١٣".

ولعل الحملة الإسلامية لم تحقق عامل المفاجأة، فلما خرجوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم فجمعوا لهم "١٤"، وقد ذكر ثيوفانس أن قرشياً اسمه قطبة عمل حاجباً، ومترجماً لثيودور، كان في الحجاز وقت إرسال الحملة فحدثه عن سيرها، ولهذا فوجئت حملة المسلمين بالحشود البيزنطية قرب مؤتة – في الأردن حالياً – ونشبت معركة غير متكافئة، استشهد فيها القادة زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وهنا تسلم خالد بن الوليد المسؤولية، وقيادة الجيش ورأى الحيلولة دون هزيمة المسلمين ثم انسحب بهم عائداً إلى المدينة بمن تبقى معه "١٥".

وفي سنة ٩هـ / ٦٣٠م علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد أجلب معه لخم، وجذام، وعاملة، وغسان، وبهراء، وكلب، وسليح، وتنوخ، في طريقهم إلى البلقاء، وكان رده على ذلك تشكيل قوة كافية قادها حتى تبوك، ولم يحدث قتال حيث لما انتهى إلى تبوك أتاه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة –العقبة – فصالحه وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء، وأذرح – في الأردن – فأعطوه الجزية"١٦". وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى دومة الجندل فأسر صاحبها أكيدر بن عبد الملك" ١٧".

وكان آخر جيش جهزه النبي صلى الله عليه وسلم قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى في السنة ١١هـ / ٦٣٢ م بقيادة أسامة بن زيد، وأراد إنفاذه إلى أطراف الشام وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم قبل توجه هذا الجيش"١٨".

من معاينة الوضع يتبين أن هذه الغزوات والسرايا مقدمات لفتح هذا الموضع وأن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل بلاد الشام هدفاً، وأن التوجه إليها قائماً عبر خطة متدرجة تبدأ بالسيطرة على مشارف الشام كلها ثم تتجاوزها حين تسمح الظروف، والمتفحص لأخبار أعمال الفتوحات يشهد مصداق ذلك، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم في كل الأعمال الحربية لم يدخل في مواجهة مباشرة مع الروم البيزنطيين، ولكن كان لذلك أثره الإيجابي فقد جعل مواجهتهم أمراً واقعا لا مفر منه وهو في حيز الاحتمال القوي والقريب، وهو أمر قطعي من صاحب الرسالة إلى أصحابه بأن يكملوا العمل الذي وضع أساسه بنفسه الشريفة، وأثناء ذلك انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى.

وارتدت بعض قبائل العرب، فقاتلهم خليفة رسول الله أبو بكر الصديق، حتى جمع شملهم بالإسلام، وبالوقت نفسه أنفذ بعث أسامة .

وتطرح الفتوحات الإسلامية أمام المؤرخ أسئلة عدة منها:

-لماذا قام العرب في لحظة معينة من التاريخ بسلسلة من الأعمال الحربية ؟

-ولماذا كان النجاح الذي أحرزوه فيها على ذلك النحو من التفرد؟

وفوق ذلك كله تقوم تلك المفارقة بين الوسائل التي استعملت والنتائج التي تمت، والتي كانت مبعث اعجاب للمؤرخين، وكثيراً ما استنزفت كل ما لديهم من اجتهادات ليجدوا التفسيرات الملائمة لذلك.

وإذا كانت الظاهرة في هذه الضخامة فلا نعدم أن نجد إزاءها تطرفاً في التفسيرات، وبخاصة إذا كان المؤرخون يصدرون عن مشارب، وثقافات متباينة متفاوتة بين آخذ بالأسباب الدينية، وآخذ بالأسباب الاقتصادية أو النفسية، أو الدينية أو... الخ.

إن اجتماع كل الأسباب كانت عوامل حفزت على الفتح، وهي في الوقت ذاته ساعدت على النجاح الفذ الذي أحرزه العرب في الفتوحات.

لذا لما أراد أبو بكر الصديق رضي الله عنه تجهيز الجيوش إلى بلاد الشام استدعى كبار الصحابة، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، وكل ذلك في المسجد النبوي الشريف، وعرض عليهم صورة الأوضاع في شبه الجزيرة العربية، والأطراف، وقال: (اعلموا أن الله فضلكم بالإسلام وجعلكم من أمة محمد عليه السلام وزادكم ايماناً ويقيناً، واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عوّل أن يصرف همه إلى الشام الا وأني عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام بأهلهم ومالهم فإن الرسول أنبأني بذلك قبل مؤتة فاستجاب الصحابة لنداء الخليفة، وقالوا له: مرنا بأمرك ووجهنا حيث شئت)"١٩ "، وقد أشير عليه أولاً بإرسال سرايا من الفرسان تغير أولاً على أطراف بلاد الشام حتى تمهد لعمل جماعي أكبر، وفي الوقت نفسه استنفر أهل اليمن ومكة والطائف وجميع العرب بنجد والحجاز للجهاد في بلاد الشام ورغبهم فيه، وفي الغنائم، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع، وأقبلوا ومعهم الذراري، والأموال والنساء، والأطفال، وما كان إلا قليل حتى أشرفت الكتائب، والمواكب " ٢٠ " يتلو بعضهم بعضا قوم في إثر قوم، وقبيلة في إثر قبيلة، فأنزلهم أبو بكر حول المدينة، وجعل كل قبيلة في ناحية معينة منها " ٢١ ".

وبهذا يكون أبو بكر الصديق رضي الله عنه هو الذي نقل ذلك كله من حيز الاحتمال إلى مرحلة الضرورة "٢٢ " وحقق رغبة الرسول صلى الله عليه وسلم في إرسال أسامة إلى الشام ١١هـ/٦٣٢م الذي كان بحق حلقة ربطت بين العمليات الحربية في

عهد النبوة، وبين عمليات القضاء على الردة، بل وأبعد من ذلك كان حلقة ربطت هذا وذاك بما تلا من عمليات استهدفت فتح الشام " ٢٣ ".

وإثر هذا تم اعتماد خطة واضحة لفتح الشام ووقع اختيار الخليفة على ثلاثة من كبار الصحابة لتولي قيادة ثلاثة جيوش، وهم: أبو عبيدة عامر بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان،، فاستدعاهم وقال: (إني باعثكم في هذا الوجه، ومؤمركم على هذا الجند، وأنا مكثف مع كل رجل منكم من الرجال ما قدرت عليه، فإذا قدمتم البلد ولقيتم العدو فاجتمعتم على قتالهم، فأميركم أبو عبيدة ابن الجراح، وإن ابا عبيدة لم يلقاكم وجمعتكم حرب فيزيد بن أبي سفيان الأمير، انطلقوا فتجهزوا)" ٢٤".

وأنه لأمر ملفت للانتباه أن يختار الخليفة لغزو بلاد الشام قادة لثلاثة جيوش، في حين اقتصر العمل على جبهة العراق على قيادة واحدة، وجيش واحد، والمرجح هنا أن الوضع الجغرافي لبلاد الشام هو الذي أملى ذلك، فلبلاد الشام ساحل طويل على البحر الأبيض المتوسط، ومن هذه البلاد يمكن النفاذ إلى مصر وإلى آسية الصغرى، وإلى أعالي الرافدين فأرمينية، وإلى العراق، والأراضي الساسانية.

أضف لذلك أن اختيار ثلاثة جيوش لا يدل فقط على حسن استغلال للوضع الجغرافي لبلاد الشام، بل على وجود خطة لمتابعة الفتوح بعد الشام، فقد توجه فيما بعد جيش شرحبيل من الشام إلى الجزيرة فأرمينية، فشواطئ البحر الأسود، وأوربا الشرقية، وتوجه جيش آخر لفتح مصر، وقام جيش ثالث بالجواز إلى آسيا الصغرى وصولاً إلى القسطنطينية، وكان ذلك في العصر الأموي.

والمفيد ذكره أن معظم القبائل التي سكنت الشام قبل الإسلام كانت من أصل يمانيّ، لهذا قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه بإرسال منشور إلى اليمن استنفر فيه جميع عناصرها القادرة على حمل السلاح وقد جاء الاستنفار دعوة إلى الجهاد، ولا شك أن قيادة المدينة أرادت تحييد القبائل الشامية ثم كسبها، وكانت الاستجابة كبيرة لنداء الاستنفار هذا "٢٥".

من جهة أخرى يمكننا القول أن الأعداد الكبيرة من القبائل اليمنية التي وصلت للمدينة يمكن عدّها أشبه بهجرة بشرية منتظمة لا مثيل لهـا، ويعـود قبـول إدارة المدينـة اصطحاب العائلات أن المدينة لم يكن بإمكانها تزويد الجيوش بالسلاح والعتاد والمؤن، لكن تحرك القبائل بهذا الشكل كان بإمكانه حل هذه المشكلة، فـضلاً عـن الخـدمات العسكرية وسواها، وهذا ما وضح في معركة اليرموك، يضاف إلى هذا أن التحـرك القبلي أرهب الإدارة البيزنطية وأرعبها.

وعندما أزداد حجم القوات التي توجهت نحو بلاد الشام، أدخل الخليفة بعض التعديلات على قيادة الجيوش حيث ألحقها بعمرو بن العاص، فبات أحد القادة الثلاثـة وباتـت وظيفة أبي عبيدة، العمل كضابط ارتباط ومنسق بين الجيوش الثلاثة، وبالوقت نفـسه بينها وبين المدينة، أي أصبح رئيساً لأركان العمليات العسكرية على جبهة الشام "٢٦".

وأوصى القادة في حالة اضطرارهم إلى الانضمام أن تكون القيادة لأمير المنطقة التي فيها التجمع "٢٧".

وكذلك أوصى أبا عبيدة وغيره من القادة بموافاته بتقـارير متواصـلة عـن زحـف الجيوش مع أخبار المعارك، واقتضى الحال أن يحمل التقارير المكتوبة رسـلاً لـديهم الكفاءة، والفهم والمقدرة على تزويد الخليفة بتقـارير شـفوية والإجابـة علـى كـل استيضاح.

وقد تفاوتت الروايات في تقدير عدد الجيوش التي توجهت إلى بلاد الشام والتي قُدِّرت بأربعة وعشرين ألفاً كما اختلفت في تسلسل أعمـال الفـتح وتفاوتـت كثيـراً فـي التفصيلات"٢٨".

ويبدو أن جيش عمرو بن العاص توجه من المدينة سالكاً الطريق المـوازي لـشاطئ البحر نحو فلسطين من جنوبها، بينما سلك الجيشان الآخران طريق المدينـة، تبـوك، معان، فوادي الأردن، وكانت مهمة شرحبيل العمل في منطقة الأردن، ومهمة يزيـد دمشق ومنطقتها "٢٩".

هذا بالوقت الذي كان فيه الإمبراطور البيزنطي هرقل مقيماً في حمص، ويبدو من هذه الإشارة أن تقديره لخطورة الزحف العربي كانت دون المستوى المتوقع. ولعل مرد ذلك أن الأخبار التي وصلته تحدثت عن حركة قبائل مهاجرة، ولم تصف زحف جيوش، وكانت السلطات البيزنطية معتادة على مثل هذه التحركات، وكانت تعتمد على السلطات الغسانية في معالجتها والتي وصفت بأنها كانت كالدرع أو المجن الذي يحمي الإمبراطورية البيزنطية من هجمات الأعداء "٣٠" والذي حدث الآن وعلى غير المتوقع إخفاق الغساسنة، ثم تحرك المشاعر العربية لدى القبائل الشامية كان غير متوقعاً لدى البيزنطيين حيث كان بين عرب الشام من حمى للقربى، فكان ظهور العرب أحب إليهم، وتعاونت عناصر شامية كثيرة مع الفاتحين في الاستطلاع، وفي نقل البريد بين جيوش المسلمين.

لذا شعر هرقل بخطورة الموقف، فأخذ يجيش الجيوش، ويستعد لمنازلة عظمى، وعرف أبو عبيدة بذلك، فكتب إلى أبي بكر يعلمه بخطورة الوضع المستجد قائلاً: " إن عيوني من أنباط الشام نبؤني أن أول أمداد ملك الروم قد وقعوا إليه، وأن أهل مدائن الشام بعثوا إليه يستمدونه، واجتمعت لدى هرقل قوات عملاقة، أوكل قيادتها إلى أخيه تيودور، وقد كلفه بطرد العرب من بلاد الشام "، وبعد تقدير الخليفة للموقف، قال والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد فكتب إليه وكان على جبهة العراق أن سِرْ حتى تأتي جموع المسلمين بالشام "٣١".

وقد استهدف أبو بكر من أمره خالد بن الوليد بالتحرك نحو الشام،مفاجأة القوات البيزنطية، وضربها من الخلف، والأهم من ذلك إنزال ضربات ماحقة بالقبائل الموالية للروم في البادية ومناطق دمشق، وحوران، أضف إلى ذلك أن أبا بكر كان يرى أن فتح الشام أكثر أهمية من فتح العراق.

والمفيد ذكره معرفة طريق سير خالد بن الوليد حيث انطلق من الحيرة لدعم المسلمين في الشام في الوقت الذي ضاق فيه المسلمون من كثرة جيوش الروم البيزنطيين،

واجتاز البادية زاحفاً أولاً على محاذاة الفرات، ثم بعد عبوره له انحدر جنوباً باتجاه تدمر، وجاء هذا التحرك الذي اعتمد على الجمال بالدرجة الأولى بمثابة لإحدى المعجزات التاريخية، والانجازات العملاقة حيث عبر الصحراء وحل مشكلة الماء أثناء عبوره عن طريق ملء بطون الجمال بالماء بعد أن عطشها لمساعدته في التغلب على هذه المشكلة "٣٢" والمستغرب أن هناك الكثير من الباحثين ما زالوا يأخذون بهذه الرواية التي تركزت حول تحديد الطريق الذي ركبه خالد، وحله لمشكلة الماء،والتي لاتصمد أمام المنطق العلمي ، وأهملت ما أنجزه على هذا الطريق، بضرب التجمعات القبلية في البادية للحيلولة بينها، وبين تقديم العون للبيزنطيين، فقد أنزل أول الضربات الموجعة بقبائل تغلب، والنمر ثم أغار على تجمعات قبائل بهراء، وغسان ونسف معسكراتهم، وهكذا حتى وصل إلى تدمر، وعندما مرّ بتدمر تحصنوا منه، فطوقهم، ولكنه وجد الأمر سيطول فتركهم، فما لبثوا أن لحقوا به، وصالحوه، وبعد تدمر اجتاح خالد مناطق البادية ما بين تدمر وريف دمشق وصولاً إلى مرج عذراء، ثم أخذ طريقه نحو الجابية - قرب نوى في حوران - حيث كان أبو عبيدة معسكراً، وبذلك أكمل انزال الضربات بالقبائل، وفاجأ - طبعاً - حامية دمشق وظهر خلف الجيش البيزنطي الذي توجه نحو أجنادين وكان عمرو بن العاص معسكراً هناك، وكان جيش شرحبيل بن حسنة قرب بصرى، هذا والجدير بالذكر أن خالد بن الوليد فتح في طريقه ما اجتاز به من شرق الشام مثل أرك، ودومة الجندل، وقُصم، وتدمر، والقريتين، وحوارين، ومرج راهط، ووجّه أحد رجاله إلى غوطة دمشق فأغار على قرى من قراها، وصار خالد إلى البثنية التي تعرف بثنية العقاب المشرفة على الغوطة، فوقف عليها ساعة ناشراً رايته، وهي راية كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب وأغار على بني غسان في يوم فصحهم، ثم سار خالد حتى انتهى إلى المسلمين بقناة بصرى، ويقال أنه أتى الجابية من حوران، وبها أبو عبيدة في جماعة من المسلمين فالتقيا، ومضيا جميعاً إلى بصرى، ولما فتحت بصرى توجه أبو عبيدة

بن الجراح في جماعة كثيفة، فأتى مآب من أرض البلقاء، وبها جمع للعدو فافتتحها صلحاً، ثم كانت وقعة أجنادين قرب القدس شهدها من الروم البيزنطيين زهاء مائة ألف قتل أكثرهم، وافتتح المسلمون جميع أرض حوران، وغلبوا عليها وقتئذ، وذلك في سنة ١٣هـ / ٦٣٥ م.

أما أهم وقائع العرب في الشام التي انهزم فيها الروم شر هزيمة، ولحق فلّهم بالشمال معركة اليرموك، فهي المعركة الفاصلة التي هان الاستيلاء بعدها على القدس، ودمشق، وما إليها، ثم على حمص، وحماه، وحلب، وما إليها من البلدان، وظهر فيها النبوغ العربي في الحرب بأجلى مظاهره، وتبين أن تلك الأمة الفقيرة بمالها ليست فقيرة بعقل رجالها، وقرأ العرب على الروم يومئذ درساً من مضائهم، وحسن بلائهم وأروهم صورة من تضامنهم، واستماتتهم، وأتوهم بمثل من طيب أخلاقهم وجودة فطرتهم خلافاً لما كان عليه أعداؤهم من الانقسام وتشتت الأهواء والخصام.

ليس هنا مجال الكلام عن اليرموك إنما لما سار خالد بن الوليد مددا للمسلمين في اليرموك شرع بتنفيذ الخطة الجادة للفتح،وكان عمرو بن العاص معسكراً هناك وجيش شرحبيل بن حسنة كان قرب بصرى، تلقى أبو عبيدة، وكان معسكراً قرب نوى في حوران كتاباً من أبي بكر قال فيه: أما بعد فإني وليت خالداً قتال العدو بالشام فلا تخالفه، واسمع له، وأطع أمره فإني لم أبعثه عليك إلا أن تكون عندي خيراً منه، ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك "٣٢ مكرر"، وقد كان الفتح على يديه، وجاءه البريد يومئذ يخبره بموت أبو بكر الصديق وخلافة عمر بن الخطاب.

من هذا المنطلق نفهم أن العرب دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه بعلمٍ وعقلٍ ودراية وشفافية، وإخلاص، مجاهدين في سبيل الله لتحرير بني البشر دون نوازع شريرة من أنانية وسواها لأنهم كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةً، وكان شعارهم (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى. وأن سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى. وأن إلى ربك المنتهى)"٣٣".

المهم لدى اجتماع خالد بأبي عبيدة تدارس معه الأوضــــاع،وأخبره أن شــطراً مــن القوات البيزنطية اتجه نحو بصرى للإيقاع بشرحبيل وقصد الشطر الأعظم أجنــادين، واقترح أبو عبيدة التوجه نحو بصرى القريبة للتفريج عن شرحبيل، فــرفض خالــد، وقرر التوجه إلى أجنادين، وبعث بالوقت نفسه أوامر إلى شــرحبيل بالتوجــه نحــو أجنادين، وكذلك طلب من يزيد بن أبي سفيان ومن عمرو بن العاص القيــام بالعمــل نفسه، ثم وجه تحذيراً إلى شرحبيل بأن يبتعد عن مواجهة العدو الذي شخص إليه.

حدث هذا كله سنة ١٣هـــ / ٦٣٤م، واجتمع المسلمون بأجنادين بتعداد يقارب الثلاثين ألفاً، واحتشدت القوات البيزنطية بتعداد بلغ ضعف جيش المسلمين أو أكثــر، وكانــت هذه أول مواجهة حقيقية، وكبيرة بين العــرب المسلمين، والبيزنطيين، واعتمد خالــد النظام الخماسي: مقدمة، قلب، ساقة، ميمنة، وميسرة، وأضاف جناحين من الفرسان، مع ساقة إضافية من النساء، واحتفظ باحتياطي خاص به من قوات الخيالــة، واتخــذ البيزنطيون تشكيلة الصفوف المتوالية وتفقد خالد قواته، وحرضها على الثبــات، وقــد أمر نساء المسلمين فاحتزمن وقمن وراء الناس، فهن يدعون الله ويستغثنه، وكلما مــرّ بهن رجل من المسلمين رفعن أولادهن إليه وقلن لهم: قاتلوا دون أولادكــم ونــسائكم "٣٤".

ووجه خالد الدعوة إلى الروم بــدخول الإسلام، أو دفع الجزية فرفضوا، ونشب القتال برمايات تمهيدية من الرماة الروم،لكن بعد ذلك تحول القتال إلى اشتباك عام واستغرق ذلك النهار كله دون أن تحسم الحرب لصالح أي من الطرفين ومــع حلــول الظــلام انفصل الجيشان، واستؤنف القتال في اليوم التالي، وكانت جثث القتلى من البيــزنطيين تغطي أرض المعركة ، فذهل البيزنطيون لــذلك، وأراد قائــدهم اســتدراك الموقــف باغتيال خالد، عن طريق دعوته للتفاوض، وكشفت المؤامرة، واحتدم القتال، وعنــدما بلغ التعب ذروته لدى الطرفين زجّ خالد بالاحتياطي الذي كان قد أبقاه لديــه، وكــان تعداده أربعة آلاف فارس، وذعر الروم وتمكنت مجموعــة مــن العــرب الأشــاوس

الوصول إلى مقر القيادة البيزنطية فبطشت بها، ولحقت الهزيمة بالبيزنطيين، وطارد المسلمون الروم إلى مسافات بعيدة، وسقط في المعركة حاكم فلسطين البيزنطي، وفر تيودور عائداً إلى أخيه يحمل العار، والذل، وارتعب هرقل، فغادر حمص إلى أنطاكية، وغدت فلسطين نتيجة هذه المعركة عربية محررة"٣٥".

ونظف المسلمون جل أجزاء فلسطين من العدو، وبات الطريق مفتوحاً نحو دمشق، ومع هذا كله كان لا بد من إكمال عزل هذه المدينة تماماً،ولذلك خاض المسلمون بعد أجنادين عدة معارك أهمها فحل، مرج الصفر، واستولوا على مرج عذراء، وثنية العقاب، وفتحوا البقاع، ومدينة بيروت أيضاً "٣٦".

وكان أول ما عمدوا إليه فتح وادي الأردن، وكانت المدينة الرئيسة فيه مدينة فحل، التي تقع مقابل بيسان إلى الجنوب من جسر المجامع، وتجمع في فحل عدد كبير من القوات البيزنطية، وأثناء ذلك جاءت قبيلة لخم، وجذام، وغسان، وعاملة ووالقين، وقبائل من قضاعة، فدخلوا مع المسلمين، حيث حركتهم صلة النسب للتضامن مع إخوانهم فكثر عددهم، وصاروا معهم في معسكرهم، وأخذ أهل البلد من النصارى، يراسلون المسلمين قائلين: أنتم أحب إلينا يا معشر المسلمين من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى، وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا "٣٧".

وحاول البيزنطيون التغرير بالمسلمين بحصرهم وسط بعض المستنقعات بعد تفجير بعض السدود، ومهاجمة القوات الإسلامية الزاحفة على حين غرة حتى تتراجع، ومن ثم تحصر وسط الأراضي الموحلة، وأخفقت هذه المحاولة ذلك أن المسلمين اعتادوا على الزحف وهم على تعبئة حتى لا يؤخذوا على حين غرة.

ويبدو أن القتال استمر عدة أيام، تمكن المسلمون خلالها من ضرب الحصار على الروم، ومنعوا عنهم وصول النجدات والمؤن، وجرت أثناء ذلك مفاوضات بين الطرفين آلت إلى الإخفاق، وبات على هذا الحكم للسيف، وانتصر المسلمون، وأنزلوا بالبيزنطيين هزيمة ماحقة، وبات الآن بالإمكان الزحف نحو دمشق، هذا ويرجح أن

هذه المعركة وقعت بعد أجنادين مباشرة في سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م، على أن بعض المصادر تؤخر تاريخها إلى ما بعد فتح دمشق أمثال الأزدي في فتوح الشام، والبلاذري في فتوح البلدان، وابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن حبيش في غزواته.

ومنح النصر في فرض العرب السيطرة شبه الكاملة على فلسطين، ووادي الأردن، أي على جل الأجزاء الجنوبية لبلاد الشام، وهي الأجزاء المتصلة مباشرة بشبه جزيرة العرب، وهكذا بات بالامكان جلب الامدادات وحماية ظهر القوات العربية، حتى تتفرغ لبقية مشروع فتح بلاد الشام، وفي الوقت نفسه عزلت مصر عن بلاد الشام، وبات من الصعب وصول نجدات بيزنطية من هناك، أو إرسالها إليها براً، وفي هذا برهان على وجود خطط استراجية واضحة لمتابعة فتح مصر وسواها.

ويبدو أن هذا الوضع وفر للدعوة الإسلامية مناخاً حسناً، وبالوقت نفسه جعل مشاعر المنطقة التي كانت مأخوذة بالنوازع القبلية في مواقفها الأولى من الحركة الإسلامية جعلتها باتجاه التطلعات الإسلامية، وأغراضها، وتركتها وسط تيار الإسلام المتوثب نحو بلاد الشام.

وهكذا لما فكر المسلمون في فتح الشام، انتفعوا برابطة القربى مع القبائل العربية فيها "٣٨"، وعملت رابطة القربى على تعجيل الاستعداد النفسي لعرب الشام في قبول شعارات المسلمين، والمشاركة في طرد البيزنطيين"٣٩"، أضف إلى ذلك أن إيقاظ الفكر لم يكن محصوراً في عرب الشام فحسب، بل نجد غيرهم من أهل الشام يبرز في ظل الظروف المستجدة، يبحث مع المسلمين أمر مواطنتهم بعيداً عن المداخلات البيزنطية، ولعل أقرب ما يعبر عن الحالة التي حركت أهل الشام عرباً وغير عرب في موقفهم من الحركة الإسلامية من جهة، وبيزنطة من جهة أخرى، ما ورد عن خالد بن الوليد أن قال في العراق: ويحكم ! ماأنتم ! أعرب؟ فما تنقمون من العرب؟ أو عجم ! فما تنقمون من الإنصاف والعدل!"٤٠".

ومن المحقق أن العرب المتنصرة في الشام عادوا بعد أن صاروا مع الروم فانضموا إلى العرب المسلمين، وأخذتهم الحمية العربية .... وأصبحوا عيوناً على الروم.

بالعودة إلى مجريات الوضع على الجبهة الشامية نجد زحف العرب مباشرة نحو دمشق حيث كان الطريق الذي يصل دمشق بحمص يمر عبر البقاع إلى بعلبك، وتوجب على العرب السيطرة على البقاع والتوسع وصولاً حتى بيروت، ثغر دمشق، ونحتاج هنا إلى توضيح هام، هو أن السيطرة على البقاع كان هاماً لكن لم يكن حاسماً بالنسبة لتطويق دمشق، فالطريق التي وصلت بين دمشق والبقاع كانت تمر عبر خانق الربوة، وجبل قاسيون، وهذا الطريق لم يكن مفيداً من الناحية العسكرية، وعليه كانت الطريق العسكرية تذهب إلى جنوب دمشق ربما حتى ما بعد مرج الصفر، ثم تنطلق شمالاً، ويظهر مجدداً أهمية معركة مرج الصفر، وقبلها معركة فحل.

وهناك خلاف شديد بين المؤرخين العرب حول تاريخ حصار دمشق، وفتحها، والمرجح أن ذلك كان سنة ١٤هـ / ٦٣٦م أي أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان هذا الخليفة قد قام إثر توليه للسلطة بعزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة لجيوش جبهة الشام، فلماذا عزله؟.

إن عزل خالد مجرد عمل تكتيكي، ولأسباب موضوعية، وبناء على اجتهاد رشيد لمصلحة المسلمين، وليس لأسباب شخصية كما يدعي البعض، حيث ظل سيف الله هو الأول بين أمراء جيوش العرب في بلاد الشام، وصاحب الكلمة النافذة، والرأي الراجح في الحروب"٤١".

وفي أثناء حصار دمشق، بعث أبو عبيدة بعض سراياه باتجاه حمص ليحمي ظهره، لكن ذلك لم يؤثر على أعمال حصار دمشق، وكانت دمشق مدينة محصنة متينة الأسوار تحيط بها البساتين من كل جانب، وكان أهم أبوابها آنذاك في الغرب باب الجابية، وفي الشمال باب شرقي ثم باب توما، وفي الجنوب باب الصغير، ولم تتغير مواقع هذه الأبواب حتى الوقت الحاضر، وهي معروفة بالأسماء نفسها، وكان شكل

دمشق أشبه بالبيضة المدحية، لا يكاد بعدها من الرأس إلى العقب يتجاوز ١٥٠٠ م وبعدها الأقصى في الوسط في حدود ال/١٠٠٠/ م.

وكان سور دمشق مبنياً بالحجارة البيضاء الكبيرة، والقاسية ذات الأشكال المربعة، والأحجام الكبيرة، ووصل ارتفاع السور إلى حدود السبعة أمتار، وسماكته في حدود الخمسة أمتار، وكان لهذا السور عدداً كبيراً من الأبراج الدفاعية، له شرفات، وفتحات لرمي السهام (طلاقات)، والمقذوفات الأخرى، وكان خلف الأسوار خندق عميق مليء بالماء، وطبعاً لم تكن دمشق تملك وقتها قلعة داخلية، وكانت أبواب المدينة متينة، صنعت من الأخشاب السميكة، وغطيت بصفائح من الحديد.

أضف لذلك أنه لم يمتلك العرب آنذاك لا الأسلحة الجماعية، و لا الخبرة باستخدامها، لذلك لم يكن أمامهم سوى مطاولة الحصار حتى تستسلم المدينة، أو يتم تسلق أسوارها، أو يقوم أحد السكان بإدخال عناصر منهم من واحد من الأبواب السرية في السور.

وأحكم العرب الحصار من جميع الجهات، وتمركز كبار القادة عند الأبواب،

حيث ترجح معظم الروايات تمركز أبو عبيدة أمام باب الجابية، وتمركز خالد ابن الوليد على باب شرقي، ومعه قوة كبيرة، ويفيد هذا أنه تمركز هو وأبو عبيدة قبالة بعضهما على طرفي الشارع المستقيم لمدينة دمشق، (سوق مدحت باشا وامتداداته)، وتمركز عمرو بن العاص أمام باب الفراديس، ورابط يزيد بن أبي سفيان أمام الباب الصغير، وترك باب توما لشرحبيل بن حسنة.

واتخذ المسلمون فرقاً احتياطية، تعمل على قطع الطرق عن دمشق، فعسكر أبو الدرداء عند برزة على طريق بعلبك ليتصدى لأي هجوم آت من الشمال، وأقام ذو الكلاع الحميري بين دمشق وحمص عند ثنية العقاب ليقطع الطريق، وعسكر علقمة ابن حكيم، ومسروق العبسي كي يتصديا لأي هجوم يأتي من جهة فلسطين، وجعلت جماعة عند ميسلون للتصدي لأي زحف يأتي من جهة الغرب، وكان ضرار بن الأزور يتولى قيادة حامية متحركة بين الأبواب ليضمن القيام بالنجدة عند الحاجة.

وقد كان لهذا الإحكام في قطع طرق الاتصال عن دمشق أثره في أهل البلد إذ أيأسهم من وصول نجدات رومية إليهم، واشتد الحصار، وطال، وأخفقت محاولات الروم خرق الصفوف العربية، وأخذت المؤن تنقص داخل دمشق، كما شرع سكان أحواز دمشق في تقديم المساعدات، والإرشادات إلى العرب، وبدأت بعض شخصيات دمشق المعروفة آنئذ بالاتصال بالعرب كأسقف المدينة، ومنصور بن سرجون صاحب المال، وعامل دمشق من قبل الروم، وطلبوا من خالد بن الوليد أن يعطي الآمان لأهل دمشق جميعاً، ومقابل ذلك ستفتح أبواب دمشق للعرب، فأجابه خالد بن الوليد إلى ما سأل، وكتب له أماناً هذه نسخته:

(بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، والخلفاء، والمؤمنين، لا يعرض لهم إلا الخير إذا أعطوا الجزية)"٤٢".

وفتح أسقف دمشق على أثر ذلك الباب الشرقي لخالد بن الوليد فدخل دمشق وبصحبته الأسقف ناشراً كتاب الصلح الذي كتبه خالد بن الوليد له.

وبالوقت ذاته كان أبو عبيدة قد عقد اتفاقا مع أهل دمشق هذا نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب لأبي عبيدة بن الجراح ممن أقام بدمشق، وأرضها، وأرض الشام من الأعاجم إنك حين قدمت بلادنا سألناك الأمان على أنفسنا، وأهل ملتنا، وإنا اشترطنا لك أن لا تحدث في مدينة دمشق، ولا فيما حولها كنيسة، ولا ديراً ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا تجدد ما خرب من كنائسنا و لا شيئاً منها مما كان في خطط المسلمين، و لا تمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار، وأن توسع أبوابها للمارة وأبناء السبيل، ولا تؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوسا، ولا تكتم على غش المسلمين، وعلى أن نضرب بنواقيسنا إلا ضرباً خفيفاً في جرف كنائسنا، ولا نظهر الصليب عليها، و لا نرفع أصواتنا في صلاتنا وقراءتنا

في كنائسنا، ولا نخرج صليبنا ولا كتابنا ولا نخرج با عوثاً ولا شعانين، ولا نرفع أصواتنا بموتانا، ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين، ولا نجاورهم بالخنازير ولا نبيع الخمور، و لا نظهر شركاً في نادي المسلمين، ولا نرغب مسلماً في ديننا، ولا ندعو إليه أحداً وعلى أن لا نتخذ شيئاً من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين، ولا نمنع أحداً من قرابتنا إن أرادوا الدخول في الإسلام، وأن نلزم ديننا حيثما كنا ولا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا في مراكبهم، و لا نتكلم بكلامهم ولا نتسمى بأسمائهم، وأن نجز مقادم رؤوسنا ونفرق نواصينا ونشد الزنانير على أوساطنا، وأن لا ننقش في خواتيمنا بالعربية ولا نركب السروج، و لا نتخذ شيئا من السلاح، ولا نجعله في بيوتنا ولا نتقلد السيوف، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم، ونرشدهم للطريق، ونقوم لهم من المجالس إذا أرادوها، و لا نطلع عليهم في منازلهم، ولا نعلم أولادنا القرآن و لا نشارك أحداً من المسلمين إلا أن يكون للمسلم أمر التجارة، وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل من أوسط ما نجد، ونطعمه فيها ثلاثة أيام، وعلينا أن لا نشتم مسلماً، ومن ضرب مسلماً فقد خلع عهده ضمنا ذلك على أنفسنا، وذرارينا، وأرواحنا، ومساكننا، وإن نحن غيرنا أو خالفنا عما اشترطنا لك وقبلنا الأمان عليه فلا ذمة لنا، وقد حل لك منا ما حلّ من أهل المعاندة والشقاق. على ذلك أعطينا الأمان لأنفسنا، وأهل ملتنا فأقرونا في بلادكم التي ورثكم الله إياها، شهد الله على ما شرطنا لكم على أنفسنا وكفى به شهيدا) "٤٣".

والتقى خالد بقواد العرب في دمشق على مقربة من كنيسة المقسلاط "٤٤" وأخبرهم بالصلح الذي كتبه لأهل دمشق فأمروا قواتهم بالكف عن القتال "٤٥"، وكتب أبو عبيدة إلى الخليفة عمر بن الخطاب بهذا الصلح فوافق عليه "٤٦" .

وتعددت الروايات حول كيفية سقوط دمشق للعرب، ويمكن تلخيصها ثم بعد ذلك مناقشتها، وهي كالتالي:

- ولد لبطريق دمشق مولود، أو كان لديهم عيد فانهمك الناس في الطعام، والشراب فانتهز المسلمون هذ ه الفرصة، واستعانوا.
- بأناس من أهل المدينة قدموا إليهم السلالم والحبال فصعدوا الأسوار، وفتحوا الباب قسراً، ولكن فريقاً آخر من الجيش المحاصر.
- استقبل مفاوضين فيهم الأسقف، ومنصور بن سرجون، وطلبوا إلى المسلمين الأمان، وبخاصة حين استيقنوا أن المدينة دخلت عنوة من جانب آخر.

أو أن الروم أخرجوا ميتاً لهم من باب الجابية طامعين في غفلة المسلمين عنهم، فتقاتلوا، ودخلوا المدينة فعلم الأسقف، ومنصور بما حدث في تلك الجهة فذهبوا إلى الجهة الأخرى، وفاوضوا خالداً على التسليم "٤٧".

من دراسة الروايات، فالأولى تعد نموذجاً تقليدياً يلجأ إليه الرواة، أما الثانية، والثالثة، والرابعة، فتعتمد على عنصر تقليدي، وهو عنصر الخيانة، وذلك أمر ليس بمستبعد فإعانة المسلمين بما يمكنهم من ارتقاء الأسوار، والإسراع إلى الصلح من قبل الأسقف، ومنصور بن سرجون قد يسمى خيانة في رأي الروم البيزنطيين، ولكنه قد يسمى إيثار مصلحة السكان فيما يمليه الوضع حينئذ، ولعل الذي حدث أن مباحثات بين سكان دمشق، وأبي عبيدة كانت جارية لفتح باب الجابية له، مع تبادل للشروط، والمساومات، وأن خالداً قد تمكن من جانبه من الدخول من جهته، لكن ليس بدون مقاومة، وتأخر وصول الخبر إلى أبي عبيدة حيث كان على الرسول إذا ما بُعِثَ الالتفاف حول أسوار المدينة حتى يصل إلى باب الجابية، وكان هذا طبعاً، والأسهل منه بكثير، والأسرع وصول الخبر إلى المدافعين، والمفاوضين عند باب الجابية حيث اتصلوا بأبي عبيدة، وأعلموه بقبولهم بتسليم البلد، وفتحوا باب الجابية فدخل، وفوجئ بقوات خالد في وسط الطريق، وعلى هذا فتحت دمشق نصفها عنوة، ونصفها الآخر صلحاً، وباتت الآن بلاد الشام مفتوحة، والتحقت فلول القوات البيزنطية بهرقل وكان في أنطاكية"٤٨" وقد رفض أبو عبيدة تقسيم الأرض بين الفاتحين، وأبقاها بأيدي

أصحابها على أن يؤدوا خراجها "٤٩" لأنهم أعلم باستثمارها، واختط بها مسجداً"٥٠ "،وترك لأهل الذمة خمس عشرة كنيسة يؤدون فيها شعائرهم الدينية"٥١" وفي هذا منتهى التسامح مع أهل الذمة.

وقد ذكر الطبري أن أبا عبيدة بن الجراح دخل دمشق في ١٤هـ / ٦٣٦م فشتى بها ولما ضاقت الروم سار هرقل بهم حتى نزل أنطاكية، ومعه من المستعربة لخم، وجذام، وبلقين، وبلي، وعاملة، ومن تلك القبائل من قضاعة، وغسان، بشر كثير، ومعه من أهل أرمينية مثل ذلك، وبعث الصقلار خصياً له فسار بمائة ألف مقاتل معه من أهل أرمينية اثنا عشر ألفاً، ومعه من المستعربة من عسان، وتلك القبائل من قضاعة أثنا عشر ألفاً عليهم جبلة بن الأيهم الغساني، وساترهم من الروم البيزنطيين، وسار إليهم عن أربعة وعشرون ألفاً عليهم أبو عبيدة بن الجراح، فالتقوا باليرموك في ١٢ رجب سنة ١٥هـ / ٢٠ آب ٦٣٦م فاقتتل الناس قتالاً شديداً"٥٢".

وتدل عبارة الطبري على أن فتح دمشق كان قبل اليرموك، والمعول عليه أن فتح اليرموك كان قبل دمشق فلربما أراد هرقل استرداد أرض الشام من العرب لكنه لم يفرط بنفسه بقيادة هذه القوات، ولما علم العرب بأنباء الزحف البيزنطي تداولوا الأمر، وراسلوا المدينة للاستنجاد وللاسترشاد، وهنا تقرر الانسحاب جنوباً والتخلي عن حمص، وعن دمشق استعداداً لجولة جديدة ستكون حاسمة في اليرموك.

وكان الجيش الذي حشده هرقل كبيراً، وقد زحف جنوباً دون أن يلقى مقاومة واتخذ قاعدة له قرب الياقوصة"٥٣"، على حواف مرتفعات الجولان لحماية الطريق الحيوي الذي يصل ما بين دمشق ومصر، وكانت هذه القاعدة محمية من الخلف بوديان وشعاب وعرة، وكانت مزودة بشكل ممتاز بالماء والمراعي، كما أنها قامت في قلب الشام، وكان القتال فيها يحسم مستقبل بلاد الشام.

وكان قوام الاستراتيجية البيزنطية توفير خنادق طبيعية أو مصطنعة خلف معسكراتهم، وهذا ما وفره الموقع بشكل طبيعي، وكان أيضاً على رأس مبادئ التطبيقات

العسكرية البيزنطية عدم محاولة الدخول بالقتال مباشرة، بل مباشرة مراسلة قادة قوات الأعداء على أمل شراء بعضهم، أو التغرير بهم، أو تمزيق صفوفهم، وفي الوقت نفسه كانوا يشيعون أنه لن يكون هناك قتال بل تسوية، وغالباً ما كان هذا يقود إلى الاسترخاء، والإهمال لدى القوات المعادية، وأيضاً يكون البيزنطيون قد عرفوا أوضاع هذه القوات، ونقاط الضعف، والقوة لديها مع خططها، وهنا في لجة المفاوضات كانت الجيوش البيزنطية تعمد إلى القيام بهجوم مفاجئ، وصاعق تدمر به قوات العدو، ومن هنا اعتاد أعداء بيزنطة على اتهامها بالغدر، والخيانة، والمهم أننا حين ندرس تفاصيل أخبار اليرموك نجد أن المسلمين كانوا مدركين لهذا كله، لذلك فوتوا على بيزنطة عامل المفاجأة.

ووقف الجيشان أمام بعضهما لمدة تقارب الثلاثة أشهر دون معركة كبرى، بل اختبارات قوة، ومحاولات تغرير ببيزنطة مخفقة، ودعوة من قبل خالد بن الوليد للقادة البيزنطيين إلى دخول الإسلام، وعانى الجيش الرومي أثناء ذلك من اضطرابات، وعدم إجماع على رأي واحد مع تنافر بين المجموعات الأمامية التي تشكل منها هذا الجيش.

المهم التفاصيل حول معركة اليرموك كثيرة جداً وغنية لا مكان لعرضها هنا المهم عاد العرب إلى دمشق بعد انتصارهم الرائع في اليرموك وفتحوها للمرة الثانية، وجدد خالد بن الوليد لأهل دمشق كتاب الصلح الذي كان قد كتبه لهم وأثبت في هذا الكتاب شهادة أبي عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة وغيرهم من قواد العرب "٥٤"، وذلك لأن دمشق من بين المدن التي استردها العرب بعد انتصارهم في اليرموك، وكما سلف ذكره كان خالد قد فتحها أول الأمر صلحاً ثم اضطر العرب إلى الرحيل عنها، فاستعاد الروم سلطاتهم عليها غير أنهم لم يبقوا بها طويلاً فقد عادت إلى قبضة العرب ١٥هـ-٦٣٦م، ومن ثم أصبح لهم حق التصرف في أرضها، وهكذا استعاد المسلمون دمشق، والمنطقة الوسطى من بلاد الشام "٥٥"

وتفاصيل الأمر أنه بعد اليرموك بقي في أيدي البيزنطيين القدس وعسقلان، وقيسارية من بلدان فلسطين، وكان على العرب بعد استردادهم لكل من دمشق، وحمص متابعة الزحف شمالاً حيث حلب، وقنسرين، وأنطاكية، بعد فرار هرقل منها، وباتت قنسرين مركزاً لتجمع القوات البيزنطية، وقد تألفت من مدينتين مسورتين هما: قنسرين، وحاضر قنسرين، وكان أهل الحاضر من قبيلتي طيء، وتنوخ بشكل رئيسي.

وقبل الوصول إلى قنسرين كان هرقل قد قام بمحاولة أخيرة ضد العرب، فجمع قوة في الجزيرة، وجلب بعض القوات الأخرى عن طريق البحر، وزحفت هذه القوات باتجاه حمص وكان تعدادها يناهز الثلاثين ألفاً، وهنا خرج أبو عبيدة من حمص واصطدم بالقوات الزاحفة، فألحق بها الهزيمة مع خسائر فادحة، وطارد فلولها حتى مرج الديباج قرب أنطاكية، ووقتها هرب هرقل إلى الرها ليمضي إثر ذلك إلى القسطنطينية، وفتح العرب كل من حلب وأنطاكية، ثم التفتوا نحو قنسرين التي استسلمت مع حاضرها، وغدت مفتوحة على قاعدة الصلح.

وإثر هذا أرسل أبو عبيدة سريتين توغلتا قليلاً داخل الأراضي البيزنطية فيما وراء حدود بلاد الشام، ثم عادتا، وبعد هذا قرر أبو عبيدة العودة جنوباً للمساعدة في فتح القدس المحاصرة من قبل القوات المسلمة، فعندما اشتد الحصار طلب المحاصرون الصلح بشرط قدوم الخليفة عمر بن الخطاب ليتسلم مفاتيحها "٥٦"

وقد قدم كما يرجح في سنة ١٧هـ/ ٦٣٩م في موكب صغير دون جلبة أو صخب على نقيض ما اعتاد عليه أباطرة بيزنطة.

وليس مدهشاً أن يضرب عمر المثل الأعلى في الزهد، والتواضع، والبعد عن الخيلاء، ومظاهر التجبر، لكن المثير للدهشة أن يتمكن من السفر من الحجاز، إلى بلاد الشام المفتوحة حديثاً بدون حراسة، ففي هذا دليل ليس على سحق القوى البيزنطية، وزوالها كلياً من بلاد الشام فحسب، بل على أن الحكم الجديد نال رضا الناس جميعاً، لذلك

انعدمت القلاقل، والفتن، وتوفر الأمن بشكل منقطع النظير بين سكان البادية والأرياف، والمدن.

ولدى وصوله للجابية تفقد أحوال الجند، وناقش خطط المستقبل، وذلك قبل أن يتوجه نحو القدس، وسيظل دخوله القدس حدثاً عربياً لا مثيل له في تاريخ المدينة المقدسة، وفي تاريخ الشعوب.

والسؤال الذي يطرح نفسه، لماذا سار عمر بن الخطاب إلى الجابية، وتمهل هناك دون أن يسرع إلى مدينة القدس ؟

لعله أراد أن يطمئن إلى أن المدد العسكري الذي أمر بإرساله لينضم إلى جيش عمرو بن العاص قد اقترب من مدينة القدس، وعندئذ يستطيع المسلمون أن يتفاوضوا مع زعماء المدينة من مركز يضعونهم فيه بين خيارين خيار الصلح والسلام، وخيار الحرب إن لم تكن هناك سبل إلى الصلح.

والجدير بالذكر أن الجابية كانت معسكراً كبيراً للمسلمين منذ البداية تجتمع فيها الجيوش المسلمة عند توحدها وظلت عاصمة لجند دمشق حين حددت الأجناد وهناك تلقاه القواد، وفئات الجند يسلمون عليه، ويعرف ذلك اليوم بيوم الجابية، وقد حقق أثناء إقامته في الجابية أموراً كثيرة على المستوى العملي، وقد لخص سيف بن عمر ذلك بقوله: (قسم الأرزاق وسمى الشواتي والصوائف، وسد فروج الشام ومسالحها، وأخذ بذرقتها، وسمى ذلك في كل كورة...)"٥٧".

ثم قصد القدس، وكان موكب الخليفة صغيراً بدون جلبة، أو صخب على نقيض ما أعتاد عليه أباطرة بيزنطة، وقد وجد بلاد الشام آمنة مستقرة، وفي هذا دليل على سرعة تجاوب السكان مع الفاتحين، ولدى اعتماد الخليفة لخطط فتح جديدة ألغى جيش شرحبيل بن حسنة، وأفرد الجزيرة، وجعلها مصراً قائماً بذاته، حيث سيعيد بأموره إلى جند الكوفة، بعد تقسيمه لجبهة العراق إلى جندين، البصرة والكوفة، ولعله أيضاً وافق

على الشروع بالإعداد لفتح مصر، فمن الآن وصاعداً ستكون بلاد الشام، قاعدة لحركة الفتوحات الكبرى التي ستتطور كثيراً في العصر الأموي.

وسيظل دخوله على القدس حدثاً عربياً لا مثيل له في أخلاقيته، وايجابياته في تاريخ المدينة المقدسة، ولا في تاريخ الشعوب، فقد عامل أهل القدس معاملة رائعة وتعامل مع المدينة على أنها دار السلام، ودخل أمير المؤمنين القدس راجلاً يقود زمام ناقته، وقد ركب عليها غلامه لأن نوبته بالركوب تواءمت مع ساعة الدخول، وكان أمير المؤمنين يرتدي أبسط الملابس، وهكذا تجول في المدينة، ودليله البطريرك صفرونيوس، وقد رفض مصادرة آية كنيسة، أو مكان من أمكنة أهل الذمة، واختط المسجد العمري في موقع شاغر، وأمضى صلح المدينة الذي سمي " العهدة العمرية " والتي ضمنت الحرية الدينية المطلقة، والحفاظ على الكنائس، والأموال وقضت بفرض الجزية على أهل الذمة،وعدم جبايتها في ذلك العام من الذين جفلوا من مناطقهم ولجأوا إلى القدس حتى يحصد حصادهم.

فهل يعرف تاريخ العالم، تاريخ الحرب وتاريخ السلام قديماً أو حديثاً في مشارف الأرض ومغاربها جيشاً يضرب الحصار، ويأتيه المدد من الجند والسلاح يعرض على أهل المدينة المحاصرة ما يضمن هذا العهد العمري من مبادئ إنسانية بلغت ما بلغت من أقصى درجات العدل والتسامح ؟

لقد أوقف نزيف الدماء، وصان المدينة المقدسة، وأماكنها من الدمار مؤكداً على المكانة السامية للقدس لدى العرب، فهي أولى القبلتين والثالثة في المكانة بعد مكة والمدينة، ولكن على الرغم من هذا التقدير فقدت المدينة مكانتها السياسية، لأن الوضع الاستراتيجي السياسي والعسكري تبدل في بلاد الشام، فبعد ما مكثت هذه البلاد لقرون مدينة تابعة لروما الغربية ثم الشرقية عادت إلى أصالتها العربية، وخلال أقل من عقدين من الزمن لم تعد كل الطرق تقود إلى روما، بل إلى دمشق، وتولت دمشق قيادة دار السلام، ونشر الإسلام في أرجاء الدنيا.

وقد شملت عناية عمر رضي الله عنه الأمور الإدارية فجعل يزيد على دمشق واعتذر للناس عن عزل خالد، وسمح بسكنى المسلمين في مدن كان يسكنها أهلها الأصليون، وقد سكن البعض منهم في الأطراف، ولعله كان شديد القلق على مستقبل العلاقات بين الفريقين، بل لعله كان يخشى أن تجرّ المعايشة إلى تغيّر في القيم ، وطرق المعيشة، وأكثر ما أقلقه مسالة انتشار الطاعون الذي استمر حتى ١٨هـ/ ٦٣٩م وأفنى عدداً كبيراً من المقاتلة العرب، وقادتهم "٥٨"، كأبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم،الأمر الذي جعله يراجع الأمور الإدارية أكثر من مرة، فأسند إلى معاوية بلاد الشام "٥٩"هذا الحدث يعد المقدمة البعيدة لتأسيس الدولة الأموية.

وبعدها خلصت الشام للحكم العربي، ولم تعد تعرف باسم سورية بل بالشامات"٦٠"، أو بلاد الشام، وبعد فتح القدس فتحوا المتبقي من مدن الساحل الشامي مثل طرابلس، وقيسارية، وعسقلان "٦١".

وظل معاوية بن أبي سفيان والياً على بلاد الشام في خلافة عثمان بن عفان، فتوجهت جهوده إلى منطقة الساحل استكمالاً للفتح ثم إعادة الفتح، فشحن المراكز الساحلية بالقوى الدفاعية التي تستطيع صد الهجوم من البر والبحر، وحماية التجارة البحرية بوجه خاص، وكل مركز منها يشرف على حماية ما يليه من خط الساحل شمالاً وجنوباً لأن الساحل قسم إلى شرائح يتبع كل منها جند من الأجناد، وجعلوا عواصمها في الداخل على خلاف ما كان عليه الحال في حكم الروم، وقد أطلق الخليفة عثمان يد معاوية في غزو البحر "٦٢"، وهذا خارج عن نطاق البحث.

والمفيد ذكره أن الفتوحات لم تكن مقصورة على الأعمال الحربية، وخوض المعارك واحدة إثر أخرى، والاستيلاء على المدن، ومصابرة التي تمتنع منها حتى تستسلم، بل كان للفتوحات جانبها التنظيمي ولتتلاءم مع الأوضاع المستقرة الجديدة وما تقتضيه، فألغيت التقسيمات الإدارية البيزنطية لبلاد الشام، وقسمت إلى أربعة أجناد هي: جند دمشق، وجند حمص، وجند الأردن، وجند فلسطين، وفي العصر الأموي أيام يزيد

ابن معاوية قسم جند حمص 'لى قسمين، هما جند حمص، وجند قنسرين، وكانت دمشق حاضرة جند دمشق وفيه من الكور بعلبك قاعدة البقاع، وحوران ومدينته بصرى، والبثنية، ومدينتها أذرعات، والجولان، ومدينة بانياس ، وكورة الشراة، ومدينتها أذرح كما كانت هناك مناطق أخرى هي المناطق الساحلية لعرقة، وطرابلس، وجبيل، وبيروت، وصيدا.

وضمن جند حمص وسط بلاد الشام مع الشمال، وكان من أهم مدنه: حماة وشيزر، وأفاميا، وتدمر، ومعرة النعمان، وحلب، والبارة، وقنسرين، وانطاكية مع اللاذقية، وجبلة، وبانياس، وطرطوس على الساحل. وكانت مدينة طبرية هي قصبة جند الأردن، ومن مدن هذا الجند في الداخل: بيسان، وفحل، وجرش، وفي الساحل صور وعكا.

وكانت اللد قاعدة جند فلسطين، ومن مدن هذا الجند القدس، وعمواس، ونابلس، وسبسطية، وبيت جبرين، وامتلك كل جند خراجه ونواة إدارة مستقلة، وعامل وحامية.

وإلى جانب ذلك كان هناك ربط بين التصور الفكري، والعملي للحرب وناقش إمكانية إيجاد مراكز رئيسة للإدارة، واستقرار المقاتلة، وعائلاتهم، وكذلك توزيع قوات صغيرة نسبياً لتقيم بصورة دائمة في الأماكن ذات الأهمية العسكرية، وهذا يتطلب عدم الاقتصار على المراكز الرئيسة الكبيرة المحدودة العدد وإنما أيضاً إنشاء مراكز متعددة صغيرة، وخاصة في المناطق الشمالية، والغربية"٦٣".

أضف لذلك توفير المؤن التي تكفي الجند، وعائلاتهم، والعلف الذي لا بد منه لدوابهم، وكان لابد للدولة من امتلاك الخيل، وتربية الجمال، وشرائها لتكون احتياطياً لما يهلك منها في المعارك، أو يفقد صلاحيته مع الزمن، ولهذا عمدت الدولة منذ أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى تحديد حمي خاص يصبح عند الحاجة مصدراً لتزويد جبهات الحرب بالخيل والجمال، ويلحق بهذا كله العناية بالجرحى، والمرضى، ولعل هذا هو الذي شجع إلى جانب عوامل أخرى إلى اصطحاب النساء في

المعارك، ويقيناً كانت الوسائل المتبعة في التطبيب بسيطة وكانت الروح المعنوية التي تلهم أصحابها القدرة على الصبر والحوافز الدينية التي ترحب بالاستشهاد هي أقوى الأدوية في مغالبة الجراح، والمرض إلى جانب الوسائل الأولية في العلاج.

وقد كان للفتوحات نتائج حيث حققت نشر الدين الإسلامي في الأصقاع المترامية، وهي التي كتبت السطور الأولى في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، لأنها اللبنة الأولى في كل ما نعده عربياً إسلامياً حتى الفتن التي كانت وليدة تدفق الأموال والصراع على السيادة، كل ذلك وغيره كان من تراث تلك الفتوحات.

وأول ما نلحظه في بلاد الشام أنها ظلت ولاية في نطاق ولايات أخرى تابعة لعاصمة خارج حدودها، وليس من السهل أن نعرف في أي الفترتين الإسلامية أو البيزنطية كانت أكثر استقلالاً ذاتياً، ولكن يبدو لنا أنها منذ أيام عثمان تمتعت دون سائر الأمصار الأخرى بما يميزها من عناصر إدارية، وتنظيمية مرهصة للاستقلال الذاتي، ولهذا لم يكن استشعارها بذلك التميز فجائياً حين حول معاوية بن أبي سفيان مركز الخلافة إليها، وانتزاعها من الكوفة، واتخذ من بلاد الشام المتوسطية دارا لسلطانه، وهو كان قبل الخلافة والياً على الشام والجزيرة عارفاً بأهلها وعارفين به، الشيء المهم أنه منحها الشعور بأنها لم تعد ولاية تابعة، بل أصبحت لها مكانة السيد الموجه لسائر الولايات.

وكان الفتح نفسه يحمل معه مشكلاته الكثيرة، ولذلك كان التغيير الشامل في النظام الكلي لشؤون الحياة كالجباية، والإدارة، ونظام المدن، ونظام الطرقات وغير ذلك يزيد من تعقيد تلك المشكلات، ولهذا فإن الفاتحين لم يأخذوا من هذه المظاهر إلا ما يلائم أوضاعهم الآنية من تغييرات جزئية، هذا بالإضافة إلى أن التغيير يستدعي إيجاد بدائل، ولم تكن هذه البدائل جاهزة يومئذ لدى الفاتحين، فظل المبنى التحتي من هيكل الدولة قائماً كما كان في العصر البيزنطي على وجه التقريب.

ولكن من البديهي أن الفتح كان يعني نجاح العرب في التوسع الجغرافي والاقتصادي، وبسط السيادة العربية على أرض جديدة وهذا أوجد تربة خصبة صالحة للتعريب، ونشر الإسلام معاً.

والجدير بالذكر أن فتح بلاد الشام عامة، ودمشق خاصة كان له أكبر الأثر في إحياء الصلات القديمة التي كانت تربط بين العرب المقيمين في دمشق، وبين العرب الفاتحين، وساعدت وحدة الجنس، ووحدة اللغة على اندماج الفريقين، كما أدى الاتصال الاجتماعي بينها إلى تكوين مجتمع جديد في دمشق،وكان طبيعياً ألا يتخذ هذا المجتمع الجديد شكله النهائي في بضع سنوات، وقد كانت اللغة العربية منتشرة في دمشق قبل الفتح العربي فقد نشرها العرب الذين كانوا يدينون بالوثنية ثم العرب الذين دخلوا في المسيحية بعدهم، ولما فتح العرب المسلمون دمشق، وهاجرت بعض القبائل العربية إليها زادت العربية انتشاراً ورسوخاً في هذه المدينة، واضطر أهلها من غير العرب إلى تعلم العربية، لأنها لغة الحاكمين "٦٤".

ومما ساعد على انتشار اللغة العربية في دمشق أنها لغة الدين الجديد، كما أن العرب سعوا إلى جعل اللغة العربية لغة أدب وثقافة إلى جانب الدين، ولم يحارب العرب اللغة اليونانية،- لغة السواد الأعظم من سكان دمشق، - بل ساروا في نشر لغتهم سيراً حثيثاً "٦٥".

وانتشر الإسلام بين عرب الشام الذين يقطنون في دمشق، ونواحيها بعد أن توطدت العلاقات بينهم وبين العرب القادمين من الجزيرة العربية، ولعل انتشاره بين القبائل المسيحية التي تقيم في منطقة دمشق أكثر من انتشاره بين سكان هذه المدينة "٦٦".

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في دمشق وفود نفر غير قليل من الصحابة، والتابعين إلى هذه المدينة، وإقامتهم بها وحماستهم لهداية الناس إلى الدين الحنيف "٦٧".

كما كان للانتصارات الرائعة التي أحرزها العرب في بلاد الشام أثر كبير في جعل المسيحيين يعتقدون أن هذه الانتصارات إنما تمت بعون من الله وأن نجاح المسلمين دليل على صدق دينهم "٦٨"، وكان دخول أهل دمشق في الإسلام عن اختيار وإرادة "٦٩"، وكان انسياح المهاجرين إلى تلك المناطق تلقائياً، ولم تظهر مشكلات لتلك الهجرة في القرون الأولى.

وبالتالي اختفت الغارات البدوية الخاطفة للسلب والنهب أو السرقة، واختفت أيضاً التجارة مع أسية الصغرى، وتأثر تسويق بعض البضائع والسلع الرائجة التي كانت في الدولة البيزنطية كالخمور والبخور والتوابل والأيقونات، وأدوات الترف، وقد واكب هذا التضعضع في الوضع التجاري إقبال أكبر على الزراعة حيث كثر توزيع الأراضي كالموات، والصوافي والقطائع على المستثمرين الجدد، ومن الغريب أننا لا نسمع في هذه المدة عن منازعات على الأرض بين الفلاحين، و لا عن تظلم من الضرائب، وشكوى من عسف الولاة إلا ما ندر. وكان لهذا الوضع أثر في نمو الحرف.

وقد توقفت الفتوحات بسبب الفتنة الكبرى "٧٠" بعد مقتل الخليفة عثمان ابن عفان، والصراع بين علي بن أبي طالب ومعاوية، وأثناء ذلك كان قميص عثمان رضي الله عنه، وأصابع زوجته نائلة في طريقها إلى دمشق مع النعمان بن بشير " ٧١"، وفي لحظة ربط معاوية بين قميص عثمان، وبيعة علي كرم الله وجهه من أجل أن يكون موقفه غداً واضحاً إذ طالبه علي بمبايعته، وقد جرت مراسلات سلمية بين علي ومعاوية "٧٢"، تمخضت بزحف علي بجيشه إلى الشام وعبأ لذلك جيشاً صغيراً، ولكن صغر الجيش حوله عن الذهاب إلى الشام، أضف لذلك خروج طلحة، والزبير، وعائشة إلى البصرة "٧٣"، ولعله وجد الفرصة سانحة لتحقيق أمرين أولهما تكثير عدد جيشه بأهل الكوفة، وأكثر من يواليه، والاستعداد للقاء طلحة، والزبير، وعائشة، إن اختاروا الحرب، وهو جيش يصلح للقاء أهل الشام إن أصروا على

عدم البيعة، والأمر الثاني أنه عندما يتمركز في الكوفة يكون لديه ظهير قوي في مواجهة الشاميين أي أنه ينطلق من منطقة تشايعه، يستطيع أن يفيء إليها عند الحاجة بعكس زحفه من الحجاز إلى الشام، فإن في مقدور معاوية حينئذ أن يقطع عليه خط الرجعة حين يدخل الأرض الشامية، كما يستطيع أن يحول دون طلبه المدد من مصر عند الحاجة إليه.

وحين تحقق معاوية أن علياً رضي الله عنه مشغول بالقضاء على ثورة الخارجين بالبصرة، لم يوفر جهداً في تعبئة أهل الشام نفسياً، واستمال إليه عمرو ابن العاص، ووعده بمصر طعمة له "٧٤"، واشترى الهدنة من ملك بيزنطة بالهدايا، واستدعى إلى دمشق زعيم أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندي "٧٥" ولعله كان في حمص، و ما أن وصل إلى دمشق حتى انضم إلى معاوية في المطالبة بتسليم قتلة عثمان إلى وليّ المقتول بحسب نص القرآن، وقتلة عثمان موجودون في جيش علي، ولسنا نسأل هل كان معاوية ولياً لعثمان رضي الله عنه؟

وتسارعت الأحداث، وأدت إلى مقتل علي رضي الله عنه، وتنازل الحسن عن الخلافة، وبويع معاوية بالخلافة، وانتقلت العاصمة إلى دمشق، وانتقل بيت المال إلى دمشق وأصبحت دمشق أهم الولايات منها انطلقت الجيوش إلى الجبهة الشمالية ضمن خطة تهدف إلى القضاء نهائياً على الدولة البيزنطية من خلال إسقاط القسطنطينية، ولكن جهوده باءت بالفشل، ومنها قامت الحملات العسكرية أيضاً في الجبهة الجنوبية.

لكن أن الدولة الأموية دخلت في نفق مظلم وابتعدت عن الشورى، وأخذت بمبدأ العهد، والوراثة في الحكم، ولعل للبيئة أثرها في فرض النظام، ففي المدينة كانت البيئة عربية بدوية، لذا كانت السيادة والنفوذ للعنصر العربي الذي تتفق ميوله البدوية، ونظام القبيلة، والشورى.

أما في دمشق، فالبيئة بيزنطية ملكية، فظهر أثر ذلك على العرب، وحاول معاوية تقليد النظام البيزنطي والساساني "٧٦"، فهو أول من وضع الحشم للملوك ورفع

الحراب بين أيديهم، وأقام الحرس، والشرط، والبوابين، وأرخى الستور"٧٧". ووضع المقصورة التي يصلي الخليفة بها في الجامع منفرداً، فإذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف، وهو أول من وضع البريد لوصول الأخبار إليه بسرعة "٧٨".

أضف لذلك فإن معاوية قد أوجد منصب الحاجب، وهو منصب سامي في البلاط الأموي، فهو الذي يدخل الناس حسب مقاماتهم للخليفة، أو يحجبهم عنه وذلك خوفاً على أنفسهم، وتلافياً لازدحامهم على الأبواب، وهو لسان الخليفة ووجهه "٧٩".

ولقد شاع التأنق والترف، وتنوعت الأطعمة، وظهرت هوايات، وتسليات متنوعة، وشيدت القصور فقد بنى الأمويون الكثير منها لا مجال لذكرها فالبحث حتى نهاية عهد معاوية لذا فسنذكر أن معاوية اتخذ قصر الخضراء ، وذلك قبلي الجامع الأموي – وقد سمي بذلك نسبة إلى القبة الخضراء التي كانت فيه – مقراً له ومركزاً لإدارة شؤون الحكم، وكان هذا القصر من المباني التي شيدت في عصر الرومان فجدده معاوية أبان ولايته على الشام في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وبناه معاوية بالطوب أولا ثم أعاد بناء الخضراء بالحجارة، وزينه بالذهب والفسيفساء، والمرمر، وأحاطه بالحدائق الغناء "٨٠"، وقد ظل هذا القصر مركزا لإدارة الدولة وسمي دار الإمارة، وقد وصفت بأنها كانت أشبه بخيمة شيخ من شيوخ القبائل العربية منه بقصر الملك ذي مراتب للرعية مسيج بالحرس، والحراب، بل لعله كان مجلساً مفتوحاً لمن يقصده من القبائل أو من عامة الناس فضلاً عن خاصتهم، وهي عادة قد يكون معاوية ورثها عن أبيه الذي يعرف في الجاهلية بشيخ قريش "٨١".

وكثرت القيان، وظهرت مراكز اللهو، والمجون والغناء، ولحن المغنون القصائد الشعرية، وقد كان التغيير حادثاً و لا بد، ولكنه كان بطيئاً بسبب صلابة العقيدة، وعدم التهاون في تطبيق الحدود، وعدم الانسياق الكلي وراء متطلبات المجتمع الجديدة، وتجنبه ماقد تحمله معه رياح التغيير من عناصر، فقد زود ذلك المجتمع بالوسائل الأولية التي لا بد منها للحفاظ عليه، وفي مقدمة ذلك إمداد المجتمع

بالقصاص الوعاظ المذكرين، وبالمعلمين الأفذاذ الذين يصلحون أن يكونوا قدوة لغيرهم، لأنهم يطابقون بين القول والعمل.

وقد كان القصص في أيام الخلفاء الراشدين هو قصص العامة إذ يجتمع النفر من الناس إلى القاص فيعظهم، ويذكرهم، ثم استحدث معاوية ما يسمى قصص الخاصة، إذ عهد إلى رجل يتولى القصص بعد صلاة الصبح مباشرة، أي أصبح القصص نشاطاً توجهه الدولة، وتدفع الأجر لصاحبه، وكان القاص يدعو للخليفة، وأهله، وأهل ولايته، وذكر الخليفة هنا قد يشير إلى أن معاوية استحدث هذا النوع من القصص في خلافته، لا في أيام إمارته على الشام " ٨٢"، ولكنا يجب ألا نأخذ هذه اللفظة بمعناها الحرفي لأنا نعلم أن جيش معاوية، وهو سائر إلى صفين كان يحوي عدداً غير قليل من القصاص، يقصون على الجيش الشامي، ويحرضونه على القتال.

وقد شارك أولئك القصاص في عملية التثقيف جماعة الصحابة، فكانوا لا يغفلون عن رصد كل ما يوحي بتسمح من جانب الحق، وحين احتاج المجتمع الشامي إلى الصحابة المعلمين، كتب يزيد بن أبي سفيان إلى عمر يقول: إن أهل الشام كثير، وقد احتاجوا إلى من يعلمهم القرآن، ويفقههم، فاختاروا ثلاثة من كبار الصحابة، ووجه بهم إلى الشام، وهم معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وقال لهم: "ابدءوا بحمص، فإذا رضيتم، فليخرج واحد إلى دمشق، والآخر إلى فلسطين، فأقام عبادة بحمص، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين" ٦٨"، وقد أصبح هؤلاء أقطاب الحركة العلمية في بلاد الشام، ومؤسسيها، فهم الذين يعقدون مجالس العلم، ويتحلق حولهم الناس، وكثر تلامذتهم، والآخذون عنهم، فكونوا الجيل العلمي التالي "٨٣".

وقد كثر الذين كانوا يقرؤون على أبي الدرداء، حتى بلغوا في تقدير أحدهم ما ينيف على ألف وستمائة ونيفاً من التلاميذ "٨٤".

ولقد ورثت أم الدرداء شيئاً من طريقة زوجها في التعليم والإقراء "٨٥"، الأمر الذي يدل دلالة واضحة على أنه كان للمرأة دور واضح في تنشيط الحركة العلمية في دمشق، وعن أم الدرداء أخذ القراءة عطية بن قيس الذي كان الناس يصلحون مصاحفهم على قراءته، وهم جلوس على درج الكنيسة الملاصقة لمسجد دمشق قبل أن تهدم "٨٦". ويستفاد من هذه الرواية أنه كان لكل واحد مصحفه الخاص به، وهذا يجعل رفع المصاحف على رؤوس الرماح في صفين رواية قابلة للتصديق.

وكان من تلامذة أبي الدرداء النابهين أيضاً أبو أدريس الخولاني عائذ بن عبد الله من ساكني دمشق، وقد أصبح أبو ادريس عالم أهل الشام بعد أبي الدرداء، وانضم إليهم عدد آخر من الصحابة أصبحوا مقصد طلاب الحديث فيما بعد في النواحي المختلفة "٨٧"، هذا في الوقت الذي برز فيه دور المسجد الجامع كمركز ديني، وسياسي ، ففيه تؤخذ البيعة للخلفاء، ومن على منبره توجّه الخطب، والنداءات، وتتلى المراسيم، والأحكام، وإليه يتجه الوالي أول ما يتجه حين يرسله الخليفة عاملاً له إلى أحد الأمصار ، أو المدن، كل ذلك فضلاً عن الصلاة الجامعة التي تعقد كل يوم فيه، وهو المدرسة الأولى في الإسلام، فأينما وجدت المساجد كانت مراكز لتعليم العلوم القرآنية، وعلوم العربية، وجماع الثقافة في العصر الأموي، ما كان ليخرج عن علوم القرآن، وأحاديث العرب، ونوادرها، وأخبارها، وأشعارها، فضلاً عن علم الأنساب.

ولعله إلى جانب المساجد كمراكز للتعليم نشأت مدارس أخرى على هيئة كتاتيب يعمل بها هيئة احترفت التعليم، ومنهم يتم اختيار مؤدبي أولاد الخلفاء أو مؤدبي أولاد الأمراء، والخاصة، وقد اختار معاوية لابنه يزيد أحد النسابة المشهورين لتأديبه، ومصاحبته، وهو دغفل بن حنظلة الشيباني، نظراً لاهتمام معاوية بالأنساب "٨٨".

وبمناسبة الحديث عن المساجد ينبغي القول: إن عمر بن الخطاب حين قدم إلى الشام ١٨هـ-٦٣٩م أمر ألا يتخذ في المدينة سوى مسجد جامع واحد، وأراد عمر بذلك، المسجد الذي تقام فيه الجمعة، ولم ينه عن اتخاذ المساجد التي لاتقام فيها الجمعة"٨٩".

واكتفى العرب بعد فتح دمشق بمسجد متواضع كان يوجد إلى جوار كنيسة القديس يوحنا، وتركوا الكنيسة كلها للنصارى يؤدون فيها شعائرهم الدينية، أما القول بأن العرب استولوا عقب الفتح مباشرة على نصف الكنيسة لإقامة شعائرهم الدينية، وتركوا النصف الآخر للنصارى مكافأة لهم على استسلامهم، وأن المسلمين والنصارى كانوا يدخلون من باب واحد هو باب الكنيسة القبلي فيأخذ المسلمون يمينهم على القسم المخصص لهم، على حين ينصرف النصارى إلى جهة الغرب لأداء شعائرهم الدينية، فهذه كلها روايات متأخرة، وغير صحيحة"٩٠".

وتوضح الروايات الغربية التي تصف الحوادث التي وقعت بعد ذلك أن المسجد القديم كان منفصلاً تمام الانفصال عن الكنيسة، وأن قصر الخضراء كان مجاوراً لهما.

ومن المرجح أن جيرون هو المسجد القديم، وليس أدل على ذلك مما أورده الطبري، فقد ذكر أن اليوم الذي اجتمع فيه المسلمون لاختيار خليفة جديد عقب وفاة معاوية الثاني ٦٤هـ ٦٨٣معرف باسم يوم جيرون نسبة للمسجد الذي اختير فيه الخليفة "٩١".

وقد حاول معاوية بعد أن ازداد عدد المسلمين في دمشق توسيع بناء المسجد الذي ضاق بالمسلمين فطلب من نصارى دمشق النزول عن كنيسة القديس يوحنا فرفضوا إجابة طلبه "٩٢"، وظل المسجد على حاله حتى آلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك فتغير الوضع. وهنا لامجال لذكر التفاصيل أضف لذلك أنه حين تولى معاوية أمر الشام، وكان بعيد النظر في العمران فطلب من الخليفة،عثمان رضي الله عنه أن يبني المساجد، ويكبر ما كان ابتنى منها قبل خلافته، وهكذا بدأ التوسع في المساجد، والجوامع عقيب استقرار الفتح، ورسوخ أقدام بني أمية.

أما الأعمال الإدارية، فالجند عنده فرقتان كبيرتان، الأولى الشرطة، وهي لحماية الخليفة والمدافعة عنه في الملمات، يختارها بنفسه، أو يختار له من يثق به ويدفع له الأجر للحماية والذود عن نظامه، والفرقة الثانية هي الجيش، والجيش للثغور، والجهاد وقد يوجه ضد الثائرين " ٩٣".

وهنـــاك القاضي، ويتصل بالقاضي وظيفـــة صاحب السوق الذي يعرف بالمحتسب ، أضف لذلك أنه كان هناك تنظيمات مالية كالجزية على الـــرؤوس، والخـــراج علـــى الأرض، وفي تقدير الجزية اعتمد مبدأ التفاوت في الثراء، ولعل ضؤيبة الجزية كانت موجودة في الشام أيام الحدم البيزنطي "٩٤".

والجدير بالذكر أن الفتح أحدث تغييرات في التركيب السكاني، فتشكلت فئـــات جديـــدة مستحدثة من فئات الأشراف العربية ذات الثراء الكبير كانت تتحلـــق حـــول الحـــاكم الأموي، وتؤازره للحفاظ على مواقعها، وهي طائفة ذات ثـــراء، وامتيـــازات ماليـــة، وإقطاعية مستحدثة " ٩٥"، أعادت للذهن ما كان لبني عبد شمس، والبيت الأموي فـــي الجاهلية من فوة مالية بسبب سيطرتهم على عصب التجارة فـــي الجزيـــرة العربيـــة، وقيادتهم لقوافل التجارة الذاهبة من مكة، وإليها شمالاً إلى بلاد الـــشام، وجنوبـــاً إلـــى اليمن السعيد في ما سمي برحلتي الشتاء، والصيف" ٩٦"، حتى لكأن عصر بنـــي أمية شهد إيلافاً جديـــداً للقوة المالية، كان قد مثله إيلاف قريش في الجاهلية، وشكلت مكـــة عاصمته التجارية الكبيرة "٩٧".

والمفيد ذكره أن الفتح الإسلامي جاء إلى الشام بشكل عام بقيم جديدة، وبعقلية جديـــدة مختلفة، وبعقلية مختلفة، وبتصور ثقافي مغاير كثيراً لما كان عليه الحال أيـــام الـــروم البيزنطيين، وبخاصة اتباعهم لسياسة التسامح الديني حيال أهل الكتاب، الأمـــر الـــذي أدى إلى تفاعل، وتلاقح ثقافي بين الثقافة الإسلامية، وثقافات الشعوب المتعـــددة والتي دخـــل إليهـــا الإسلام، سيما وأن صلة العربي اللغوية مع العربية لغة الفاتحين الجدد، والسريانيـــة المنتشـــرة في بلاد الشـــام، والمتوافقة الجذور مع العربية، جعلت انتشار العربية سهلاً، وربما نشأت من جراء ذلك الاختلاط عربية ميسرة يشوبها شيء مـــن اللحن سادت بين السكان.

وازدادت دمشق حيوية، وارتفع شأنها خاصة وأن معاوية منذ أيامه الأولـــى، أولـــى اهتماماً خاصاً بجني الأموال، والمحافظة عليه، معتمداً على وفرة الجند، وكثرة المـــال

لضمان مسار الحكم، وقوته، وغدا العطاء، وما يتبعه من هدايا، وهات من وسائل السيطرة، وضمان الولاء، والتأييد لسلطانه بعد فيض من الأموال، ازداد تدفقه على دمشق، ولم يعرف له سابقاً، أو مثيل.

وهكذا استطاع ضمان قبائل بلاد الشام بما أغدقه عليهم من خير دائم وهبات، وعطايا، لا تعوض، ولهذا اقترنت صورة الشاميين في النفوس بمبدأ الطاعة، فأصبحت هذه الصفة هي الخاصية التي تميزهم عن أهل الأمصار الأخرى، وهي الراية التي يجتمعون حولها منذ البداية، حتى أصبحت طاعة أهل الشام مضرب المثل"٩٨"، فهم عندما كتب إليهم عثمان في القراءة قالوا سمعنا، وأطعنا، وما اختلف في ذلك اثنان، ولم تحرفهم عن تلك الطاعة قيد أنملة ثورة أبي ذر، أو نقدات عبادة بن الصامت، أو تحريضات ابن السوداء ، وعندما عرفوا بمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، كانوا في طلبهم بدمه، كأنهم رجل واحد، وعندما ندبهم معاوية إلى صفين لم يجد لديهم تلكؤاً.

هذا وإن معاوية بحلمه ودهائه وسعة أفقه، والسياسة التي اتبعها في التوازن بين القيسية واليمانية، وزواجه من قبيلة كلب جعل حكمه يتصف بالهدوء، والازدهار الاقتصادي، والعمراني، والثقافي، والتمازج الاجتماعي.

من كل ما تقدم تبين أن العرب المسلمين بعد تأسيس دولة المدينة، وتوحيد الجزيرة العربية عقب القضاء على حركات الردة، تمكنوا في مدة زمنية قصيرة من القضاء نهائياً على الإمبراطورية البيزنطية في بلاد الشام، وبالتالي أسسوا دولة إسلامية شاسعة، كان للخليفة عمر بن الخطاب دور كبير في وضع، تنظيماتها الأولى لكن توقف العمليات الانتشارية في أواخر عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه كان له انعكاسات على الدولة، والمجتمع الإسلاميين.

وبعد ارتقاء معاوية للحكم، وتأسيس الدولة الأموية تواصل الانتشار من جديد في اتجاهات أخرى لاسيما في الشرق حيث تمكن العرب المسلمون من غزو السند،

وفتحه، كما قاموا بمحاصرة القسطنطينية، ووصلوا إلى أقصى الغرب، وفتحوا الأندلس، وبفضل عمليات الانتشار هذه لعب العرب دوراً هاماً على المستوى العالمي، وسوف يقومون بإنشاء عدة مراكز للثقافة العربية والإسلامية وستصبح المنطقة العربية مركز إشعاع عالمي.

الحواشي

١-الشهابي: أبواب ص١٣٠، بهنسي: **الشام والحضارة** ص١٠٤- ١٠٥.

٢-ابن جبير: الرحلة ص٢٧١.

٣-العمري: مسالك ص١٨٦، المقريزي: **السلوك** ج١ ص ٢٣٠.

٤-ابن شداد: **الأعلاق الخطيرة** ص ٥٠.

٥-عباس: **تاريخ بلاد الشام** ص ١٦٥ - ١٦٦.

٦-خماش: **الشام في صدر الإسلام** ص ١٢٢، البلاذري: **فتوح** ص١١٦، الطبري: **تاريخ** ج٣ ص٣٨٧.

٧-خماش: الشام **في صدر الإسلام** ص١٢٢.

٨-نولدكة: **أمراء غسان** ص٩٨، عباس: **تاريخ** ص ١٦٨، كرد علي: **خطط** ج١ ص ١٠٥،علي: **تاريخ** العرب ج٤ ص٢٤٣.

٩-كرد علي: **خطط الشام** ج١ ص٧١، ابن حبيش: **غزوات** ج١ ص ٢٠٨.

١٠- ابن حبيش: **غزوات** ج١ص٢٠٨

١١-ابن حبيش: **المصدر نفسه** ج١ ص٢٠٨.

١٢- ابن هشام: **السيرة** ج٢ ص ٨٢٨-٨٣٥.

١٣- ابن هشام: **المصدر نفسه** ج٢ ص٨٢٨-٨٣٥.

١٤- ابن سعد: **الطبقات** ج٢ ص ١٢٨.

philodelphia 1982, pp 36-37. ،The chronicle of theofhanes

١٥- الطبري: **تاريخ** ج٢ ص٨٩.

١٦- ابن سعد: **الطبقات** ج٢ ص ١٦٥، ابن هشام: **السيرة** ج٢ ص٩٤٥-٩٥٣.

١٧- ابن هشام: **السيرة** ج٢ ص ٩٥٤.

١٨- الواقدي: **المغازي** ج٣ ص١١٢٠،ابن سيد الناس: **عيون الأثر** ج١ ص ٣٥٦، ابن هشام: **السيرة** ج٤ ص٢٩١.

١٩- الواقدي: **مغازي** ج١ ص٢

٢٠-البلاذري: **فتوح** ص١١٤.

٢١-الواقدي: **مغازي** ج١ ص٣

٢٢- ابن هشام: **السيرة** ج٢ ص١٠٢٦-١٠٥٦، ابن سعد: **الطبقات** ج٢ ص١٨٩-١٩٢.

٢٣- شجاع: **الدولة العربية الإسلامية** ص٣٤٩.

٢٤-ابن حبيش: **غزوات** ١٤٨/١-١٤٩.

٢٥- ابن حبيش: **غزوات** ج١ ص١٤٨-١٤٩.

٢٦- ابن حبيش: **المصدر نفسه** ج١ ص ١٤٩-١٥٨.

٢٧-البلاذري: فتوح ص١١٤، ابن الأثير: ج٢ ص١٥٥.

٢٨- البلاذري: **فتوح** ص١١٥-١١٦، ابن حبيش: **غزوات** ج١ص١٦٠-١٧١.

٢٩- البلاذري: **فتوح** ص١١٥-١١٦-١٢٠.

٣٠- ابن حبيش: **غزوات** ج١ص١٦٩.

٣١- **المصدر نفسه** ج١ ص١٦٩-١٧٠-١٨٠،ابن العديم: **البغية** ٣١٢٠-٣١٧٢-٣٥٦٣-٣٥٦٤، ابن البطريق: **تاريخ** ص١٠.

٣٢-الواقدي: **فتوح الشام** ٢٦/١، الأزدي: **فتوح الشام** ٦٩، البلاذري: **فتوح البلدان** ١٣٥

٣٢مكرر- هناك خلاف في تقديم فتح دمشق على أجنادين، أو العكس بين المؤرخين

ابن عساكر: تاريخ دمشق ج١ص١٤٥، كمال: الطريق إلى دمشق ص٢٣٣، البلاذري: **فتوح** ص١٢٠، الطبري: **تاريخ** ج٣ ص ٤١٥-٤١٨،ابن حبيش: **غزوات** ج١ص ٢١٨- ٢١٩.

٣٣- سورة **النجم**: الآية ٣٩-٤٢.

٣٤- ابن حبيش: **غزوات** ج١ ص١٩٨٠، ابن عساكر: **تاريخ** ج١ ص١٤٤.

٣٥-ابن حبيش: **غزوات** ج١ص١٩٥ - ١٩٦-١٩٧، ابن البطريق: **التاريخ** ص١٣.

٣٦- الأزدي: **فتوح** ص٩٤-٩٥، البلاذري: **فتوح** ص١٢٠-١٢٢، خليفة ابن خياط: **تاريخ** ج١ ص١٠٤.

٣٧- الأزدي: **فتوح** ص١١٠-١١١، ابن حبيش: **غزوات** ج١ص٢١٨٠، ابن عساكر: **تاريخ** دمشق ج١ص١٤٤-١٤٥.

٣٨-Butler، A. J.: The Arab conquest of Egypt، the last chirty years of the Roman Domibion. p 152

39- Haddad, George: Article: The Fall of Damascus in th Hands of The Saracens, Beirut, March 30, 1928. p 3

٤٠-الطبري: **تاريخ** ج٣ ص٤٣٤-٢٦١، الأزدي: **فتوح** ص٩٤. البلاذري: **فتوح** ص١٢١، اليعقوبي: **تاريخ** ج٢ ص١٤٠، الواقدي: المغازي ج١ ص٦١.

٤١- البلاذري: **فتوح** ص١٢٧، الواقدي: **المغازي** ج١ص٦١، الطبري: **تاريخ** ج٣ص٤٣٨، كرد علي: **الخطط** ج١ ص٩١.

٤٢- كرد علي: **الخطط** ج١ص٨٥.

٤٣- الأزدي: **فتوح** ص١٠٤ -١٠٦، ابن حبيش: **غزوات** ج١ ص٢٠٨-٢١٠.

٤٤- البلاذري: **فتوح** ١٢٨.

٤٥-ابن كثير: **البداية والنهاية** ج٧ ص٢٠.

٤٦- البلاذري: **فتوح** ص ١٢٨.

٤٧- الطبري: **تاريخ** ج٣ ص٤٣٩، البلاذري: **فتوح** ص١٢٨.

٤٨- الأزدي: **فتوح** ص١٠٤-١٠٦، البلاذري: **فتوح** ص١٢٧-١٣٦، الطبري: **تاريخ** ج٣ ص٤٣٨-٤٤٠، ابن حبيش: **غزوات** ج١ص٢٠٨-٢١٧، ابن عساكر: **تاريخ** ج١ ص٤٨١-٥٢٤، ابن البطريق: **التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق** ص١٦.

٤٩--البلاذري: **فتوح** ص١٥٨.

٥٠-حسن: **تاريخ الإسلام** ج١ ص٥٢٥.

٥١-البلاذري: **فتوح** ص١٣٣.

٥٢- الطبري: **تاريخ** ٣/٤٤٠.

٥٣- ابن البطريق: **التاريخ** ص ١٤.

٥٤- البلاذري: **فتوح** ص١٢٩.

٥٥-الأزدي: **فتوح** ص١٨٠-٢٣٢-٢٣٧، الاذري: **فتوح** ص ١٥٠-١٥١-١٥٨-١٦١، ابن حبيش: **غزوات** ج١ص٢٣٤-٣٠٢-٣٢٥، ابن العديم: **البغية** ج١ص٥٨٧-٥٨١.

٥٦-الأزدي: **فتوح** ص٢٢٥-٢٢٧-٢٣٧-٢٤٣-٢٨٥، الطبري: **تاريخ** ج٣ص٦٠٢-٦٠٣، ابن حبيش: **غزوات** ج١ ص١٨٨.

٥٧- الطبري: **تاريخ** ج٣ ص٦٠٢-٦٠٣، عباس: **تاريخ بلاد الشام** ص٢٥٩.

٥٨-الطبري: **المصدر نفسه** ج٣ ص٦٠٢ وما بعد.

٥٩- الطبري: **المصدر نفسه** ج٣ ص ٦٠٣.

٦٠- الأزدي: **فتوح** ص٢٧٦-٢٨٣، البلاذري: فتوح ص١٤٦، ابن حبيش: **غزوات** ج١ص٣١٤-٣٢٨.

٦١- الأزدي: **فتوح** ص٢٧٦-٢٨٣، البلاذري: **فتوح** ص١٤٦، ابن حبيش: **غزوات** ج١ص ٣١٤-٣٢٨.

٦٢- البلاذري: **فتوح** ص١٢٧.

٦٣- العلي: **امتداد العرب** ص٦١.

٦٤-كرد علي: **الإسلام والحضارة العربية** ج١ ص١٧٢.

٦٥-كرد علي: **المرجع نفسه** ج١ ص١٧٢.

٦٦- فلهاوزن: **تاريخ الدولة العربية** ص١٢٧.

٦٧- الدوري: **مقدمة** ص٧٩.

٦٨-ارنولد: **الدعوة إلى الإسلام** ص٦٩-٧٠

٧٠- عبد اللطيف: **تاريخ الإسلام** ص ٤٨٥.

٧١-الطبري: **تاريخ** ج٣ ص٦٠٢ -٦٠٤.

٧٢-عبد اللطيف: **تاريخ الإسلام** ص ٥٠٨.

٧٣- عبد اللطيف: **المرجع نفسه** ض ٥٠٩ -٥١٠.

٧٤- عبد اللطيف: **المرجع نفسه** ص ٥١٣ -٥١٤.

٧٥- عبد اللطيف: **المرجع نفسه** ص ٥١٤.

٧٦- حسن: **تاريخ الإسلام** ص ٤٣٧، قدورة: **تطور تاريخ العرب** ص٢١٨.

٧٧- ابن هلال العسكري: **الأوائل** ص ٢٠٠-٢٠١، ابن طباطبا: **تاريخ الدول الإسلامية** ص١٠٦، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٢٠٠-٢٠١، الجاحظ: التاج ص ٣١-٣٥-٣٩.

٧٨- ابن قتيبة: **المعارف** ص٢٤١، خماش: **الشام في صدر الإسلام** ص٢٢٥ القلقشندي: **صبح الأعشى** ج١٤ ص٣١٧.

٧٩- قدورة: **تطور تاريخ العرب** ص٢١٩.

٨٠- ابن عساكر: **تاريخ** ج١ ص٢٤٣.

٨١- H. Lammens. LaRe Publique Marchande De La Mecque Vers La naboo De Notreere. p 31

٨٢-قدوره: **تطور تاريخ العرب** ص٢١٩.

٨٣- أبو زرعة: **تاريخ** ص١٦٤٩، الذهبي: **سير أعــلام النــبلاء** ج١ ص٤٥٨-٤٥٩.

٨٤- ابن عساكر: **تاريخ** ج١ ص٣١٥، ابن عساكر: **تهذيب** ج١ ص٧٠.

٨٥- ابن كثير: **البداية والنهاية** ج٩ ص٤٧.

٨٦- أبو زرعة: **تاريخ** ص٣٤٦.

٨٧- الذهبي: **تاريخ الإسلام** ج٣ ص٢١٦.

٨٨- شمس الدين: **أثر الحدث السياسي** ص٣٧٥.

٨٩- ابن عساكر: **تاريخ** ج١ ص٢٢٠.

٩٠- بروكلمان: **تاريخ الشعوب** ج١ ص١٧٠.

٩١- الطبري: **تاريخ** ج٥ ص٥٣٣.

٩٢- البلاذري: **فتوح** ص١٣١.

٩٣- العش: **النقود العربية الإسلامية،** ص١٣٩-١٤٠.

٩٤- خماش: **الشام في صدر الإسلام** ص ٣١٨.

٩٥- خماش: **المرجع نفسه** ص ١٠١ وما بعد

٩٦-هذه الرحلة التي ذكرت في القرآن الكريم.

٩٧- اليعقوبي: **تاريخ** ج٢ ص٢٣٤.

- R. Simon, Humset I laf. ou Conmeree Sans Guerre. Csur La Gene Seetle Cara Ctoredu Commerce Ca Mecque, Acte Orientalia Aee ademm Scientia Cum, Hungarica 1970 Tommusx.p 205-232

٩٨- ابن عساكر: **تاريخ** ج١ ص٣٠٤، كرد علي: **خطط** ج٥ ص١٢.

المصادر

١- أرنولد: (توماس)، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن ابراهيم، النهضة المصرية ١٩٧٠م.

٢-الأزدي: (أبو زكريا يزيد بن محمد بن أياس بن القاسم ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) فتوح الشام، القاهرة ١٩٧٠م.

٣- بروكلمان: (كارل)، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة أمين فارس، ومنير بعلبكي،بيروت، ط٨، ١٩٧٨.

٤- ابن البطريق: (افتيشوس المكنى بسعيد بن البطريق)، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩م.

٥- البلاذري: (أبو الحسن ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، فتوح البلدان، تحقيق وتعليق، رضوان محمد رضوان، بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٧٨م.

٦- بهنسي: (عفيف)، الشام والحضارة، دمشق، ١٩٨٦م.

٧- الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٢٥هـ / ٨٦٩م)، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، الشركة اللبنانية للكتاب.

٨- ابن جبير: (محمد بن أحمد ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م)، الرحلة، تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٥م.

٩- ابن حبيش: (عبد الرحمن محمد بن عبد الله ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)، غزوات، تحقيق د. سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٩٢.

١٠- حسن: (حسن إبراهيم)، تاريخ الإسلام، القاهرة، مكتبة النهضة العربية.

١١- خماش: (نجدت)، الشام في صدر الإسلام، دمشق، دار طلاس.

١٢- ابن خياط: (أبو عمرو خليفة ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤ م)، تاريخ خليفة، تحقيق د. سهيل زكار، دمشق ١٩٦٧م.

١٣- الدوري: (عبد العزيز)، تاريخ صدر الإسلام، بغداد ١٩٦١م.

١٤- الذهبي: (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٦٤٨هـ / ١٣٧٤م)، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة ط١، ١٩٨١م.

١٥- أبو زرعة: (عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان ت٢٨١هـ/ ٨٩٤ م)، تاريخ أبو زرعة، تحقيق، شكر الله بن نعمة الله الفرجاني، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية.

١٦- زكار: (سهيل) ` القدس في التاريخ من الفتح العمري الإسلامي حتى الإحتلال الصليبي، منشورات القيادة الشعبية الإسلامية العالمية، ط١، ٢٠٠٢م.

١٧-ابن سعد: (محمد ت ٢٣٠هـ /٨٤٤ م)، الطبقات الكبرى، ليدن ١٣٢٢هـ

١٨-ابن سيد الناس: (فتح الدين أبو الفرج محمد بن محمد ت ٧٣٤هـ/١٣٣٣م) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق لجنة التراث العربي، بيروت، دار الآفاق ط٢ ١٩٨٠م.

١٨-السيوطي: (عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق لجنة من الأدباء، بيروت، دار الثقافة.

١٩-شجاع: (عبد الرحمن)، دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، صنعاء، دار الفكر المغاصر ط١، ١٩٩٩م..

٢٠-ابن شداد: (عز الدين أبي عبد الله بن علي بن ابراهيم الحلبي ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج١ ق١، تحقيق دومينيك سورديل، دمشق ١٩٥٣م.

٢١-شمس الدين: (محمد علي)، الحدث التاريخي في عصر بني أمية ٤١-١٣٢هـ/ ٦٦١-٧٥٠م رسالة دكتوراه بإشراف د. إبراهيم بيضون، بيروت

٢٢-الشهابي: (قتيبة)، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، دمشق، وزارة الثقافة ١٩٩٦م.

٢٣-ابن طباطبا: (محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي)، تاريخ الدول الإسلامية، دون تاريخ، ودون مكان طباعة.

٢٤-الطبري: (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ط٢.

٢٥-عباس: (إحسان)، تاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٩٠م.

٢٦-عبد اللطيف: (عبد الشافي)، تاريخ الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة، القاهرة.

٢٧-ابن العديم: (كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، بغية الطلب، تحقيق د، سهيل زكار، ورياض زركلي بيروت، دار الفكر.

٢٨-ابن عساكر: (القاسم بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي ت ٥٧١هـ /١١٧٥م)، تاريخ دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد.

٢٩-......... تهذيب، ابن بدران، مطبعة روضة الشام، دمشق، ١٣٣١هـ.

٣٠-العش: (محمد أبو الفرج)، النقود العربية الإسلامية، المؤتمر الدولي لبلاد الشام، الجامعة الأردنية ١٩٧٤م.

٣١-علي: (جواد)، تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٤م.

٣٢- العلي: (صالح)، امتداد العرب في صدر الإسلام، بغداد ١٩٨١م.

٣٣- العمري: (شهاب الدين أحمد بن يحيى، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مصر، مطبعة الدار.

٣٤- فلهاوزن: (يوليوس) ، تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، لجنة التأليف والنشر والترجمة ١٩٥٨م.

٣٥- ابن قتيبة: (أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦هـ/ ٨٩٠م)، المعارف، تحقيق محمد اسماعيل عبد الله الصاوي، بيروت ١٩٧٠م.
٣٦- قدورة الشامي: (فاطمة)، تطور تاريخ العرب، بيروت.
٣٧- القرآن الكريم.
٣٨- القلقشندي: (أحمد بن عبد الله ت٨٢١هـ / ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩١٣م.
٣٩- ابن كثير: (أبو الفدا اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ/١٣٧١م)، البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف.
٤٠- كرد علي: (محمد)، خطط الشام، دمشق، مكتبة النوري ١٩٨٣م.
٤١- ....الإسلام والحضارة العربية ، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق، ط٢.
٤٢- كمال: (أحمد عادل)، الطريق إلى دمشق، فتح بلاد الشام، بيروت، دار النفائس، ط٢، ١٩٨٢م.
٤٣- نولدكة: (ثيودور)، أمراء غسان من آل جفنة، ترجمة بندلي جوزي، وقسطنطين زريق، المطبعة الكاثولوكية، بيروت ١ض٩٣٣م.
٤٤- ابن هشام: (أبو محمد عبد الملك بن هشام ت ٢١٣هـ /٨٢٨ م)، السيرة النبوية، بيروت، دار الجيل ١٨٧٥م.
٤٥- ابن هلال العسكري: (حسن بن عبد الله م بعد ٣٩٥هـ /١٠٠٥م) الأوائل
٤٦- الواقدي: (أبو عبد الله محمد بن عمر ت ٢٠٧هـ / ٨٢٣م)، فتوح الشام، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٤٧- اليعقوبي: (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧ م)، تاريخ، بيروت، دار صادر ١٩٦٠م.

المراجع الأجنبية:

1- Butler، A. J.: The Arab conquest of Egypt، the last chirty years of the Roman Domibion.

2- Haddad, George: Article: The Fall of Damascus in th -33 Hands of The Saracens, Beirut, March 30, 1928.

3- H. Lammens. LaRe Publique Marchande De La Mecque Vers La naboo De Notreere.

The chronicle of theofhanes، philodelphia 198-4

5-R. Simon, Humset I laf. ou Conmeree Sans Guerre, Csur La Gene Seetle Cara Ctoredu Commerce Ca Mecque, Acte Orientalia Aee ademm Scientia Cum, Hungarica 1970 Tommusx.

البيروني: صفحة مضيئة في التاريخ العلمي العربي الإسلامي

الأستاذ الدكتور علي حسن موسى

قسم الجغرافية

جامعة دمشق

البيروني: صفحة مضيئة في التاريخ العلمي العربي الإسلامي

الأستاذ الدكتور علي حسن موسى
قسم الجغرافية
جامعة دمشق

لقد عاش البيروني في نهاية عصر النهضة العلمية العربية الإسلامية، معاصراً لعدد من العلماء العرب الأفذاذ كما ابن سينا، وابن الهيثم. ويعدُّ تتويجاً لذلك العصر، بما قدمه من إنجازات في ميادين علمية مختلفة (فلكية، جغرافية، رياضية، طبية، وتاريخية). لنجد البعض يضعه في موضع متقدم على بطليموس الإغريقي. وكتابه القانون المسعودي، لا يقل أهمية عن مجسطي بطليموس، ولذا كان من الأهمية بمكان بعد مرور أكثر من ألف سنة هجرية على وفاته (نحو ٩٦٠ سنة ميلادية) أن يكشف النقاب عن حياته وإنجازاته العلمية والعوامل التي ساعدته في ذلك.

١- مولده ونسبه:

أبو الريحان، محمد بن أحمد البيروني. من مواليد قرية تدعى بيرون في ضواحي مدينة كاث، الواقعة إلى الجنوب من بحر آرال، وكانت في عصر البيروني عاصمة دولة خوارزم. كانت ولادته في الثاني من ذي الحجة سنة (٣٦٢-٩٧٣م).

وقد نسب إلى قريته "بيرون" وعرف بها[١]. غير أن (ياقوت الحموي) يفسر نسبة أبي الريحان، بقوله: "وهذه النسبة البيروني معناها البراني لأن بيرون بالفارسية معناها (برا)، وسألت بعض الفضلاء عن ذلك فزعم أنّ مقامه بخوارزم كان قليلاً، وأهل خوارزم يسمون الغريب بهذا الاسم، كأنهم لما طالت غربته صار غريباً، وما أظنه يراد به إلا أنه من أهل الرستاق[٢].

وعموماً ، فإن هناك شبه إجماع على أن (البيروني) من ضواحي مدينة كاث، وربما من قرابة بيرون – إن كان هناك قرية بهذا الاسم-. أو أنه عرف عند أهالي مدينة كاث بهذا الاسم، لأنه من خارج المدينة، أي من براتها كما يقال حتى يومنا الحالي في بلاد العرب في اللغة المحكية.

ومدينة كاث كانت مشهورة في ذلك التاريخ، وهي التي أنجبت الفلكي الشهير علي أبي نصر منصور بن علي بن عراق الذي توفي سنة (٤٢٥هـ)، وتتلمذ (البيروني) على يديه، ورصد بإشرافه عندما كان في السابعة عشرة من عمره (سنة ٣٧٩هـ) ارتفاع الشمس الزوالي في مدينة كاث. وفي عام (٣٨٣هـ)، رصد منقلب الشمس الصيفي في قرية تقع إلى الجنوب من العاصمة، ولم ينهِ أرصاده الفلكية، لاندلاع الحرب عام (٣٨٤هـ) بمهاجمة أمير الجرجانية سيده صاحب كاث، وأسره وقتله، وانتزع لقبه الذي يتحلى به (الخوارزمشاه)[٣].

وتوفي البيروني في غزنه، الثالث من رجب سنة ٤٤٠هـ (١٣ كانون الأول ١٠٤٨م). وإن كان البعض يرون أن وفاته لا يمكن أن تكون قبل سنة (٤٤٢هـ/

١٠٥٠م)، اعتماداً على قول للبيروني في كتابه (الصيدنة) بأنه عــاش ثمــانين ســنة ونيف. فإن صح ميلاده سنة (٣٦٢هـ) فوفاته يجب أن تكون ســنة (٤٤٢هـ) أو بعدها بقليل، غير أن التاريخ المعتمد لوفاته أكثر ما يكون هو سنة (٤٤٠هـ)[٤].

٢- حياته وتنقلاته:

منذ سنة (٣٨٤هـ) بدأت رحلة التنقل للبيروني، ليحل أولاً في مدينة الري القريبة من طهران ليلتقي فيها بالفلكي الخوجندي (المتوفى سنة ٣٩٠هـ) وليعملا معاً في أرصاد فلكية بواسطة آلة السدس المقامة على جبل مشرف على الري. وقد أعدّ (البيروني) كتاباً حول هذه الآلة وطريقة عملها والأرصاد التي أنجزها بواسطتها[٥].

وبعدها انتقل (البيروني) إلى منطقة جيلان على بحر قزوين، ثم قصد ملوك السامانيين في عهد آخر ملوكهم منصور الثاني بن نوح في عام توليه الملك (٣٨٧هـ)[٦].

وفي عام (٣٨٨هـ) ارتحل (البيروني) وبرفقته (ابن سينا) الذي كان من الذين أحيطوا بعناية وإكرام من ملك السامانيين منصور الثاني، إلى جرجان ليحلا في بلاط أميرهــا قابوس بن وشمكير الزيادي الملقب بشمس المعالي، وفي قصر هــذا الأميــر أنجــز البيروني كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية)، وأهداه إلى شمس المعالي.

كما التقى (البيروني) في جرجان بالطبيب والمنجم والفلكي الشهير أبا سهل عيسى ابن يحيى المسيحي، مستفيداً من علمه وخبرته.

وفي سنة (٤٠٠هـ/١٠١٠م)، عندما أطيح بعرش شمس المعــالي وحياتــه، رجــع (البيروني) إلى خوارزم، واستقر في مدينة الجرجانية التي أصبحت عنــدها عاصــمة الدولة الخوارزمية، ليعمل أستاذاً في مجمع العلوم الذي أسسه أميــر خــوارزم أبــي العباس المأمون آخر أمراء دولة المأمونيين، وكذلك أيضاً ابن ســينا[٧]. وكانــت لــه

حظوة عند أمير خوارزم. وفي هذه الأثناء قام بأرصاد فلكية بواسطة آلة عرفت بالحلقة الشاهية، سجل بواسطتها الانقلاب الصيفي سنة (٤٠٥هـ)[٨].

وفي سنة (٤٠٧هـ) قام بعض جنود أبي العباس المأمون بثورة ضده وقتلوه، مما استدعى دخول صهره محمود الغزنوي خوارزم للانتقام من القتلة، وليضم البيروني إلى حاشيته، منتقلاً بذلك إلى غزنة. وليعيش في بلاط السلطان الغزنوي في غزنة، ورافق السلطان محمود الغزنوي في فتوحاته في بلاد الهند التي استمرت حتى سنة (٤١٥هـ/ ١٠٢٤م)، مما أتاح له الفرصة للإحاطة بعلوم الهند، ومعرفة طبيعة أرضها وشعبها، ليقوده ذلك إلى كتابة كتابه الشهير (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة)، الذي أنجزه سنة (٤٢١هـ) بعد وفاة السلطان محمود الغزنوي بأشهر قليلة في السنة نفسها واستلام السلطنة ابنه مسعود الغزنوي الذي استمر على رأس سلطنته حتى عام (٤٣٩هـ) ليموت قتيلاً، وليخلفه على العرش ابنه (مودود)[٩].

وفي عهد السلطان مسعود الغزنوي أنجز (البيروني) أعظم موسوعة فلكية عربية في التاريخ العربي الإسلامي أطلق عليها تسمية (القانون المسعودي) تقديراً للسلطان وهدية له[١٠]. وهذا الكتاب الضخم يعالج كافة الأمور الفلكية، وهو إذا لم يناظر المجسطي لبطليموس فقد يتفوق عليه.

وقد بقي (البيروني) يحظى بالرعاية والاهتمام والتقدير في عهد السلطان (مودود الغزنوي) ابن السلطان مسعود، وهذا ما مكّنه من إنجاز ثلاثة من كتبه الهامة، هي: كتاب الدستور، كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، وكتاب الصيدلة (الصيدنة) في الطب[١١].

وبالرغم من أن (البيروني) خوارزمياً في مولده، إلا أنه كان عربياً في روحه وثقافته ولغته التي كان يكتب بها كتبه وأبحاثه، حيث يقول في مقدمة كتابه (الصيدنة): "ديننا والدولة عربيان توأمان، يرفرف على أحدهما القوة الإلهية وعلى الآخر اليد السماوية،

وكم احتشد طوائف من التوابع، وخاصة من الجيل والديلم في الباس الدولة جلابيب العجمة، فلم تنفق بهم في المراد سوق. وما دام الأذان يقرع آذانهم كل يوم خمساً، وتقام الصلوات بالقرآن الكريم المبين خلف الأئمة صفاً صفاً، ويخطب به لهم في الجوامع بالإصلاح، كانوا لليدين والفم، وحبل الإسلام غير منفصم وحصنه غير منثلم". وهو القائل أيضاً: (الهجو بالعربية أحب إليّ من المدح بالفارسية)[١٢].

٣- اهتماماته العملية ومؤلفاته:

لقد كان البيروني مثال العالم المسلم في أرقى مراتبه: كان فيلسوفاً، ومؤرخاً، جغرافياً، لغوياً، رياضياً، فلكياً، شاعراً، وعالماً طبيعياً، وخلف مؤلفات في جميع هذه العلوم[١٣].

لقد كان (البيروني) عالماً موسوعياً، محيطاً بعلوم عصره كافة، ومتبحراً في بعضها بحيث لا يجاريه فيها أحد، وذو إنتاج غزير، بحيث بلغ عدد مؤلفاته نحو (١٩٠) مؤلفاً من كتاب إلى مقالة ورسالة. منها نحو (٥٠) كتاباً مقالاً ورسالة في الفلك، ومن مؤلفاته في ذلك:

١- كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية: الذي أنجزه في جرجان سنة (٣٢٨٨هـ)، وأهداه إلى أميرها شمس المعالي. ويبحث في الأيام والشهور والسنين عند مختلف الأمم القديمة، وكذلك في التقاويم، والأعياد عند تلك الأمم... وغير ذلك.

٢- كتاب القانون المسعودي: والذي أنجره في سنة (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م).وسماه باسم السلطان مسعود الغزنوي، تكريماً لهذا السلطان الذي رعاه وهيأ له ما يريد. ويعدّ هذا الكتاب أعظم موسوعة في علوم الفلك والجغرافيا والهندسة والرياضيات. وهو بالتالي أهم مؤلفات (البيروني)، ويشمل (القانون المسعودي) على إحدى عشرة مقالة، كل منها مقسمة إلى عدد من الأبواب، ليبلغ مجموعها كلها (١٤٢) باباً. ولقد قامت دائرة المعارف العثمانية بحيدر

آباد الدكن في الهند في طباعته سنة (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م)، وذلك في ثلاثة أجزاء (مجلدات).

٣- كتاب تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن: أنجز (البيروني)÷ كتابه هذا في سنة (٤١٦هـ) وقد حقق مخطوطة هذا الكتاب ونشرها "ب. بولجاكوف" وراجعها الدكتور إمام إبراهيم أحمد. ويقدم هذا الكتاب حلاً لبعض مشاكل الفلك العملي والجيوديزيا.

٤- كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذوله: وهو كتاب جغرافي بالدرجة الأولى يعالج فيه كل ما يتعلق بجغرافية الهند الطبيعية والبشرية.

٥- كتاب التفهيم أوائل صناعة التنجيم: أنجز كتابته في غزنة سنة (٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م). ولقد نشر (رمزي رايت) النص العربي لهذا الكتاب مع ترجمة له إلى اللغة الإنكليزي في أكسفورد سنة (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م)، وهي النسخة التي بين أيدينا وأطلعنا عليها. وقد قام كاتب هذا البحث بتحقيقه سنة (٢٠٠٤م). والكتاب موسوعة فلكية لها أهدافها وغاياتها ومنهجها العلمي الذي يخدم في النهاية موضوع الكتاب الأساسي الذي يدل عليه عنوانه.

٦- كتاب مقاليد علم الهيئة وما يحدث في سطح بسيط الكرة. ألّفه أبو الريحان البيروني للأصبهبد الجيلجيلان فدشوار جرشاه أبي العباس مرزبان بن رستم ابن شروين مولى أمير المؤمنين، تعبيراً عن خالص محبته وصافي مودته له، فأثبت – كما يقول البيروني – لخزانته المعمورة قضية مبدأ الشكل الكروي الذي يستغني بلوازمه عن الشكل القطاع الذي لا غناء في علم الهيئة، وهذا ما جاء في مقدمة الكتاب.

وقد تمت طباعة الكتاب حديثاً في المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية (١٩٨٥م) بترجمة عن النسخة المكتوبة باللغة الفرنسية وتحقيقه من قبل السيدة "ماري تيريز دي بارنو".

ويؤكد (البيروني) في هذا الكتاب الارتباط الوثيق ما بين العلوم المختلفة، وبخاصة ارتباط علم الهيئة بعلمي الهندسة والرياضيات ، وأنه لا بدّ لعالم الهيئة من أن يكون على معرفة بأصول هذين العلمين. ولقد أثبت هو بكل جدارة أنه بقدر ما هو عالم في الهيئة، فإنه عالم في الهندسة والرياضيات كما هو عالم في الجغرافية والتاريخ.

٧- كتاب الجماهير في معرفة الجواهر: ألّفه البيروني وقدمه هدية للسلطان مودود بن مسعود. وقد نشرته دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهندسة (٣٥٥هـ). وهو من الكتب الهامة في علم الجيولوجيا، وفيه يقدم وصفاً ودراسة للجواهر والأحجار الكريمة (الياقوت، والزمرد، اللؤلؤ، العقيق، اللازورد، الألماس، الفيروزدج...إلخ).

٨- كتاب الصيدنة في الطب: ألّفه في أواخر حياته، ويقول عنه "ابن أبي أصيبعة: "كتاب الصيدلة في الطب" استقصى فيه معرفة ماهيات الأدوية ومعرفة أسمائها واختلاف آراء المتقدمين وما تكلم كل واحد من الأطباء وغيرهم.

٤- القاعدة البيرونية في حساب محيط الكرة الأرضية:

لقد وضع "البيروني" طريقة مبتكرة وبسيطة في آن واحد، لحساب محيط الكرة الأرضية أوردها في آخر كتابه المعنون باسم (الاسطرلاب) كالآتي[١٤]:

"وفي معرفة ذلك طريق قائم في الوهم، صحيح بالبرهان، والوصول إلى عمله صعب لصغر الاسطرلاب وقلة مقدار الشيء الذي يبنى عليه فيه: وهو أن تصعد جبلاً مشرفاً

على بحر أو برية (أرض، تربة) ملساء وترصد غروب الشمس فتجد فيه ما ذكرناه من الانحطاط، ثم تعرف مقدار عمود ذلك الجبل وتضربه في الجيب المستوي لتمام الانحطاط الموجود، وتقسم المجتمع على الجيب المكنوس لذلك الانحطاط نفسه، ثم تضرب ما خرج من القسمة في اثنين وعشرين أبداً. وتقسم المبلغ (الناتج) على سبعة فيخرج مقدار إحاطة الأرض بالمقدار الذي به قدرت عمود الجبل. ولم يقع لنا بهذا الانحطاط وكميته في المواضع العالية تجربة، وجرأنا على ذكر هذا الطريق ما حكاه أبو العباس النيريزي عن أرسطولس، أن أطوال أعمدة الجبال خمسة أميال ونصف، بالمقدار الذي به نصف قطر الأرض ثلاثة آلاف مائتا ميل بالتقريب، فإن الحساب يقضي لهذه أن يوجد الانحطاط في الجبل الذي عموده هذا المقدار ثلاث درجات بالتقريب، وإلى التجربة يلتجأ في مثل هذه الأشياء، وعلى الامتحان فيها يعول، وما التوفيق إلا من عند الله العزيز الحكيم".

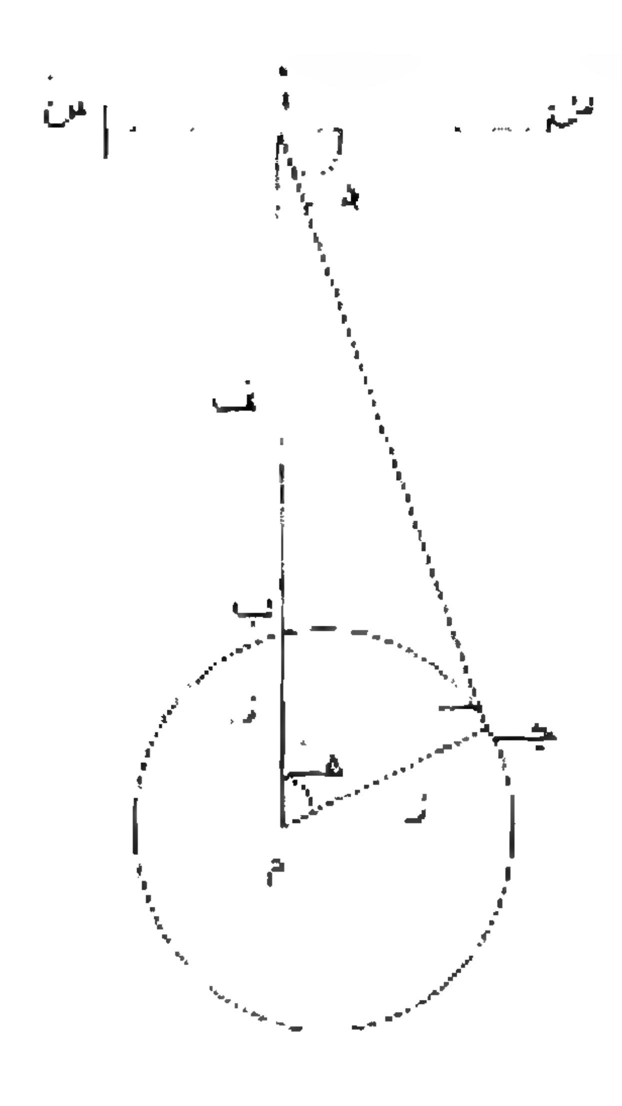
ما سبق هو كلام "البيروني" دون زيادة ولا نقصان، ومن السهولة البرهان عليه وشرحه بلغة حديثة مع كتابة معادلة حساب محيط الأرض التي عرفت بمعادلة أو قاعدة البيروني، وهي كالآتي:

$$ر = \frac{ف \text{ جتا } هـ}{١ \quad \text{جتا } هـ}$$

حيث ر = نصف قطر الأرض. ف = ارتفاع الجبل

هـ = زاوية الانحطاط جتا = تجيب

وفيما يلي شرحاً لاستخراج القاعدة البيرونية من خلال الشكل التالي:



لنفترض أن:

(أ) – قمة الجبل

أ ب – عمود من قمة الجبل باتجاه مركز الأرض (م) ويقطع سطحها (مستوى سطح البحر) في (ب). وبالتالي فإن:

أ ب – ارتفاع الجبل (ف)

ر – نصف قطر الأرض، ويساوي: م جـ، ويساوي ب م

س ش – أفق النقطة (أ)، أي أفق قمة الجبل.

أ جـ – مستقيم مقام من قمة الجبل (أ) ويمتد بشكل مماس للأرض في (جـ).

هـ – زاوية الانحطاط

المطلوب: حساب نصف قطر الأرض (ر)

ن = أ ب + ب م = ف + ر

حيث ن – بعد قمة الجبل عن مركز الأرض

الزاوية أ م جـ (هـ) = الزاوية ج أ س (هـ)

الزاوية (م جـ أ) قائمة في جـ

جتا هـ = $\frac{\text{م جـ}}{\text{أ م}}$

وبالتالي فإن:

جتا هـ = جتا هـ = م جـ / (أ ب + ب م)

م جـ = جتا هـ (أ ب + ب م)

وباعتبار أن: أ ب = ف = (ارتفاع الجبل)

ب م = ر (نصف قطر الأرض)

م جـ = ر (نصف قطر الأرض)

وبالتبديل، تصبح:

ر = جتا هـ (ف + ر)

ر = ف جتا هـ + ر جتا هـ

ومنه: ر − ر جتا هـ = ف جتا هـ

ر (١− جتا هـ) = ف جتا هـ

ومن ثم فإن:

[ر = ف جتا هـ / (١ − جتا هـ)]

وهي قاعدة البيروني.

وبتطبيق هذه القاعدة لحساب محيط الأرض نستخدم علاقة (معادلة) محيط الأرض، وهي:

محيط الأرض (محيط الدائرة) = ٢ π ر

= ٢ × ٢٢/٧ × ر

= ٢ × ٢٢/٧ (ف جتا هـ / (١ − جتا هـ))

حيث أن:

ف: معلومة الارتفاع.

هـ: زاوية معلومة بالقياس

وبعد أن قام (البيروني) في تأليف كتابه في الاسطرلاب، أخرج طريقته التي وضعها لحساب محيط الأرض من القول إلى الفعل، فروى في كتابه (القانون المسعودي) أنه أراد تحقيق قياس المأمون فاختار جبلاً في بلاد الهند مشرفاً على البحر وعلى برية مستوية ثم قاس ارتفاع الجبل فوجده (٢٠/١,٦٥٢) ذراعاً، وقاس الانحطاط فوجده (٣٤) حقيقة، فاستنبط أن مقدار درجة من خط نصف النهار يساوي (٥٨) ميلاً على التقريب (وبالحساب اعتماداً على الجداول اللوغارتيمية يساوي ٥٦,٩٢ ميلاً): فقال: إن حاصل امتحانه هذا التقريبي، كفانا دلالة على ضبط القياس المستقصى الذي أجراه الفلكيون في أيام المأمون[١٥].

وإذا ما اعتمدنا على الرقم (٥٨ ميلاً) كطول الدرجة من خط النهار، فإنها تساوي بالذراع العربي (٥٨×٤٠٠٠ = ٢٣٢٠٠٠ ذارعاً). أما إذا أخذنا الرقم الآخر (٥٦,٩٢ ميلا) فإن طول الدرجة عندها يساوي (٥٦,٩٢×٤٠٠٠ = ٢٢٧٦٨٠ ذراعاً) وبما أن الميل العربي يساوي (١٩٧٣,٢مترا) فإن طول الدرجة يساوي في الحالة الأولى:

$$\left(\frac{\text{٢٣٢٠٠٠}}{\text{١٩٧٣,٢}} = \text{١١٧,٥٧ ميلاً}\right)$$

وفي الحالة الثانية يساوي:

$$\left(\frac{\text{٢٢٧٦٨٠}}{\text{١٩٧٣,٢}} = \text{١١٥,٤ ميلاً عربياً}\right)$$

أما محيط الأرض حسب قاعدة البيروني فيساوي عندها:

$$\text{محيط الأرض} = \text{٢} \times \frac{\text{٢٢}}{\text{٧}} \left(\frac{\text{٦٥٢,٠٥} \times \text{جتا ٣٤}}{\text{١ جتا ٣٤}}\right)$$

$$= \text{٢} \times \frac{\text{٢٢}}{\text{٧}} \left(\frac{\text{٦٥٢,٠٥} \times \text{٠,٩٩٩٩٥}}{\text{١ ٠,٩٩٩٩٥}}\right)$$

$$= \text{٢} \times \frac{\text{٢٢}}{\text{٧}} (\text{١٣٠٤٠٣٤٧,٩٥})$$

= ٨١٩٦٧٩٠١,٤ ذراع

وبما أن الذراع = ٠,٤٩٣٣ م، فإن:

محيط الأرض= ٨١٩٦٧٩٠١,٤ × ٠,٤٩٣٣ = ٤٠٤٣٤٧٦٥,٧٦٠٦٢ متراً

= ٤٠٤٣٤,٧٦ كيلو متراً

أما نصف قطر الأرض فيساوي اعتماداً على قاعدة البيروني:

(١٣٠٤٠٣٤٧,٩٥) ذراعاً، وهذا يكافئ: (٦٤٣٢٨٠٣,٦) متراً، أي نحو (٦٤٣٢,٨) كم.

٦- البيروني في الميزان:

إن (البيروني) من أعظم علماء الفلك في التاريخ العربي والإسلامي، فهو عالماً بكل معنى الكلمة، في موضوعاته ومعالجته ومنهجه. ولقد قيل فيه الكثير، وما يزال يقال عنه الأكثر، من خلال المؤتمرات والندوات العلمية، يدل على ذلك ما كتب عنه في ذكرى مولده في عام (١٩٧٤م) بمناسبة الذكرى الألفية لمولده، في أسبوع العلم الرابع عشر الذي يرعاه المجلس الأعلى للعلوم في سورية، وإصدار كتاب خاص عن (البيروني) تضمن أغلب ما قيل فيه، وما قدمه للعلم والفكر[١٦]. وفيما يلي بعضاً مما قيل فيه:

- قال (ظهير الدين البيهقي): "أبو الريحان البيروني، من أجلاء المهندسين، وقد سافر في بلاد الهند أربعين سنة وصنفت كتباً كثيرة، ورأيت أكثرها بخطه. والقانون المسعودي الذي صنفه في عهد السلطان شهاب الدولة مسعود ابن محمود غرة في وجوه تصانيفه، وله مناظرات مع أبي علي بن سينا..."[١٧].

- أما ياقوت الحموي، فقال: "ذكره محمد بن محمود النيسابوري، فقال: له في الرياضيات السبق الذي لم يشق المحضرون غباره ولم يلحق المضمرون المجيدون مضماره... وكان مع الفسحة في التعبير وجلالة الحال في عامة الأمور، مكباً على تحصيل العلوم، منصباً إلى تصنيف الكتب، يفتح أبوابها

ويحيط بشواكلها وأقرابها، ولا يكاد يفارق يده القلم، وعينه النظر، وقلبه الفكر..."[١٨].

- ويقول (ابن أبي أصيبعة): "كان مشتغلاً بالعلوم الحكمية، فاضلاً في علم الهيئة والنجوم، وله نظر جيد في صناعة الطب، وكان معاصراً للشيخ الرئيس، وبينهما مباحثات ومراسلات..."[١٩].

- ويقول (ابن العبري) المتوفى سنة ٦٨٨هـ في البيروني: "وفي هذه السنين اشتهر بعلوم الأوائل أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، مبحر في فنون الحكمة اليونانية والهندية، وتخصص بأنواع الرياضيات، وصنف فيها الكتب الجليلة، ودخل إلى بلاد الهند وأقام بها عدة سنين، وتعلم من حكمائها فنونهم، وعلمهم طرق اليونانيين في فلسفتهم، ومصنفاته كثيرة متقنة محكمة غاية الإحكام. وبالجملة لم يكن في نظرائه في زمانه وبعده إلى هذه الغاية أحذق منه بعلم الفلك ولا أعرف بدقيقه وجليله.".[٢٠].

- ويرى (جرجي زيدان) أن البيروني: "هو أشهر علماء الفلك والرياضيات من المسلمين في العصر الثالث... وأكثر اشتغاله في النجوم والرياضيات والتاريخ.."[٢١].

- أما المفكر الفرنسي (كارادفو) المتوفى سنة (١٣٥٩هـ/ ١٩٣٩م)/ فيقول: "إن البيروني مفكّر من الطراز الأول، يشغل مكانة خاصة في التأليف العلمي في القرون الوسطى. وعلى الرغم من تقادم الزمن، فإن البيروني يبدو في أيامنا هذه وجهاً فتياً في مضمار العلم، تميز عن عصره، وكأنما انفصل عنه ليقترب منا. إن طبيعة فكره وتقدمه يعدّان حديثان تقريباً، فهو ناقد فطن وعميق، ومحلل شغوف بالتنقيب والبحث. والبيروني كغيره من كبار المفكرين كليونارد دوفينتشي ولينتز، الذي يذكرنا بهما رغم تباعد الزمن.

يجمع البيروني بين الملكات الأكثر تنوعاً، فهو فيلسوف، ومؤرخ، ورحالة، ولغوي، وباحث، وشاعر، ورياضي، وفلكي، وجغرافي..."[٢٢].

- ويقول (صلاح الدين المنجد): "عني الأب بوالو الدومينيكي بإحصاء آثار أبي الريحان البيروني المتوفى بعد سنة (٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م). وقد دفعه إلى ذلك فائدة هذه الآثار في تاريخ العلوم العام، وفي تاريخ الأفكار والمذاهب في العالم الإسلامي.

وبعد أن ترجم للبيروني وذكر مزاياه في الفلك والرياضيات والطبيعة والجغرافيا وعلم الأجناس وتاريخ الأديان والمذاهب... إلخ، وقرر أنه أحد أهم علماء الإسلام وأحد الكبار في كل العصور، صنّف جميع ما تبقى من آثاره وعددها (١٨٠) كتاباً مرتباً على الحروف الأبجدية، فذكر اسم الكتاب بالعربية، وترجمه إلى الفرنسية ومكان وجود مخطوطاته، ونشراته وترجماته، أو ما كتب عنه..."[٢٣].

- أما (د. ج. بوالو) فيقول في البيروني: "والبيروني هو أحد كبار علماء الإسلام في القرون الوسطى، وبلا ريب أكثرهم أصالة وعمقاً. وكان ضليعاً في علوم الرياضيات والفلك والفيزياء والطبيعيات على السواء، وتميز في علوم الجغرافيا والتاريخ والتقاويم وعلوم اللغة، كما كان صادق الملاحظة في الأخلاق والمعتقدات،/ ودعي بذلك الأستاذ"[٢٤].

- ويقول (ديورانت) في كتابه (قصة الحضارة): "إن البيروني هو مثال العالم المسلم في أرقى مراتبه، كان فيلسوفاً، مؤرخاً، جغرافياً لغوياً، رياضياً، فلكياً، شاعراً، وعالماً طبيعياً، وخلف مؤلفات في جميع هذه العلوم. إن منزلته من الثقافة العربية تنزل منزلة (لبينتز) أو (ليوناردو) من ثقافة أوروبة الحديثة"[٢٥].

- ويقول (ماكس مايرهوف): "كان أبو الريحان البيروني، الملقب بالأستاذ، وفلكياً، ورياضيا، وعالماً طبيعياً، وجغرافياً، ومؤرخاً، وربما كان أشهر من العباقرة المسلمين العالميين الواسعي الاطلاع، ومن أولئك العلماء الذي نشروا ظلهم الوارف على العصر الذهبي للإسلام وكسوه بطباعهم..."(٢٦).

- ونختتم الأقوال بما أورده "كراتشوفسكي" بقوله: "وكلما توسع العلم وتعمق في التعرف عليه – أي البيروني – وعلى مصنفاته، كلما بدت شخصيته أكثر عظمة وسمواً. وفي أيامنا هذه أطلق سارتون على الفترة التي تشمل منتصف القرن الحادي عشر، وذلك بالنسبة لتاريخ العلم العالمي، اسم عصر البيروني، لأنه أكبر شخصية علمية عاشت في ذلك الوقت. ولا تزال شخصيته العلمية آخذة في النمو، فقد تم العثور على مواد جديدة تؤكد أحقية هذا العالم الذي ينتمي إلى بلاد ما رواء النهر لكل ما ناله من تقدير وإجلال.."(٢٧).

وللعالم الكبير (البيروني) مكانة مرموقة في علم الفلك في التاريخ العربي والإسلامي، وما يزال حتى يومنا الحالي العالم الفلكي العربي الذي لم يصل إلى مكانته عالم ليس في موسوعيته الفلكية فحسب، وإنما للأفكار والنظريات والطرائق الفلكية التي قدمها والتي ما يزال جزء كبير منها متوافقاً مع المفاهيم الحديثة التي أنتجتها التطورات التقنية في مجال دراسة الكون. وعلى سبيل المثال، فإن :"البيروني" قد أشار تلميحاً أم تصريحاً بفكرة مركزية الشمس بدلاً من مركزية الأرض التي كانت سائدة عند الفلاسفة الإغريق.

الخاتمة:

ليس هناك مما يقال في البيروني أكثر مما قيل عنه، فهو بحق العالم الذي قدم للعلم خدمات جليلة، ليس بكثرة مؤلفاته، وإنما بنوعيتها التي غلب عليها الفلك والهندسة والجغرافية، وهي ثلاثية علمية لا مندوحة لمن يريد الإبحار في رحاب أي منها من الاستعانة بالأخرى. ولكن يبقى الجانب الفلكي الأغلب، والذي أبدع فيه وقدم إنجازات كبيرة، يكفيه هنا طريقته في حساب محيط الأرض، وفكرته عن مركزية الشمس لمجموعتها التي سجلت بعده بنحو ستة قرون لكوبرنيكوس. ورغم أن البيروني كتب في التنجيم، وله كتاباً تعليمياً في ذلك، فإنه العالم الذي حافظ طوال حياته العملية على منهجه العلمي، مبتعداً عن الخرافة والدجل، والادعاء فيما ليس له فيه، وإنه العالم الذي يجب أن يحاذى به، فبالعلم ترقى الأمم وتتطور، والعلماء منارة الحياة، وأمل المستقبل.

الهوامش

(١) الشحات، علي أبو الريحان، البيروني، ص ٩٧.

(٢) الرستاق: القرى المحيطة بالمدينة، وهذا يعني أنه من إحدى القرى المحيطة بمدينة كاث.

(٣) الكتبي، زهير، محمد بن أحمد البيروني، ص ١١.

(٤) الشحات، علي، ص ٧٢.

(٥) الكتبي، زهير، محمد بن أحمد البيروني، ص ١١.

(٦) **المرجع نفسه**، ص ١١.

(٧) الشحات، علي، ص ٦٨-٦٩.

(٨) الكتبي، زهير، محمد بن أحمد البيروني، ص ١٣.

(٩) الكتبي، زهير، محمد بن أحمد البيروني، ص ١٦.

(١٠) الشحات، علي، ص ٧٠-٧١.

(١١) الكتبي، زهير، محمد بن أحمد البيروني، ص ٢٩.

(١٢) **المرجع نفسه**، ص ٧٤.

(١٣) ديورانت، **قصة الحضارة**، مج٤، ج٢/١٩٣.

(١٤) نللينو، كرلو، **مرجع سابق**، ص ٢٩٠-٢٩١. الكتبي، زهير، محمد بن أحمد البيروني، ص ٥١. الدفاع، علي عبد الله، **أثر علماء العرب المسلمين في تطوير علم الفلك**، ص١١٧. طوقان، قدري، **مآثر العرب في الرياضيات والفلك**، ص٦٣.

(١٥) البيروني، **القانون المسعودي**، ج٢/٥٣٠-٥٣١.

(١٦) المجلس الأعلى للعلوم، "البيروني".**أسبوع العلم الرابع عشر**، دمشق، ١٩٧٤.

(١٧) البيهقي، **تاريخ حكماء الإسلام**، ص ٧٢.

(١٨) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، ١٧/١٨٠-١٩٠.

(١٩) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأدباء في طبقات الأطباء**، ج٢، ص ٣٠.

(٢٠) ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ٣٢٤-٣٢٥.

(٢١) زيدان، جرجي، **تاريخ آداب اللغة العربية**، ج٢/٣٦٩.

(٢٢) كادافور، **مفكرو الإسلام**، ج٢/٧٥-٧٦.

(٢٣) المنجد، صلاح الدين، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مجلد ٣، جزء ١، ١٩٥٧، ص ١٥٨.

(٢٤) د. ج. بوالو، **الموسوعة الإسلامية**، الطبعة الجديدة، ١٩٦٠، ص ١٢٧٣.

(٢٥) ديورانت، مج٤، ج٢/١٨٣.

(٢٦) مايرهوف، ماكس نت، **العلم والطب**، ص ٤٧٦.

(٢٧) كراتشوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي**، ج٢/٢٤٥.

المراجع والمصادر

١- ابن ابي أصيبعة "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، المطبعة الوهبية، ط١، ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م.

٢- ابن العبري، تاريخ مختصر الدول"، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٠م.

٣- البيروني، "كتاب القانون المسعودي"، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ثلاثة أجزاء، ج١/١٩٥٤، ج٢/١٩٥٥، ج٣/١٩٥٦.

٤- بولوبدج، الموسوعة الإسلامية، الطبعة الجديدة، ١٩٦٠، ص٢٧٣.

٥- البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام"، تحقيق محمد كرد علي، المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٤٦.

٦- الدفاع، علي عبد الله، وشوقي، جلال "أعلام الفيزياء في الإسلام" مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.

٧- ديورانت، ول " قصة الحضارة" الجزء الثاني، المجلد الرابع، عصر الإيمان، ترجمة: محمد بدران، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤.

٨- زيدان، جرجي "تاريخ آداب اللغة العربية" دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٧.

٩- الشحات، علي أحمد "أبو الريحان البيروني" دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.

١٠- طوقان، قدري حافظ، "تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك" مطبعة المقتطف، القاهرة، ١٩٥٤.

١١- موسى، علي حسن "علم الفلك في التراث العربي" دار الفكر، دمشق، ٢٠٠١.

١٢- كارادافو، مفكروا الإسلام، باريس، ١٩٢١.

١٣- الكتبي، زهير "محمد بن أحمد البيروني" وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢.

١٤- كراتشكوفسكي "تاريخ الأدب الجغرافي" ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، موسكو، ١٩٥٧.

١٥- المجلس الأعلى للعلوم "البيروني"، أسبوع العلم الرابع عشر، دمشق، ١٩٧٤.

١٦- المنجد، صلاح الدين، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد ٣، ج١، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٥٨.

١٧- نيللينو، كرلو "علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى"، روما، ١٩١١.

١٨- ياقوت الحموي، معجم الأدباء.

ضريح الإمام ابن مرزوق الحفيد

(دراسة للشخصية و المعلم)

الدكتورة مهتاري فايزة

أستاذة بقسم علم الآثار

تلمسان

ضريح الإمام ابن مرزوق الحفيد
(دراسة للشخصية و المعلم)

الدكتورة مهتاري فايزة

أستاذة بقسم علم الآثار

تلمسان

ملخص:

يعدُّ محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق، الحفيد العجيسي التلمساني من أعلام العلماء وأشهر الأولياء بتلمسان، كان حجة في الفقه والزهد والورع وقد لعبت هذه الشخصية دوراً هاماً في إثراء المخزون الثقافي والعلمي بتلمسان، عاش تحت الحكم الزياني بتلمسان، بعد أن طرد أبو حمو موسى الثاني المرينيين نهائيا من تلمسان بخمس سنوات، دفن ابن مرزوق الحفيد بنفس الضريح الذي دفن به جده الأكبر. بحذاء المسجد الأعظم بتلمسان، وسنتعرض للضريح بالتفصيل لأنه من نماذج الأضرحة التي تقع ضمن المجمعات المعمارية البارزة.

وستظهر الدراسة المعمارية للضريح أهم العناصر المعمارية،وأهم المناحي الخاصة بالمعلم.

١- حياة ابن مرزوق الحفيد:

هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق الحفيد العجيسي التلمساني الإمام المشهور والحجة الحافظ التقي الصالح الزاهد الورع، الولي الصالح العارف بالله الآخذ من كل فن بأوفر نصيب ... حجة الله على خلقه المفتي الشهير السني، الجامع بين المعقول والمنقول والحقيقة والشريعة بأوفر محصول(١).

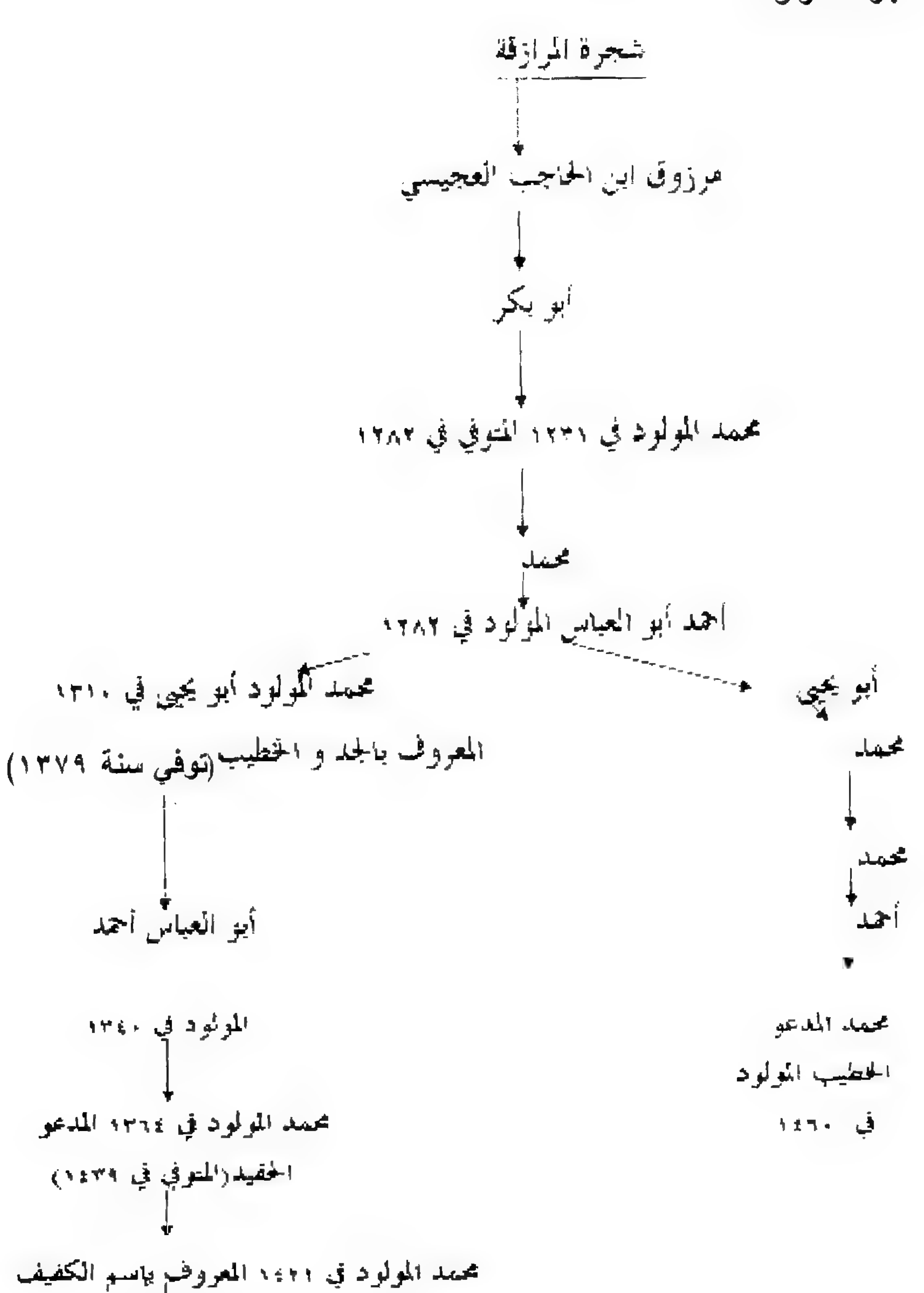
ولد بتلمسان عام ٧٦٦ هـ / ١٣٦٤م، أخذ العلم عن والده الذي كان مفتياً مشهوراً، كما جمع بين معرفة التفسير. والإطلاع بحقائق التأويل، أما زهده وصلاحه فقد سار به الركبان واتفق على تفضيله وخيرته الثقلان(٢).

وقد أخذ الشيخ بن مرزوق الحفيد عن جماعة من المشائخ والمعلمين منهم الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد عبد الله ابن الإمام، العلم الشريف التلمساني*، والإمام سعيد العقباني* والولي أبو إسحاق المصمودي وغيرهم من مشاهير العلماء. كما تتلمذ على يد من جماعة من السادات كالشيخ عبد الرحمن الثعالبي، وقاضي الجماعة عمر القلشاني، و الولي الحسن أبركان .

حج قديما سنة ٧٩٠ رفيقا لابن عرفة و فيها قرأ البخاري على ابن صديق، ثم حج سنة ٨١٩. تآليفه كثيرة منها شروحه الثلاثة على البردة الأكبر، المسمى إظهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة، ومنها المفاتيح القرطاسية في شرح الشقراطيسية، والمفاتيح المرزوقية في استخراج رموز الخزرجية، ونور اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين والكثير من التآليف المشهورة.

توفي بن مرزوق الحفيد، يوم الخميس رابع عشر شعبان عام ٨٤٢ اثنين وأربعين وثمانمائة ودفن يوم الجمعة بالجامع الأعظم من تلمسان رحمه الله.

شجرة المرازقة



ضريح ابن مرزوق الحفيد:

يقع ضريح الشيخ الحفيد بن مرزوق بحذاء المسجد الأعظم بتلمسان، وقد أمر الوالي المرابطي ببناء هذا المسجد الجامع سنة ١٠٧٠م وهو يقع في قلب المدينة الجديدة " تاقرارت" وقرب الحي التجاري القيسارية والأسواق الأخرى.

يقع ضريح ابن مرزوق الحفيد في الزاوية الجنوبية الغربية للمسجد الأعظم، وقد أنشأ يغمراسن ابن زيان الضريح الذي دفن فيه محمد بن مرزوق، عند ما كان يوسّع المسجد وأنشأ المنارة ".

وقد وجدنا بالمتحف البلدي لتلمسان شاهدة جلبت من ضريح ابن مرزوق الحفيد وبها الكتابة الآتية:

شاهدة قبر محمد بن مرزوق.

بها سبعة أسطر من الحجر الرّملي، وكتابة مغربية وفي شوكتي الشاهد زخرفة نباتية عبارة عن مراوح نخيلة.

الحمد لله هذا قبر الشاب الأسعد أحمد بن الفقيه العالم الشيخ.

محمد بن مرزوق توفي رحمه الله أول محرم سنة ألف وماية وخمسة.

يحتوي الضريح على قسمين: الأول ندخل إليه بواسطة الباب الموجود على يسار مدخل الجامع الأعظم، يبلغ طوله 1,10 م وعرضه ٨٠ سم معقود بعقد مدبب لنجد فناء وهو عبارة عن قاعة مستطيلة الشكل طولها 2,62م وعرضها 1,44 م، وهي غير مغطاة بها شجرتان أولاها شجرة ليمون والثانية شجرة فاكهة (انظر اللوحة رقم ٠١).

ندخل إلى قاعة الضريح بواسطة باب عادي غير معقود يبلغ طوله 1,70 م وعرضه ٩٠ سم لنجد أن الضريح ينقسم إلى جزأين الجزء الأول يقع على يسار المدخل، وهو قاعة الدّفن والجزء الآخر يقع على اليمين وهو عبارة عن ممر ينتهي من خلال باب آخر إلى جزء من أجزاء المسجد الأعظم .

أمّا على اليسار فنجد ثلاث حنيات جدارية، الأولى تعلو الباب المؤدي إلى قاعة الدفن و يبلغ علوها 2,00 وعرضها 2,30 وعمقها 0,25 سم، الحنية الثانية الموجودة على يمين المدخل والتي تتواجد ضمنها شواهد قبر ابن مرزوق يبلغ طولها 2,25م وعرضها 2,00م، وعمقها 0,25 سم. (انظر الشكل). الجدار الأيسر للمدخل به حنيتان جداريتان الحنية الكبرى يبلغ طولها 2,25م و عرضها 2,32م، أمّا الحنية الصغرى فيبلغ طولها 2,00 و عرضها 1,47 م. وهاتان الحنيتان موجودتان ضمن الجدار الخارجي المطل على القاعة المكشوفة للضريح. ومع أن الجدار المقابل للمدخل لا يحمل حنايا ركنية إلاّ أنه خارج الضريح يمكننا أن نرى حنية جدارية.

كلّ الحنيات معقودة بعقد مدبب، و بها نوافذ فعلى يسار المدخل نجد نافذة يبلغ طولها ٤٠سم و عرضها ٢٠ سم، معقودة بعقد نصف دائري وفي أسفلها نافذة كبيرة فتحت لإدخال الضوء والهواء، وبالجدار المقابل للمدخل نجد نافذتان مفتوحتان لإدخال الضوء والهواء وأخيراً بالجدار الأيمن للضريح نجد نافذة تحتل وسط الحنية يبلغ طولها ٧٦ سم وعرضها ٣٤ سم. وهي معقودة بعقد نصف دائري وتعلوها نافذة مغلقة.

- على يسار المدخل وفي اتجاه القبلة نجد محراباً معقوداً بعقد مدبب والمحراب خال من أية زخرفة وبسيط.

يتم الانتقال في الضريح من المربع إلى المضلّع، بواسطة حنايا ركنية على شكل نصف قبو متقاطع ويتخالف عن تعارض ضلوعها جوفات مثلثة، ترتكز القبة ذات ٨ أضلاع على أسطوان مربع يبلغ طوله 1,20 م أما ارتفاع القبة و1,80 م وتظهر القبة من الخارج ذات ٨ أرداف.(أنظر اللوحة رقم ٠١)

وتحتل شوكتي شواهد قبر ابن مرزوق محارة ذات ٨ باتلات و بها الكتابة التالية (انظر اللوحة رقم٠٢).

بسم الله الرحمن الرحيم:

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما " إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ".

الحمد لله هذا قبر محمد ابن مرزوق العجيسي رحمه الله تعالى برحمته ورحم الزائرين	توفي ليلة الجمعة الخامس عشر من شهر شعبان المعظم عام اثنين وأربعين وثمانمئة هجرية عن قضاء الله تعالى خيره وبركته سنة ٨٤٢. هـ رحمه الله ورحم من رفق عليه ودعا له.	والصلاة والسلام على محمد من حلّ الأرض في عصر ركائز الرسائل على الإطلاق هو ابن مرزوق وجيل العلى علامنا توفي بالإطباق رضي الله عنه ونفع به.

كما وجدنا نافذة مغلقة بالضريح و هي على هيئة خزانة، تظهر حديثة العهد، بها مجموعة من الكتب، و فوقها إطار خشبي به زخرفة ويحمل العبارة التالية.

ولا غالب إلاّ الله: بسم الله الرحمن الرحيم : "وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾".

- لا توجد أية زخرفة جصيّة أو هندسية ضمن جدران الضريح، و هذا النموذج من الأضرحة غريب الشكل عن ما سارت عليه العادة في الأضرحة، اذ أنّ قاعة الضريح تظهر على هيئة قاعة جلوس عادية و هي تستعمل لذكر الله.

البيبليوغرافيا:

١-المصحف الشريف (من سورة الكهف الآيات ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، سورة الفتح الآية : ٥٨- ٥٩)

٢-ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن محمد الشريف المليتي المديوني) :" البستان في ذكر،الأولياء والعلماء بتلمسان"،المطبعة،الثعالبية الجزائر،سنة (١٣٢٦هـ،١٩٠٨م)، ص ص ٢٠١-٢٠٢.

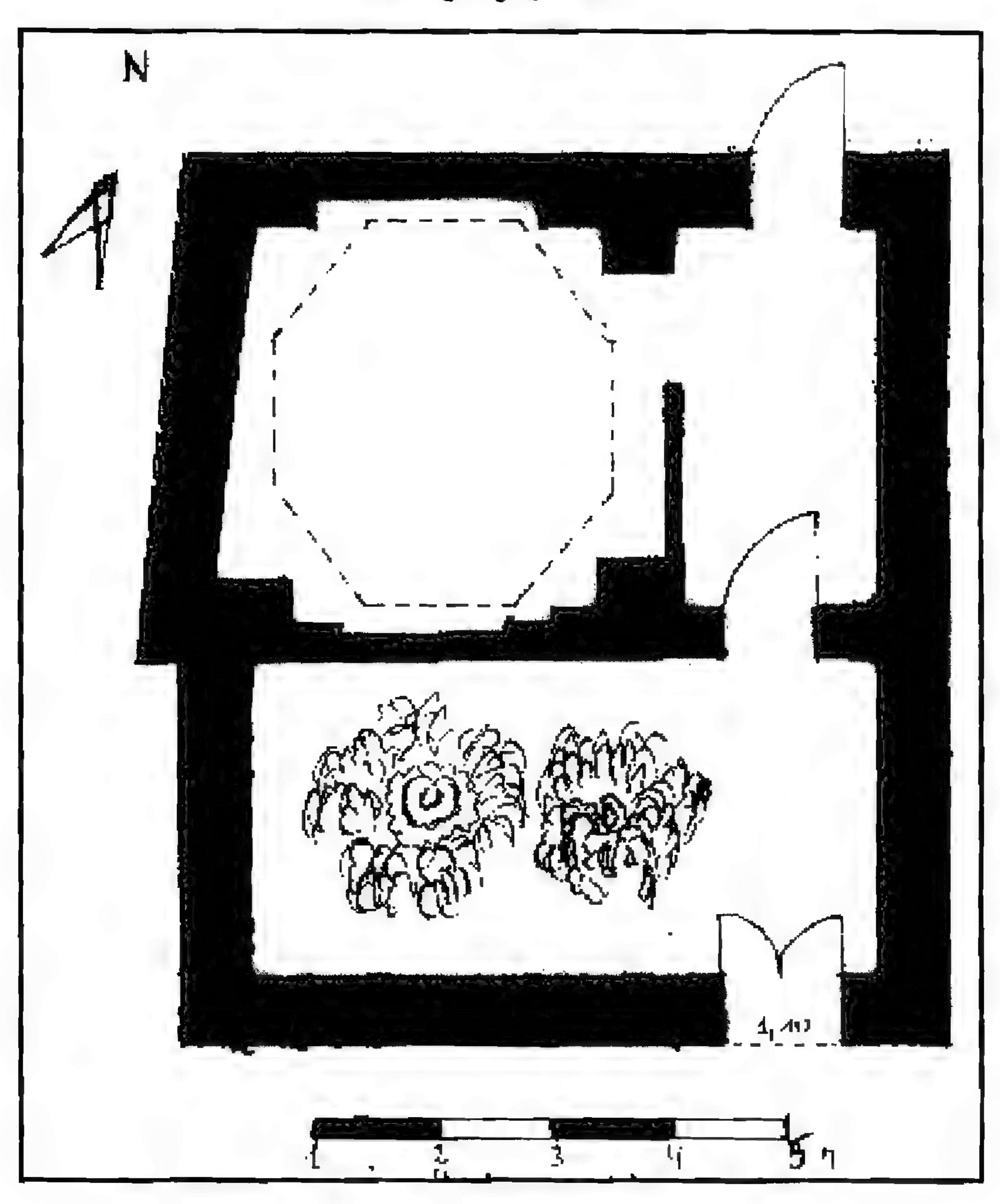
٣-ابن مريم: نفس المصدر السابق، ص ص ٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤.

* الشريف التلمساني : هو أبو عبد الله محمد بن احمد بن الشريف أصله من قرية العلويين الواقعة في شمال تلمسان وتسمى اليوم قرية عين الحوت، ولد عام ٧١٠ هـ /١٣١٠م وبها نشأ ودرس على علمائها كابني الإمام و الآبلي ... ألقى العديد من الدروس بالمدرسة اليعقوبية وتوفي عام ٧٧١ هـ / ١٣٧٠م (للمزيد أنظر إلى محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق، ص ٤٢٦ - ٤٢٧، و البستان ص ٢٢٢)

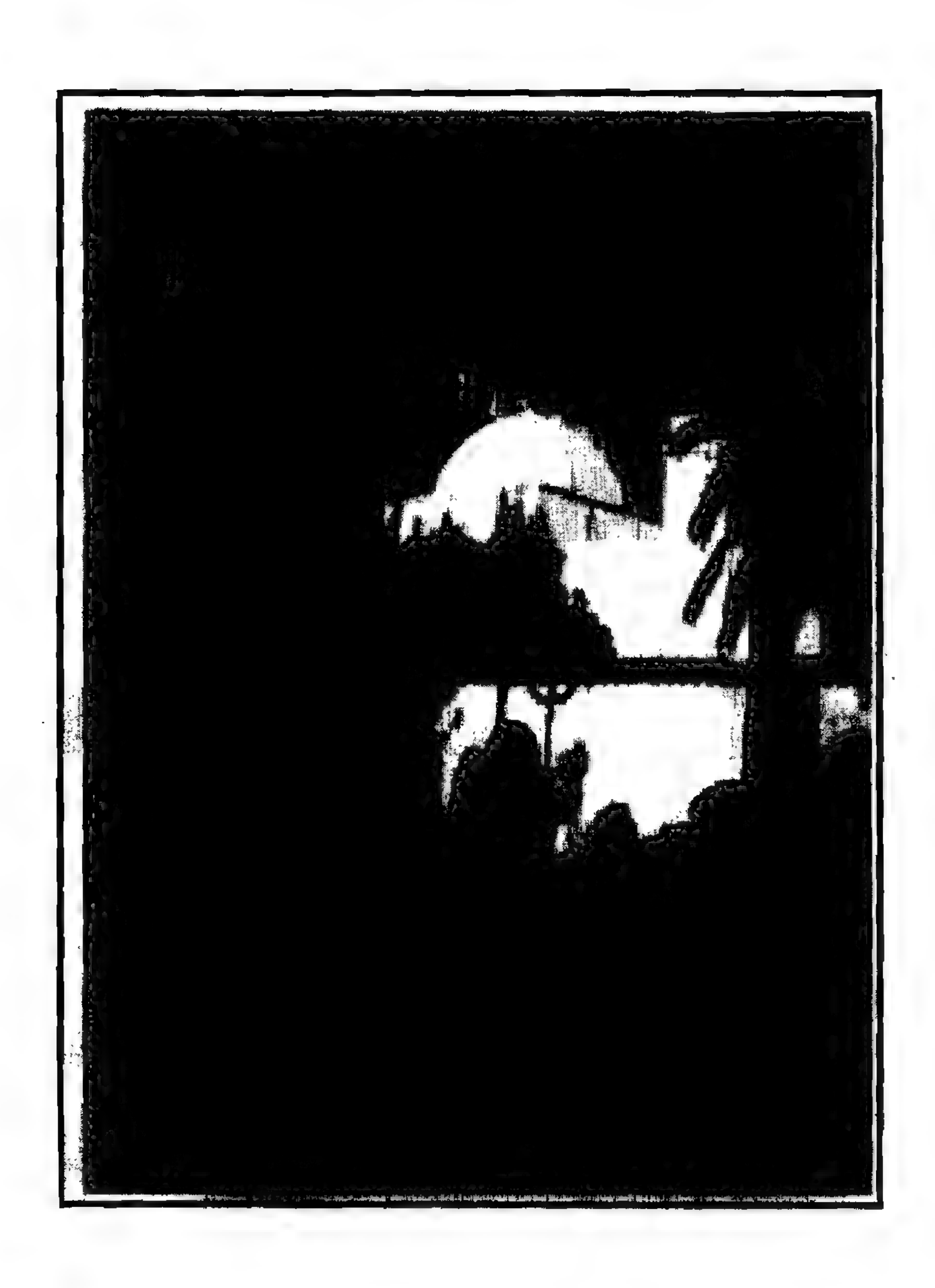
* السعيد العقباني : أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد العقباني التوجيبي التلمساني ولد بتلمسان سنة ٧٢٠ هـ وتوفي سنة ٨١١ هـ والعقباني نسبة لقرية من قرى الأندلس تسمى عقبان، نسبة لعقاب اسم قرية، أخذ عن الآبلي، و عن ابني الإمام ووصفه ابن فرحون بأنه فقيه في مذهب مالك، وكان يقال له رئيس العلماء والعقلاء و تخرج عليه كثيرون مثل أبي الفضل بن الإمام والحفيد ابن مرزوق وإبراهيم المصمودي ... تولى القضاء في تلمسان وبجاية وسلا (للمزيد أنظر البستان لمؤلفه إبن مريم ص ١٠٦ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية للمؤلف محمد بن محمد مخلوف، ج١ ص٢٥٠ والديباج المذهب لابن فرحون ص ١٢٤ - ١٢٥ و كذا فهرست الرصاع لأبي عبد الله محمد الأنصاري، ص١١٥ - ١١٦ .

٤- ابن مريم، نفسه، ص ٢١٢.

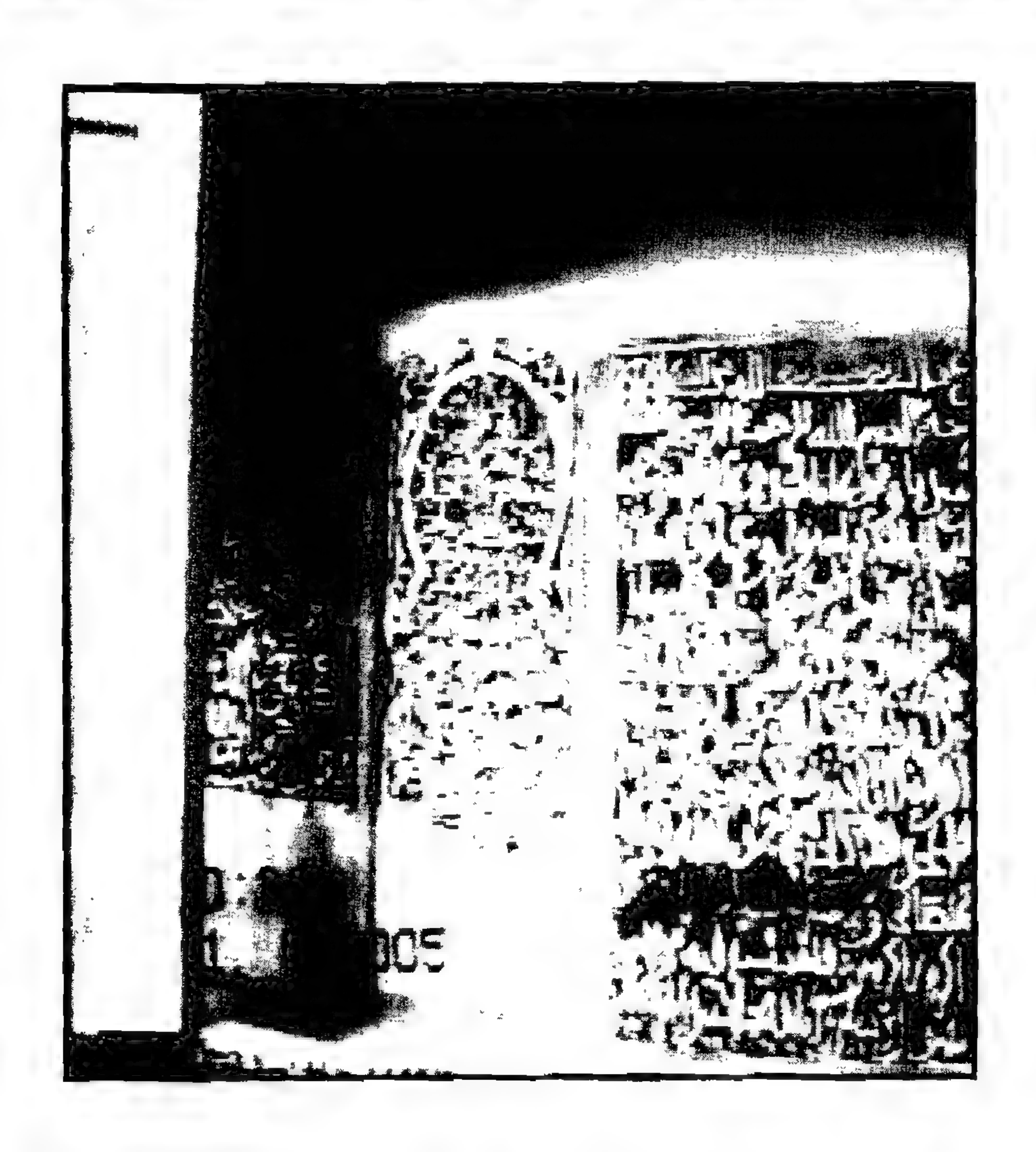
الأشكال واللوحات



(الشكل) : مخطط أفقي لضريح ابن مرزوق الحفيد



(لوحة رقم 1): منظر خارجي لضريح الحفيد ابن مرزوق



(لوحة رقم ٢): شواهد قبر ابن مرزوق الحفيد

الوقف في الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر (حماه وحمص أنموذجاً)

الأستاذ الدكتور محمود عامر

الوقف في الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر (حماه وحمص أنموذجاً)

الأستاذ الدكتور محمود عامر

تهدف دراسة الوقف في الدولة العثمانية إلى إيضاح الاهتمام الخاص الذي أولته الدولة العثمانية لأملاك الوقف في مختلف ولاياتها ومدى أهميته ومكانته في المجتمع الإسلامي ولاسيما العثماني، وقد آثرنا دراسة نماذج من الوقف في صنجقي حماة وحمص، نظراً لما قدمته الأوقات فيهما من مساعدات مادية ورعاية تربوية للأهالي، فقد خصصت بعض أماكن من الوقف لإيواء اليتامى والمساكين، كما خصصت مبالغ مالية للعائلات الفقيرة، غير أن أملاك الوقف قد شهدت استئثاراً من بعض أصحاب النفوذ، وهذا ما دفع الدولة العثمانية إلى تشكيل لجنة لمعاينة أملاك الوقف في صنجقي حماة وحمص سنة ١٥٤٠م وتعيين موظفين من السكان المحلين للإشراف على واردات هذا الوقف، كما حدث تباين في أملاك الوقف في صنجق حماة وحمص، لأن بعض أصحاب النفوذ كانوا ومنذ قرون قد وضعوا أيديهم على أملاك كانت لمسيحيين فروا مع دخول القوات العثمانية إلى المدينة، وقد ظلت لسنوات شاغرة. وفي سنة ١٥٤١م قامت هيئة من علماء حمص بوضع اليد على تلك الأملاك وعدوها من أملاك الوقف، غير أن خلافاً نشب بين الهيئة العلمية وبعض الملاكين والمزارعين بحجة أن هذه الأملاك ليست لمسيحيين فروا من حمص، مما دفع الدولة العثمانية إلى تشكيل لجنة قضائية برئاسة القاضي محمد زاده جلالي يساعده عدد من علماء حمص، وقد أقرت اللجنة أن منطقة مقام خالد بن الوليد وما يتبعه شرقاً وغرباً على مساحة وقدرها

٢٠٠٠ م تخصص لفقراء حمص، أما نفقات التكايا مع واردات خان السبيل والبساتين المجاورة لبيمارستان النوري توزع كما هو متعارف عليه، وبما أن هذه الأملاك لم تخصص لها سجلات رسمية، فقد عمدت الدولة العثمانية إلى تنظيم سجلات، ولهذا عمدنا إلى دراستها من خلال السجلات العثمانية، علماً بأن تلك السجلات لم توضح بشكل جلي واردات ومصاريف الأوقاف في صنجقي حماة وحمص، ورغم ذلك فقد آثرنا تقديم أنموذجاً من الوقف فيهما سواء أكان الوقف عيني أو نقدي ، مع الإشارة إلى بعض المدن الأخرى.

إن الوقف بمفهومه العام، نوع من أنواع التصرف في الملك، ومنذ القديم فكر الإنسان في الحبس الخيري، بناءً على تفكيره في الحياة الآخرة، وفي الثواب والعقاب، وبعد أن اتسعت الملكية الخاصة، أراد الناس استبقاءها في ذريتهم. وكان الفراعنة قد فكروا في حبس أموالهم ليصرف ريعها على أرواحهم ومقابرهم، وفي القرن السابع عشر كان ثلث مساحة فرنسة محبوسة لأعمال خيرية مسيحية.

الوقف في الإسلام:

لم يرد ذكر الوقف صراحة في القرآن الكريم، ولم يظهر لدى المسلمين إلا في السنة السابعة للهجرة، وقد تم اعتماد وجود الوقف في الفقه الإسلامي على أصول ثلاثة:

أولاً: قول النبي الكريم ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»، وبذلك يكون الوقف نوعاً من الصدقات، والصدقة الجارية المذكورة في الحديث النبوي صلوات الله عليه تتحقق بالوقف.

ثانياً: ما أخرجه البخاري: «عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمراً أصاب بخيبر أرضاً فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضاً لم أصب مالاً قط أنفس عندي منه، فما تأمرني به؟ قال: إن شئت حبست أصلها، وتصدقت بها، فتصدق بها عمر: على أنه لا يباع أصلها، ولا يوهب ولا يورث، وتصدق بها في

الفقراء وفي القربى وفي الرقاب وفي سبيل الله والضيف وابن السبيل، ولا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، أو يطعم غير متمول»[١].

ثالثاً: ثبوت أن الصحابة جميعاً قد وقفوا. وهذا يعد بحد ذاته مبدأ الوقف وأساسه في الإسلام[٢].

تعريف الوقف لغة واصطلاحاً:

هو في اللغة الحبس، ويقال: وقفت الدابة إذا حبسها على مكانها، ومنه الوقف ولأن الناس يوقفون أي يحبسون للحساب[٣]. وهو ثلاثي من الباب الثاني، يقال: وقف يقف وقفاً، ولا يأتي رباعياً إلا في اللغة الرديئة. ويشتهر استعمال المصدر باسم المفعول، فيقال هذه الدار وقف، أي موقوفة، ولهذا فإنه يثنى ويجمع عندئذ. فيقال: وقفان وأوقاف[٤].

أما بشأن تعريفه اصطلاحاً: فقد اختلف العلماء في تعريفه في الشريعة الإسلامية، وذلك تبعاً لاختلافهم في حقيقته ونوع الملكية الثابتة به. ولقد عرفته الشافعية والحنبلية والصاحبان أبو يوسف ومحمد بن حنيفة بأن الوقف حبس الواقف العين على حكم ملك الله تعالى وصرف منفعتها على من أحب، ومعنى ذلك إخراج العين الموقوفة من ملك الواقف إلى ملك الله تعالى، فلا يجوز له بعد ذلك التصرف فيها أو الرجوع في الوقف ولا تورث عنه لخروجها عن ملكه. هذا في حق العين الموقوفة، أما المنافع فهي لمن وقف عليهم، تنتقل بينهم بحسب شروطه [٥].

أما المالكية فقد ذهب علماؤها بالقول إلى أن عين الموقوف لاتزال على ملك الواقف، لا تخرج عنه بالوقف، إلا أن الواقف ملزم بالتبرع السريع والمنافع على وقف شرطه، وهو ممنوع من التصرف بالعين تصرفاً يخرجها عن ملكه كالبيع والهبة [٦].

أما أبو حنيفة فيرى: أن الوقف هو حبس العين على ملك الواقف والتصدق بالمنفعة[٧].

أما الشافعية فلم تُجِزْ رجوع الواقف في وقفه ولا تغيير مستحقيه أو شروطه في حياته

وليس لورثته ذلك بعد موته أيضاً. أما المالكية فقالت عين الموقوف عندهم لا تخرج بالوقف عن ملك الواقف[٨].

يعدّ قانون الوقف إنجازاً حضارياً رائداً على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي. فالوقف رؤية إصلاحية أضاءت على من حولها من قوى بشرية حيث حولت حياة قسماً كبيراً منهم إلى مجموعة صالحة خلقياً واجتماعياً.

لقد أسهم الوقف في التشكيل الاجتماعي والسياسي والديني والاقتصادي للمناطق الحضرية في العالم الإسلامي، حيث مسّت مؤسساته الوقفية تقريباً كل مستوى من مستويات الحياة لطبقات المجتمع في الدول الإسلامية عامة والعثمانية خاصة، بدءاً من الأفراد الذين أسسوا الوقف إلى الذين أتمّوا عقود الإيجار على وقف الملكيات الموهوبة الذين عملوا في الأراضي الموقوفة.

لقد أدى الوقف دوره كمؤسسة خدمية لا مركزية في العالم الإسلامي، وأسهم الوقف في الخدمة الاجتماعية لشعوب الدولة العثمانية حتى القرن التاسع عشر، حيث أدى الوقف دوراً مهماً في تأمين خدمات تعليمية وصحية، وتوفير المأوى والطعام للمحتاجين.

ويشترط في الوقف العيني:

١- أن تكون الملكية عقاراً أو شيئاً تتوافر فيه صفة الديمومة. أرضاً، محلات، طواحين، بساتين.

٢- أن يكون الوقف منجزاً غير معلق على شرط، كأن يقول: إن جاء ابني من السفر فداري الفلانية وقف على الفقراء والمساكين.

٣- يجب أن تمنح الملكية للأبد. بعض الخبراء القانونيين يرون أن الوقف المؤقت يجوز فقط في وقف العائلات.

٤- يجب أن يتمتع موجد الوقف بالأهلية القانونية.

٥- يجب أن يكون الإحسان فيه للجميع.

ويجب أن يتوافر في المؤسسة الوقفية شرطان:

١- أن تكرّس حقوق ملكيته أي تأدية خدمة عامة ومنع إعادة ملكيته من قبل الآخرين.

٢- دوام هذا التكريس.

إن منافع الملكية المعطية يمكن أن تستعمل لتمويل نشاطات المؤسسة من دون استنفاذ الملكية نفسها، ولذلك فإن الوقف يدوم طالما أصوله تدوم. ويشترط ممن أقام الوقف أن يكون مسلماً حياً وأن يتم تسجيل الوقف في المحكمة. كما أن شروط موجد الوقف يجب أن تطبق بالضبط، ولا يمكن تغيير أهداف الوقف، وفي حال أن سبب إيجاد الوقف لم يعد مناسباً لشروط وجوده، فيجب أن يخدم الوقف المجالات القريبة من أهدافه، وفي حال استحالة ذلك فإن مصادر الوقف سوف تخصص للفقراء والمحتاجين. لأن كل وقف يجب أن يدار من قبل متولي يسميه موجد الوقف، حيث يقوم متولي الوقف بإدارته بناءً على الأولويات والمعايير التي وضعها المؤسس، ومتولي الوقف مسؤول عن حفظ الوقف وإدارته بطريقة تحقق الاستفادة القصوى من منافعه.

أنواع الوقف:

١- **وقف خيري:** وقد وصفه الخبير القانوني هودجا ساديتين: (كلّ الأبنية والمؤسسات مثل أماكن العبادة، جامعات، مدارس، مطابخ، إطعام الفقراء، مدارس لتعليم القرآن، دور عجزة ودراويش، مكتبات عامة، دور ضيافة، سكن للفقراء، جسور، مستشفيات، نافورات عامّة وبركات مياه وآبار ومقابر)(٩).

٢- **الوقف الأهلي:** هو تأمين دخل عائلة مؤسس الوقف أو أقاربه، حيث أن عائدات الوقف تذهب إلى العائلة.

٣- **وقف الدولة:** حيث تقوم الدولة بمنح الملكية لإقامة الوقف، لكنه يصنف ضمن الوقف الخيري. ويتميز بأن الدولة تستطيع تغيير أهداف الوقف بحسب الحاجة العامة[١٠]. ومن المعروف أنه في الدولة العثمانية أدى بعض السلاطين دوراً أساسياً كمركز تخصيص، فقد قام السلطان محمد الفاتح بتأسيس الوقف من أملاك الدولة ودعي هذا الوقف (vakif gayri sahih)[١١].

٤- **وقف نقدي:** صدقت المحاكم العثمانية الهبات النقدية بحدود بداية القرن الخامس عشر ومع نهاية القرن السادس عشر حيث أصبحت شائعة، والوقف النقدي هو المال الذي حدد لأغراض اجتماعية ودينية، وقد زوّد النقدي ائتماناً مالياً كان مطلوباً بشدّة مع خدمات مالية أخرى[١٢].

دوافع الوقف:

لقد عدّ الوقف في المجتمعات الإسلامية عمل ديني محبب لدى العامة والخاصة، ولهذا فقد سعى مؤسسو الوقف إلى اكتساب سمعة جيدة في المجتمع، والتقرب إلى الله وبلوغ الجنة من خلال فعل الخير، غير أن الأمر لم يخلُ من بعض السقطات الشرعية حيث كانت هناك دوافع أخرى أكثر أهمية من التقوى أو المركز الاجتماعي مثل حماية الثروة، أو غسل الأصول، أو مساعدة عائلته الخاصة والالتفاف على نظام الميراث. أو تحقيق ضمان للممتلكات، وخفض الضرائب[١٣].

إن حماية ملكية العائلة وتحسين رفاهيتها من أبرز الدوافع التي تطلعت إليها بعض الشخصيات المهمة، فعندما أسست عائلات غنية الوقف، كان بإمكان المؤسس أن يعيّن نفسه كمتولي أول وأفراد عائلته كموظفين، وبذلك فإن ١٠% من العائدات تذهب كرواتب[١٤]، وبالرغم من ذلك فإن الوقف يستمر بتأمين الخدمات الاجتماعية. كما أن الحصول على إعفاءات ضريبية شكل دافعاً لتحويل ملكية العائلة إلى وقف.

لقد ساعدت الدولة العثمانية في تعزيز نظام الوقف وذلك من خلال تقديم حوافز رسمية من خلال إيجاده مباشرة أو منح الأرض إلى الذين يرغبون بتأسيس الوقف. كما قامت الدولة بالإشراف على الأوقاف، ولقد تعزز نظام الوقف في الدولة العثمانية بشكل كبير مع اتساعها وازدياد عدد سكانها حيث ساعد على تقديم الخدمات الاجتماعية لعدد أكبر من سكانها، كما تميز الوقف بأنه نظام متعدد الألوان لتوفير الخدمات الاجتماعية(١٥). كذلك هدفت الدولة العثمانية إلى زيادة قوتها وكسب ولاء أنصارها، فضلاً عن كسب ولاء السكان المستهدفين، ودعم السلطة السياسية (وهب الحكام منشآت خيرية عديدة وفقاً لأولويات الدولة وبشكل ضمني كوسيلة لسياسة الدولة). وهكذا فإن إيجاد الوقف كان بشكل نموذجي في المدن أو طرق التجارة التي كانت تعدّ ذات أهمية استراتيجية)(١٦).

دور الوقف:

نستطيع أن نفهم دور الوقف في الحياة السياسية والاجتماعية للدولة العثمانية بالنظر إلى حجم الملكيات التابعة للنظام الوقفي التي قدرت بحوالي ثلث الأراضي المنتجة في الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر. حيث أسهم الوقف في إعادة توزيع الثروة، وهذا ما ساعد على تخفيض النفقات الحكومية: (أدى الوقف إلى خفض عجز الميزانية حيث قلل من حاجة الحكومة للاقتراض)(١٧)، كما أسهم نظام الوقف بتأمين الخدمات الاجتماعية مجاناً مما سمح للدولة بتخصيص موارد أكثر للدفاع عن حدودها(١٨).

لقد أدت الهبات الكبيرة والصغيرة دوراً أساسياً في تطوير وربط واستمرارية البنية التحتية ضمن المراكز الحضرية في العالم الإسلامي، وخصوصاً في بناء المساجد أو في تقديم الدعم المالي لها وللمدارس الدينية والمشافي والعناية بالفقراء والمحتاجين. علماً بأن إيجاد المؤسسات الوقفية لم يقتصر على المسلمين فقط حيث قامت بعض الجاليات المسيحية واليهودية ضمن الدولة العثمانية بإيجاد مؤسساتها الوقفية الخاصة

بها[١٩]. كما زوّد الوقف الأهلي ولا سيما النساء المسلمات بحقوق الملكية، حيث استطاعت المرأة في الإمبراطورية العثمانية أن تدير ثروتها الخاصة[٢٠].

دراسة الأوقاف العامة في مدينة حماة وحمص في القرن السادس عشر:

لقد كُتب اسم الوقف ومكانه في كل تدوين للوقف، ويتبعه بيانات مصادر الدخل والنفقات اليومية والسنوية، ويتضمن إجمالي مجموع الدخل والإنفاق والميزانية، أحياناً يسقط عنصر أو عنصران، كما نلاحظ أنه في سجلات هذا الوقف لا يوجد تاريخ دقيق.

تشكّل الأراضي والبساتين والمزارع النسبة الأكبر من الممتلكات الوقفية العامة، ونلاحظ أنه تم إيقاف حمامات عامة، ومحلات، وبيوت، وطواحين، ومعمل صابون، وخان، وناعورة، وحصة عُشر من ربح أو محصول، إن جميع الممتلكات الوقفية ذات ميزان رابح، وقد حدد صرف المال الباقي من مصادر الدخل على زيت المصباح والحصر وتصليح الوقف، وفي الوقت ذاته فقد أعطي بعض من إيرادات الوقف كصدقة ومنع التصرف بها، وقد دُوّن ذلك في سجلات الأوقاف جميعاً.

قائمة بالأوقاف العامة في حماة[٢١]

الرقم	الاسم	الدخل	النفقات	الباقي
١	مدرسة نور الدين	١٠٧١٧	١٠٢٢٤	٤٩٣
٢	مدرسة المخلصية	٩٠٠٤	٨٨٢٠	١٨٤
٣	مدرسة قاسمية	٨٩٦٧	٨٨٧٠	٩٧
٤	مدرسة الطوشية	٤٠٤٠	٣٩٦٠	٨٠
٥	مدرسة الافتخارية	٧٨٩	٧٢٠	٦٩
٦	مدرسة العصرونية	٧٣١٣	٦١٢٠	١١٩٣
٧	مدرسة الخطابية الكبرى	٣٩٠١	٣٧٨٠	١٢١
٨	مدرسة الفرحية	٧٣١,٥	٧٢٠	١١,٥
٩	مدرسة الجمالية	٩٢٠	١٠٨	—
١٠	مدرسة العزيزية	١٥١٨	١٠٨٠	٤٣٨

١١	مدرسة ابن سينا	٢٠٠	-	-
١٢	مدرسة النجمية	١٥٠٠	١٤٤٠	٦٠
١٣	مدرسة الشهابية	٣٨٠	٣٨٠	-
١٤	مدرسة المقزلية	١٥٨٠	١٤٤٠	١٤٠
١٥	مدرسة التاجية	-	-	٠
١٦	مدرسة الخيرية	٥٠	-	٥٠
١٧	بيمارستان النوري	٥٨٥٤٨,٥	٣٩٧٠٠	١٨٨٤٨,٥
١٨	مقبرة إسنتيمور	٩٠٠٠	٢٢٠٠	٦٨٠٠
١٩	مقبرة سنتيمور	٢٠٠	-	-
٢٠	مقبرة السيفية	٣٢١,٣	-	-
٢١	مقبرة سلطان مظفر	٨٧٩٩	٤٧٢٠	٤٠٧٩
٢٢	مقبرة زين العابدين	٤٦٥٦	١٣٨٨	٣٢٥٩
٢٣	مقبرة السباكية	٤٩٢٩	٢٨٨٠	٢٠٤٩
٢٤	مقبرة المبارزية	٤٠٠٠	٢٨٨	٣٧١٢
٢٥	بقعة الجلدكية	١٦٣٥	١٤٤٠	١٩٥
٢٦	بقعة الخاتونية	٥٧٦٧	٤٢٢٠	١٥٤٧
٢٧	زاوية جمال الدين	١٧٣٢	١٦٢٠	١١٢
٢٨	زاوية القادرية	٥٥١٨	-	-
٢٩	زاوية الحج طوبال	٣٥٨٠	١٢٧٠	٢٣١٠

نلاحظ أن إيرادات الأوقاف في مدينة حماة كانت رابحة، ولهذا صدر مرسوم سلطاني يقضي بجمع قسم من تلك الإيرادات الزائدة لتحويل إلى مبالغ نقدية وإرسالها إلى مكة والمدينة لتوزعها على الفقراء فيهما، كما خصص جزء مالي للحرم الشريف.

قائمة بالأوقاف العامة في حمص

الرقم	الاسم	الدخل	النفقات	الباقي
١	مشفى النوري	٥٦٠٠٥,٥	٣٦٠٠	٢٠٠٠٥,٥
٢	مدرسة النورية	١٠٤٧٧	٩١٣٠	١٣٤٧
٣	خانقاه النوري	٤٥٣٠	٤٣٢٠	٢١٠
٤	مقبرة الكوشكية	٣١٥٨	٢٩١٠	٢٤٨
٥	مقبرة مسجد شيخ موسى	٧٣٠	٦٤٠	٩٠
٦	مقبرة الشوقندرية	١٠٨٠	٩٠٠	١٨٠
٧	زاوية الديفية	٥٦٠	–	–
٨	زاوية الشيخ أحمد الرفاعي	١٢٦٠	–	–
٩	تكية رستم باشا	١٦٩٩٦	١٩٤٩٤٠	١٥٠٢٦
١٠	مقام خالد	٤٤٠٩٥	٤١٧٦٩	٢٣٢٦
١١	مكتب هانا	٤٢٨٠	٤٢٨٠	–

إذا قرأنا أوقاف حمص من خلال السجل ٢٣٢٧-٢٣٢٨، نلاحظ أن واردات الوقف كانت جيدة، لكننا لم نعثر في تلك الدفاتر (السجلات) عن كيفية توزيع ما تبقى من واردات تلك الأوقاف، وبعد قيامنا بدراسة ميدانية إلى مناطق حمص، لم نتمكن من التعرف على مكتب هانا ولا على عدد الطلاب الذين كانوا يفدون إليه، في حين وجدنا

أن تكية رستم باشا، وما تحظى به من سمعة جيدة قد زادت نفقاتها عن وارداتها، وعثرنا على خطاب موجه من قاضٍ ثان في الدائرة القضائية يناشد فيه المحكمة الشرعية بمد تكية رستم باشا بمساعدات مالية نظراً لحاجة المقيمين فيه إلى مساعدات ملحة وضرورية.

أما بشأن ما يتعلق بوقف مدرسة نور الدين في حماة، فقد عثرنا على أن قرية مساحتها مئة وثلاثين فداناً تتبع لها، وإن ما تدفعه لا يعادل جزءاً ضئيلاً من دخلها السنوي البالغ ٧١٧ أقجة[٢٢].

ومن الأوقاف الأخرى التابعة لمدرسة نور الدين:

طاحونة أحجار ٧ طن بدخل يومي يقدر ١٢٤ أقجة وسنوي يقدر ١٤٨٨ أقجة، فإذا أضيف غليها واردات القرية يصبح الدخل السنوي ٢١٩٥ أقجة، وأنه كلف ناظر بالإشراف عليها يتقاضى أجر سنوي ٧٢٠ أقجة، وهناك مدرس بأجر سنوي ٦٤٨٠ أقجة، أما بقية المكلفين فيتقاضون جزءاً من وارداتها، ولم نعثر على ما يثبت لنا كيفية توزيع الأموال الزائدة ولا الجهة المشرفة عليها، ولهذا فقد اعتقدنا أن بعض المتنفذين من ولاة الأمر في الصنجق كانوا يقومون بالاستيلاء على تلك الأموال، علماً بأن وثائق من شهود تؤكد أن واردات الأوقاف الزائدة كانت توزع على الفقراء والمحتاجين، وناحية أخرى لو أن الأرقام التي وردت في تسجيل عن عدد الطلاب في المدرسة، لغدت مدينة حماة من أكثر صناجق ولاية سورية تعليماً وتثقيفاً، ولا ينفي بأن المدينة كانت أقل المدن من حيث عدد الأولاد الذكور فقد كانت نسبة الإناث ضعفي عدد الذكور، ولم نعثر ما يدلنا على أن أهالي حماة كانوا يرسلون بناتهم للتعليم.

أما بشأن ما يتعلق بوقف مدرسة المخلصة، فقد عُدّت من أكثر مدارس صنجق حماة غناً نظراً لكثرة الأوقاف التابعة لها استناداً إلى سجل الوقف رقم ٣٦١٧، وذلك على النحو الآتي:

مصدر الدخل	الدخل اليومي	النفقات	الباقي
قرية: ٣ فدان	٣٧٥	١٢٣	٢٠٤
قطعة أرض	١٨٠	٧٥	١٠٥
قطعة أرض	١٠٠	٥٤	٤٦
مزرعة ٣ قيراط	٢٢٥	١٢٠	١٠٥
بستان ٤,٥ قيراط	١٥٠	١٢٠	٣٠
قرية: ٣ فدان	٥٠٠	٢٠٠	٣٠٠
طاحونة	٤٠٠	٢٠٠	٢٠٠
قرية : ٢ فدان	١٦٦	١٢٠	٤٦
بستان	٥٦٠	٣٤٠	٢٢٠
بستان	٣٠٠	٢٠٠	١٠٠

وقد كُلف مدرس وإداري ومشرف وإمام وخادم ومؤذن بالإشراف على المدرسة لإدارتها بشكل جيد، وكانت واردات أوقافها تسلم سنوياً إلى القاضي حجي نوري زاده، وهو بدوره يقوم بتسليم أجور المكلفين في المدرسة تساعده لجنة مؤلفة من ٣ ثلاثة قضاة ومدير قلم، وقد عثرنا على خطاب صادر عن دار الإفتاء في استانبول يقضي بإرسال جزء من واردات المدرسة المخلصة إلى فقراء معرة النعمان تعويضاً عما أصابهم من وباء الكوليرا الذي حلّ بسكانها سنة ١٥٤٩متراً، ويفيد التوجيه بضرورة توزيع الأموال على المتضررين حصراً.

وهنا يحضرنا تساؤل أن التوجيه كان حصراً لمدينة معرة النعمان، علماً بأن القرى المجاورة لها، ولا سيما القريبة منها، تعرضت للوباء لم تشملها المساعدة، وبعد التدقيق عثرنا على تقرير صادر عن مختار بلدة معرة النعمان يذكر فيه أن قريته هي أكثر القرى تضرراً بالوباء، وحسب ما أفاد فإن ثلثي القرية ماتوا من جراء الوباء[٢٣].

أما فيما يتعلق ببيمارستان النوري في صنجق حماة فقد شملت أملاك وقفه ثلثي مساحة الصنجق تقريباً، فعلى صعيد مدينة حماة فقد أوقفت له عشرة محلات تجارية وسوق و

٤ خانات وحمام وخمسة قرى أقلها تراوح مساحتها بين ١٠-١٥ فدان مع حقل وطاحونة وثلاثة بساتين وأربع مزارع أقلها ثلاثة فدادين ناهيك حصة عشر بثمان فدادين، وأملاك أخرى وقد تجاوز وارداتها السنوي عن ٥٨٥٤٨,٥ أقجة، وبلغ مجمل نفقاتها ٣٩٧٠٠ أقجة يوزع منها ١٥٠٠ أقجة على الأسر و ٤٠٠ أقجة على إطعام فقراء المدينة، وقد شمل عدد العاملين فيها ٣٠٠ موظف ما بين عامل ومستخدم، ولم تفدنا الدراسات عن كيفية توزيع المبالغ المتبقية، ولم نتمكن من العثور على الجهات التي تستلم الواردات، وقد ورد عدة كتب من دار أوقاف دمشق إلى مدير أوقاف حماة القاضي سليم اليازجي، غير أن الأخير لم يرد عن تساؤلات مدير أوقاف دمشق، أو أننا لم نتمكن من العثور عليه.

ومهما كان الأمر فإن معلوماتنا عن وقف بيمارستان النوري ليست دقيقة بشكل يمكننا من قراءة واردات أوقافها وتخلصاً من الإرباك آثرنا تقديم ما عثرنا عليه في سجلات الأوقاف.

٣- وقف بيمارستان النوري، حماة:

أ- مصدر الدخل:	الدخل
٦ محلات	١٩٨٨
٤ محلات	٦٦٠
محلات: ١٢ قيراط	١٤
سوق: ١٤ قيراط	٨٠
خان: ١٢ قيراط	١٨٠٠
حمام عام: ٢,٥ قيراط	١٣٠
أجرة قطعة أرض: ١ قيراط	٥
محصول بساتين	٢٠٠٠
قرية: ٣ فدان	١٦٠٣
حصة عُشر: ٣ فدان	١٤٢٨
محصول بساتين	٢٨٥٨
حصة عُشر: ٣ فدان	٥٧١

أ- مصدر الدخل:	الدخل
حقل	٦١
حصة عُشر: ربع فدان	٦٥
قرية: ١٥ فدان	٥٠٠٠
قرية: ٦ فدان	٧٣٨
قرية: ٤,٥ فدان	٨١٠
مزرعة	٦٠٠
مزرعة: ٣ فدان	١٥٠
مزرعة	٦٠٠
قرية: ٨ فدان	١٥١٢
حصة عُشر: ٨ فدان	١٢١٤
قرية: ١ فدان	٣٢٦,٥
حصة عُشر: ١ فدان	٢٩٠

محصول بساتين	٣٠٠٠
طاحونة: ١٨ قيراط	–
أجرة	١٠٠
بستان نصف	٣٥٠
مزرعة	٣٣٢
بستان	٢٥٠
بستان: ١٨ قيراط	٨٠٠
حصة	١٠
قطعة أرض: ٦ قيراط	٢٠
محصول: ٣,٥ قيراط	٢٩٢
حصة عُشر: ٣,٥ قيراط	١٣٤
قرية: ٦ فدان	١٩٦٨
قرية: ٢ فدان	١٦٠
حصة عُشر: ٢ فدان	١٤٣
قرية: ٦ فدان	١٢٣٠
قطعة أرض	٥٠٠
محصول بستان	١٢٠٠
أرض	٢٠٠
قرية: ٩ فدان	٣٦٠٠
قرية: ٨ فدان	٤٠٠
مزرعة: ٨,٥ فدان و ٣ قيراط	١١٢١
حقل	١٠٠
إجمالي الدخل	**٥٨٥٤٨,٥**

ب – النفقات:	**اليومية**	**السنوية**
مشرف	٢٠	٧٢٠٠
سكرتير	٦	٢١٦٠
طبيب	١٠	٣٦٠٠
كحال	٣	١٠٨٠
جراح	٣	١٠٨٠
سراج	٦	٢١٦٠
محصل الدخل	٦	٢١٦٠
خازن	٤	١٤٤٠
طباخ	٢	٧٢٠
ممرض	٢	٧٢٠
خادم	٢	٧٢٠
خادم للسيدات	٢	٧٢٠
أنواع مختلفة من المشروبات	–	٤٠٠٠

أنواع مختلفة من الكحول	–	٢٠٠٠
أنواع مختلفة من المراهم	–	٢٠٠٠
قهرمان	٤	١٤٤٠
زيوت	–	١٠٠٠
أسرة	–	١٥٠٠
طعام	–	٤٠٠٠
إجمالي النفقات		٣٩٧٠٠

الباقي: ٧١٣,٥، يصرف على الإصلاحات للمؤسسات الوقفية والتعليمية مع تخصيص مبلغ لحصير المساجد والزوايا الدينية وتأمين زيت للمصابيح.

أما وقف مقبرة إسنتيمور فقد كانت عرضة لعجز دائم نتيجة لوقوعها في موضع يعرضها إلى الزلازل، مما دفع القائمين عليها إلى إصلاحها فضلاً عن ذلك فإن موتاها لم يكونوا من ذوي الخطوة التي تمكن المشرفين عليها من الحارس إلى معمري إلى القارئ بالحصول على مساعدة إضافية [٢٤].

٤- وقف مقبرة إسنتيمور:

أ- مصدر الدخل:	الدخل
محصول بستان ١٢ قيراط	٩٠٠٠

ب - النفقات:	اليومية	السنوية
قارئ القرآن والحديث	١	٣٦٠
الهية والعناية	–	٨٠
مصلح ومعمر	–	١٠٤٠
مشرف	٢	٧٢٠
إجمالي النفقات		٢٢٠٠

جـ - الباقي: ٦٨٠٠.

٥– وقف مقبرة سلطان مظفر:

أ– مصدر الدخل:	الدخل
محاصيل بساتين	٨٠٠٠
مزرعة	٣٠٠
قرية: ٣ فدان	٢٤٩
أجرة أرض	٥٠
مزرعة	٢٠٠
إجمالي الدخل	٨٧٩٩

ب – النفقات:	اليومية	السنوية
إداري	٣	١٠٨٠
مشرف	١,٥	٤٥٠
كاتب	١	٣٦٠
مصلح القبور	١	٣٦٠

لو قرأنا الوقف الذي خصص لبيمارستان النوري في صنجق حماة، لأدركنا أن هناك تلاعباً مقصوداً من ولاة الأمر في الصنجق، فعلى الرغم من كثرة أملاكه، فإننا لم نجد ما يثبت الدخل اليومي والنفقات اليومية، وكل ما عثرنا عليه هو بند الدخل، لا شك أنه الدخل السنوي، لكن واردات بعض تلك الأوقاف غير دقيق، وما سقناه هو دخل لسنة ١٥٦١م استناداً إلى دفاتر أوقاف حماة التي كانت ترسل سنة بسنة إلى دار الإفتاء في إستانبول، لتسلم إلى دائرة الأوقاف والتأكد من الدخل والنفقات، وحسب ما تم العثور عليه وذكرته تلك السجلات أن واردات وقف بيمارستان النوري بلغت ٥٨٥٤٨,٥

أقجة وأن نفقاته بلغت ٣٩٧٠٠ أقجة والباقي هو ١٦٨٤٨,٥ أقجة، ولم نتمكن من معرفة وجهة إنفاقهم، وقد وردت أسئلة من إستانبول عن كيفية إنفاق ما يزيد واردات كل من أوقاف بيمارستان النوري في حماة، وأوقاف مقام محيي الدين في دمشق، ومقام خالد بن الوليد في حمص، علماً بأن ما يزيد من نفقات مقبرة إسنتيمور ونفقات مقبرة السلطان مظفر كان يوزع على الفقراء والمحتاجين في صنجقي حماة وحمص وهي مبالغ قياساً ببقية الأوقاف ضئيلة جداً، ورغم قلتها فقد كانت تطعم أفواهاً جائعة[٢٥].

لقد تمكنا من إحصاء أهم الأوقاف في مدينة حمص خلال القرن السادس عشر وهي على النحو الآتي:

١- بيمارستان النوري ودخل ٥٦٠٥,٥ أقجة أما نفقاته فهي ٣٦٠٠ أقجة، وما تبقى منه كان ينفق على الطعام والزيت والحصر.

٢- وقف مقبرة الكوشكية ودخلها ٣١٥٨ أقجة ونفقاتها ٢٩١٠ أقجة، أما الباقي وهو ٢٤٨ أقجة فتنفق على الزيت والعصر.

٣- وقف مدرسة النوري وقد بلغ دخلها ١٠٤٧٧ أقجة، أما نفقاتها فكانت ٩١٣٠ والباقي ١٣٤٧ أقجة يصرف على اليتامى.

٤- وقف خانقاه النوري. وقد بلغ دخله ٤٥٣٠ أقجة، ونفقاته ٤٣٢٠ أقجة والباقي ٢١٠ أقجة، لتأمين بعض اللوازم الضرورية.

٥- تكية رستم باشا، بلغ دخلها ١٦٩٩٦٦ أقجة ونفقاتها ٢٦٨٠٠ أقجة يضاف إليها نفقات الوجبات اليومية والشهرية والسنوية مع نفقات التكية اليومية والشهرية والسنوية، فيصبح مجمل النفقات ٨٤٤٢٠ أقجة، والباقي ٧٥٥٦٦ أقجة كانت توزع على النحو الآتي:

٨٤٤٢٠ أقجة، والباقي ٧٥٥٦٦ أقجة كانت توزع على النحو الآتي:

١٥٤٤٢ أقجة توضع في خزينة الصنجق، تحسباً من الكوارث الطبيعية، ولا سيما الجراد الذي كان صنجق حمص يتعرض إليه بشكل سنوي.

٢٠٥١٧ أقجة، يوزع على فقراء القرى المجاورة للمدينة. أما الباقي والبالغ ٣٩٦٠٧ أقجة فكان يرسل إلى مكة والمدينة، هذا بالنسبة للسنة التي تمت دراستها.

٦- نفقات خان السبيل: بلغ دخله ٢٤٨٦٠ أقجة ومجمل نفقاته ١٥٦٨٠ أقجة، والباقي كان يخصص لإعداد وجبات للزائرين وثمن سجاد ولإصلاح الخان.

٧- وقف مقام خالد بن الوليد، وقد بلغ دخله ٤٤٠٩٥ أقجة، ومجمل نفقاته ٢٧٦٦٩ أقجة، والباقي يوزع على اليتامى والمساكين، وكان المشرفون عليه يحتفظون بمبالغ مالية لإقامة وليمة سنوية بمناسبة عيد الأضحى، ويذكر أن تكاليف الوليمة التي تقام على مقام خالد بن الوليد تقدر بالف أقجة، وكان الفقراء والمساكين يترقبونه، وحسب ما تفيد الوثائق، أن الوليمة كانت أشبه بعرس عيد كبير يحضرها جميع ولاة الأمر، حتى في أحيان كثيرة، فإن والي دمشق كان يكلف نائبه بالمشاركة فيها، أما والي حلب فقد كان يحضرها ومدير أوقاف حلب يرافقه الدفتردار وبعض ضباط الإنكشارية[٢٦].

أما وقف زاوية الشيخ أحمد الرفاعي فقد أوقف لها قرية ٢ فدن وربع بدخل سنوي ١٢٦٠ أقجة، وكانت نفقات الزاوية محدودة فعليها حارس، وكان الزوار يترددون إلى الزاوية ويلتمسون البركة، ويقيمون الذبائح بالقرب منها، غير أن قاضي حمص منع الزائرين من ذلك [٢٧].

كلنا يعلم أن الوقف الإسلامي هو نوعٌ من أنواع الزكاة، لأنه يسد عوز الفقراء والمحتاجين، ويحول دون بروز ظاهرة التسول، ولو أن القائمين عليه أو الذين أوقفوه لوجه الله خالصاً التزموا بمبادئه وطبقوه بشكل صحيح لما كثرت ظاهرة التسول، ولقلت ظاهرة اللصوصية نوعا ما، غير أن القائمين عليه وحتى الذين أوقفوا ما لديهم لجؤوا إلى التلاعب ببعض إيراداته

،كذلك فإن بعض الواقفين عمدوا إلى وقف ما لديهم منعاً من مصادرة أملاكهم، كما فعلت شقيقة صلاح الدين الأيوبي التي أوقفت جزءاً من مدينة النبك ودير عطية بكاملها للتخلص من مصادرة أملاكها، وما فعله أسعد باشا العظم وغيرهما كثيرون، وما يحدث الآن من لجؤوا بعض الأشخاص لبناء جوامع ومشافٍ وما شابهها بغية التخلص من الضرائب. وبما أن هذا الجانب تسوغه اجتهادات دينية حيناً، وتسانده فتاوى بعض العلماء والأئمة، فلن نتدخل كثيراً في أبوابه وطرقه(٢٨).

شهد الوقف خلال مراحله القديمة والحديثة والمعاصرة تنوعاً من حيث نوعه وتنظيمه وتطبيقه، ونحن نعلم أن الوقف عُدة أنواع، وما يهمنا هنا معالجةَ نماذج من الوقف النقدي ، قد تبدو ظاهرة مدهشة، مثل وقف الحيوانات، وقف الإنسان (ذكور وإناث)، وقف الأسماك، وقف المراعي.

وقف الحيوانات:

لقد أثبتت القرائن الملموسة، والوثائقَ أن هناك الكَثير من الحيوانات قد أُوقفت مثل الأبقارِ، وهي على شكل نذور، فالأنثى من الأبقار يُوزع جزء من حليبها لبعض الفقراء وهي تكون وقفاً على فقراء الأحياء في القرى ويظل الوقف ملازماً في حال ولدت البقرة أنثى، أما الثيران التي تحرث الأرض، فيوزع قسم من الموسم الذي حرثه الثور بحسب النسب المحددة للفقراء، وذلك شريطة أن توزع على الفقراء من غير أقارب المالك، وفي حال بيع الثور يخصص جزء من المبلغ للفقراء والمساكين.

لقد جرت مشادات بين العلماء بشأن وقف البغال والحمير، فبعض العلماء أجاز وقف البغال والحمير، لأنها من الأنعام، وليس هناك نص ديني نبوي يحرم وقفها، فالأنعام نزلت سور قرآنية بها، كما ورد ذكرها في القرآن في مواضع كثيرة(٢٩).

لقد أدت الحيوانات دوراً بارزاً في تاريخ الشعوب،ولاسيما أصحاب الحضارات، ونظراً لكثرة الاعتقادات التي يخالطها يقين مقرون بشك أو بتقليد، فقد كثرت النذور

المتعلقة بالإنسان والحيوان والأراضي والعقارات، ولا نرغب في زيادة التفاصيل فهو شيء معروف للجميع بشكل واضح.

ومن الوقف الحيواني الذي أثار جدلاً بين أوساط العلماء وأئمة المذاهب ودعاة الصوفية، وقف الحمير. فقد اختلف العلماء حول وقفه، فالبعض حرّم وقف الحمير، لأنها وردت في القرآن الكريم مستنكرة ((إن أنكر الأصوات لصوت الحمير))[٣٠] غير أن أئمة الشافعية والأحناف أجازوا وقفها، واستشهدوا على ذلك ما ورد بحق النساء.

استمر الجدل الذي دار بين العلماء، ولم نعثر على وثيقة تثبت لنا أن الحمير أُوقفت،غير أن المفتي علي الجمالي الذي أفتى للسلطان سليم بحرب المماليك، أجاز ذلك، وقال الضرورات تبيح المحظورات.

وقف الإنسان (ذكور وإناث):

لم نعثر على وثائق تثبت وقف الإنسان (ذكور وإناث) إلا إشارات عدتها المصادر والمراجع نذوراً، وفي الواقع فإن النذور نوع من أنواع الوقف، غير أنه وقف ضعيف وسماها بعض العلماء وقف عجز، فالفتاة يوقف جزء منها. شريطة أن يدفع من مهرها ويوزع على الفقراء، وقد كثر هذا الوقف في بلدان المشرق العربي، وفي حال عَدمِ خطبةِ الفتاة، البعضُ قال يسقط عنها الوقفُ والبعضُ الآخرُ أصر على بقائه شريطةَ أن توزعَ الفتاةُ جزءاً من ميراثها إذا ورثت[٣١].

وقف النقود:

لقد ثبت أن هناك أشخاصاً من يهود ومسيحيين ومسلمين أوقفوا نقوداً، وهذا ثابت في بلاد الشام ومعظم الدول الإسلامية.

وتقول الوثيقة التي بأيدينا: لدى القاضي بدمشق وأشهد عليه أن الحاج جعفر بن عبد الله، التاجر بسوق السباهية[٣١]، أنه أوقف في يوم تاريخه لوجه الله تعالى ما هو ملكه

الشرعي، وذلك جميع المبلغ وقدره ٣٧٥ سلطانياً أي ما يعادل ١٥٠٠٠ مصرية قطعة فضية جديدة، بناء على صحة وقف النقود، وعلى قول من أجاز وقف الدراهم والدنانير[٣٢]، وقفاً شرعياً ضمن الشروط التالية.

ومن شروط الوقف النقدي :

أن يتعامل المتولي على هذا الوقف المبلغ الموقوف على الأسس التالية:

- كل ١٠ سلطانيات، ترد بعد عام ١١ سلطانياً[٣٣].
- يشترط فيمن يأخذ المبلغ أن يكون غنياً وذا قدرة على الوفاء.
- لا يسلم لمن يتعامل به إلا بعد الحصول على رهن منقول منه[٣٤].
- لا يُسلم المبلغ لحاكمٍ أو قوي أو متنفذ أو ذي جاه وقوة وغلبة.
- لا يتمُ التعاملَ به مع رجل واحد لأكثر من سنة واحدة،على أن يعيده بعدها لجهة الوقف، ويسلم من جديد، ضمن الشروط المذكورة لمستفيد جديدٍ.

يكون الشيخ إدريس بن عبد الله الرومجه هو المتولى على الوقف، ويتولى بعده أخوه ملا أدهم بن عبد الله- إمام جامع الحشر[٣٥] ثم يكون إماماً فيه. يبلغ ريع هذا الوقف في كل عام ٣٧,٥ سلطانياً، توزع على النحو الآتي:

٣٠ سلطانياً توزع كل عام لثلاثة رجال من أهل الدين والصلاح الحفظة لكتاب الله العزيز، يعطى كل منهم ١٠ سلطانيات مقابل قراءة سورة الإخلاص والمعوذتين والفاتحة وأسماء الله الحسنى والصلاة والسلام على النبي المصطفى (ص)، وتتم القراءة في جامع الحشر كل يوم عد صلاة العصر، ويهدى ثواب ذلك لروح الواقف. يتقاضى الواقف[٣٦] في كل عام خمس سلطانيات مكافأة له على عمله، وتعادل هذه السلطانيات ٢٠٠ قطعة فضية.

أما الباقي فهو قرشان ونصفَ يشترا بهم شمعاً ويوقد في الجامع المذكور.

وبعد ذلك أراد الواقف التراجع عن هذا الوقف بحجة عدم جواز وقف النقود على رأى الأعظم وصاحبيه، فرفض المتولي ذلك، لأن الوقف صحيح على قول الإمام زُفر رضي الله عنه على ما رواه الأنصاري، فحكم الحاكم بصحة الوقف فصار نافذ المفعول.

أما الوثيقة الثانية فقد عالجت:

أوقف الحاج محمد مبلغ وقدره ٤٥٠ سلطانياً أي ما يعادل ١٨٠٠ مصرية وزعت على النحو الآتي:

- ٤٠٠ مصرية لجامع السلطان سليمان المعروف حالياً التكية السليمانية.
- ٢٠٠ مصرية لمكة المكرمة.
- ٢٠٠ مصرية للمدينة المنورة.

أجاز الواقف إبقاء المبلغ لمدة سنتين متتاليتين.

خصص للمتولي ١٠ مصرية.

أراد الواقف الرجوع بحجة عدم صحة وقف النقود، غير أن الحاكم ثبته سنة ١٠٠١هـ/١٥٩٢.

في حين تطرقت الوثيقة الثالثة إلى أن:

أوقف حسن بن مصطفى الرومجي ما لديه من أموال وقد خصص إيرادها لأمنة بنت عبد الله المطلقة من زوجها بموجب الفسخ السابق من تاريخ الخلوة الزوجية عن الموانع الشرعية على صرف مبلغ قدره ١٢ سلطانية، وقد تم طلاقها من زوجها برضاها وبالوكالة الشرعية، ولم توضح لنا الوثيقة المقدار الموقوف تماماً ولا كيفية توزيعه ولا من هو المتولى عليه. رجب ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م.

وتأكيداً لما ذكرناه، فإن وقف الأموال جائز، وبين أيدينا عدة وثائق تؤكد جواز هذا الوقف، كذلك فإن عدة وثائق في المحاكم الشرعية في اللاذقية وحلب وطرابلس الشام

توضح لنا أن عدداً لا بأس به من يهود ومسيحيين ومسلمين قد أوقفوا أموالاً لأعمال خيرية[٣٧].

وهناك وثيقة في مشوش دفتري تفيد أن فاطمة بنت سليمان زوجة الحاج أحمد يعقوب الحصاري بقلعة الشام المعروف بارسلانجي بموافقة المجلس المشار إليه (المجلس الشرعي) وبحضور من تتسم فيهم الشهادة الشرعية وهي بكامل صحتها وسلامة وعيها واختيارها وجواز الأسر الشرعي بأنها أوقفت وأبدت وحبست وتصدقت أثابها الله ثواب الآخرة ورفع درجاتها في عليين بنية صادقة صالحة وعزيمة إلى فعل الخيرات ما هو بملكها وبيدها جميع المبلغ وقدره من الذهب السلطاني التام الوزن المصكوك بسكة الإسلام ما به ١٠٠ سلطاني واحد مئة ذهباً بعدما أفرزته من خالص مال نفسها لأجل صحة وقف النقود على قول من جوزوا (أجاز) وقف الدراهم والدنانير، والأئمة المعتبرين رضوان الله عليهم أجمعين شرعياً وحبساً لمصالح إمام الجامع الكائن بظاهر دمشق المحروسة بالمحلة الجديدة المعروف بمسجد المرحوم مصطفى جلبي السلاف وعلى مؤذنه ومتوليه ومن بعدهم الإمام ومؤذن ومتول بعد متولى لكل واحد منهم، وربع المبلغ المميز أعلاه تسع سلطانيات معاملة في كل سنة عن كل يوم قطعة واحدة، وما تبقى من الربع يصرف بما يحتاج المسجد من زيت وشمع وغيره، النظر والتولية على وقفها لنفسها (بنفسها) مدة حياتها، ثم بعد وفاتها لمتولي المسجد كائن.

من كان ثم من بعده لمتول بعد المتولى يوليه حاكم الشريعة المطهرة ...... غير أن الواقفة طالبت ببطلان وقفها بأنه غير جائز، غير أن الشريك (المتولى) رفض تسليمها المبلغ، بحجة أن وقف النقود صحيح عند الأمام زُفر على ما رواه الأنصاري عليه رحمه الباري، وأن الإمامين أبي يوسف ومحمد رضوان الله عليهما، وبعد أن عرّف الواقفة المزبورة لشهود مع زوجها فخر العلماء الشيخ مصطفى بن على الرومجي

والإمام والشيخ محيي الدين بن خضر المؤذن التعريف المرعي تحريراً في الخامس من شهر شوال المبارك لسنة ١٠٠٢هـ / ١٥٩٣م(٣٨).

وبين أيدينا وثيقة تفيد بأنه أوقف ١٣٠ سلطاني ذهبي، خصص إيراده إلى مكة المشرفة والمدينة المنورة وذلك بتاريخ ١٠٠٦هـ / ١٥٩٧م.

وهناك وثيقة أخرى تفيد بأن مصطفى بن اسكندر البلوكباشي في ذمته ٣١٧ سلطانياً وبعدها ٥٢٨ سلطانياً، ولم يسلمها إلى الوصي، وهو وقف أوقف، وبعد الادعاء عليه بقي في ذمته أحدى عشر سلطانياً، شريطة أن يرده إلى حرمه عائشة المرأة الكامل الوكيل عن زوجها.

كما عثرنا على كثير من الوثائق التي تؤكد جواز أحقية استبدال الوقف الخيري من الأراضي وغيرها بنقود إذا ثبت أن هذا الاستبدال يعود على الوقف بفائدة أكثر، ومن ذلك ما تم بمدينة حلب من قبل السيد يوسف الجابري بالطلب لأجل تحرير الخصوص الآتي بيانه فيه والحكم بهِ شرعاً إلى دار المتوفى عبد الرحمن باشا والي حلب سابقاً الدار الكائنة بمحلة الفرافرة بمدينة حلب المحروسة، وعقد المجلس الشرعي هناك بحضور جماعة من المسلمين ممن ستذكر أسماؤهم بذيله.

حضر بالمجلس المعقود المرقوم لدى السيد يوسف المزبور فخر المخاديم عبد الله بك ابن المتوفى عبد الرحمن باشا المتولي بحكم المشروطية على وقف أبيه المرقوم الواقع بحلب كلس وإعزاز،وقرر بحسب توليته المحكيه (وربما المحكمية) وبحضور فخر الفضلاء الكرام طتوز النادى الحاج عثمان أفندي ابن ولى الدين أفندي الذي أفاد بأن والده أوقف جميع الأراضي الثلاث المعدات للزراعة، فالأولى واقفة بناحية كلس تعرف بمزرعة جوم يولي تستوعب من البذر خمس مكوكً من الحنطة(٣٩)، حدها قبلة بأرض ابن خرطاط وشرقاً بوقف والدي المرقوم وشمالاً بالمجد وغرباً بأرض بن كوسه أحمد و شرقاً وغرباً بطريق عام وشمالاً بالوادي، والثالثة واقعة بأرض إعزاز تعرف بأرض كفر دانسور تستوعب خمسة شنابل من الغلال(٤٠)، حدها قبلة بالوادي

وشرقاً وغرباً والدي المرقوم وشمالاً بطريق عام، وأن قطع الأراضي المرقومة قليلة النفع والجد ولجهة الوقف المرقوم وأن الذي يحصل منها لا يقوم بما يلحقها من التكاليف، النازلة لحفظ الأملاك وأن عثمان أفندي قد رغب باستبدال الأراضي الثلاث المزبورة بالدراهم التي قدرها ألف وخمسمائة قرش، وأن في ذلك نفعاً ظاهراً لجهة الوقف.

أجاز العلماء والفقهاء والمجلس الشرعي إمكانية استبدال هذه الأراضي بالنقود وحينما أراد المتولي الرجوع عن هذا الاستبدال احتج الحاج عثمان أفندي الذي تمسك بصحة الاستبدال وأيده مجلس الشرع وأقر الاستبدال(٤١).وذلك في شهر ربيع الآخر لسنة ١٠٠٦ هـ/١٥٩٧م وبحسب

ماذكرته الوثيقة رقم ٣٤٠، فإنه بالإمكان استبدال الوقف بما يقابله مالاً أو عقاراً أو دكانين تحت بند البحث عن الفائدة التي يجنيها الوقف.

إن هناك أوقافاً كثيرة من الصعب التحدث عنها، وما يمكننا قوله إن الوقف الإسلامي أسهم إلى حد كبير في إطعام الفقراء الحد الأدنى من العيش، ولا يزال حتى تاريخه، غير أن ولاة الأمر تلاعبوا به، وأدخلوا عليه اجتهادات كثيرة من الصعب حصرها أو التحدث عنها، فشقيقة السلطان صلاح الدين الأيوبي، أوقفت منطقة دير عطية التي كانت باسمها إلى وقف أسلامي عام، ووزعت جزءاً يسيراً منه، في حين ضمنت سلامته وعدم قيام الدولة المملوكية بمصادرته وحجزه لدى أميرها. فعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد لجأ أسعد باشا العظم إلى وقف لبعض أملاكه في حماه (وهي أملاك لا حصر لها). أوقفها سنة ١١٤٦هـ / ١٧٣٣م أي قبل أن يصبح وزيراً، وكل ما خصصه من أملاك التي أوقفها ٣٠ قرشاً لمكة المكرمة، خصص منها ٢٤ قرشاً لأربع قراء يقرؤون القرآن الكريم بعد صلاة الفجر و قرشاً واحداً لرجل صالح من أجل السقاية و ٥ قروش للناظر، وأوقف للمدينة المنورة ٣٠ قرشاً أيضاً.

وتكشف الوثائق أن دخل الوقف آنذاك هو ١٥٠٠ قرش، وهكذا دواليك. أرضٍ على ضفة نهر بردى حالياً كذلك فقد تم العثور على الوثيقة رقم ١٠٤ تفيد أن صاحبة الملعب البلدي في دمشق قد أوقفت جزء منه للخيول العجزة ، وتبلغ مساحة المنطقة الموقوفة قرابة ثلاثة دونمات مغطاة بالعشب الأخضر.

كما عثرنا على وثيقة في محكمة اللاذقية مشوش دفتري، أن المدعو صالح محمد الأضباشي (أي الأضة باشي) قد أوقف مبلغ وقدره خمسمئة قرش ، لفقراء حي الشيخ ضاهر للقادمين من مناطق متعددة ، وهم لم يكونوا يملكون سكناً، فأوقف لهم ما يعادل خمس قصبات من أجل إقامة بناء، وخصص لهم قسماً من المبلغ المذكور بعد أن أودعه في ذمة تاجر على أن يدفع التاجر شهرياً ٢٥قرشاً توزع على ١٧طفلاً ثمن حليب، ويعطى لتجار الحليب قرشاً فضياً شهرياً، كما يعطى لمتولى جامع السلطاني قرشاً ونصف شهرياً، ويعطى خمسة قروش لخمسةِ قراء قرآن كريم على أن يقرؤوا سورة الإخلاص وخمس سور قصيرة من القرآن الكريم ،كما يوزع على فقراء مكة ٨,٥ قرش ونصف شهرياً، أما الخمس قروش الباقية، فترسل إلى متولى التكية السلمانيه بدمشق ثمن شموع وزيتاً ونظافة، وعلى التاجر أن يرد المبلغ بعد سنة من استلامه على أن يعطى لتاجر آخر، وتُكلف حرمه خديجة الدرويشة بمراعاة ذلك والإشراف عليه، وبعد مدة قام صالح محمد الأضباشي باسترداد المبلغ، غير أن المتولى قاضاه لدى مجلس الشرعي فأفتى القضاة بجواز وقف الأموال، حُرر في رجب لسنة ١٠٥٥هـ- ١٦٤٥م.

كما عثرنا على وثيقة مؤرخة في ٢٧صفر ١٠٥٥هـ- ١٦٤٥م من مشوش دفتري عائدة لمحمد سليم الطرابلسي من مدينة طرابلس الشام، ومحفوظة لدى سجلات المحكمة الشرعية في اللاذقية تفيد أنه أوقف مئة وسبعون ليرةً من نوع السلطاني، على أن يتم شراء سفينة صيد بأربعين سلطاناً، ويوزع دخلها على فقراء حي الزقاقية الواقع في الجهة الشرفية من طرابلس، أما المئة والثلاثين الباقية، فتوقف لدى شخص

ثقة من ثقاه العلم والدين. لم تقدم لنا الوثيقة معلومات حول كيفية اقتسام المبلغ أو توزيعه.

لم تعتد الديار الإسلامية على وقف (النقود) من منطلق أنه ربا، والربا محرم في الإسلام والبلدان التي تعتمد التشريع الإسلامي، والدولة العثمانية اعتمدت الشرع الإسلامي أساساً لتشريعها فضلاً عن ذلك فقد عّد الفقهاء والعلماء أن النقد الموجه مخالف للشرع الإسلامي، ففي سنة ٩٣٠هـ- ١٥٢٣م سئل المفتي علي الجمال الذي كان يشغل مفتي الإسلام - الذي أفتى بجواز محاربة الدولة المملوكية عندما سأله السلطان سليم الأول (١٥١٢- ١٥٢٠) - عن تشغيل نقود لصالح الجنود الإنكشاريين بغية إقامة احتفال لهم، فأجاب أنه ربا، وأن ربوة واحدة خطيئتها أكثر من أربعين زنوة، فالتفت إليه السلطان سليم القانوني متسائلاً أليس الذين يموتون دفاعاً عن الثغور الإسلامية شهداء؟ فأجابه بلى يجوز إذا أوقفه الواقف بنية صادقة. يفهم من مساءلة السلطان ورد المفتي أنه يجوز، ولاسيما أن علي الجمالي لفظ كلمة وقف، ورغم البحث في المحاكم الشرعية، لم نعثر على ما يثبت أن وقف النقود اعتمد، وظل الأمر كذلك حتى مطلع القرن التاسع بعدما تم اعتماد المصارف والبنوك.

ويعّد محمد سليم البازارباشي أول من استحصل على وثيقة شرعية باعتماد (النقود) مال وقف غير أن القضاة الحنابلة والأحناف رفضوا اعتماده، أما قضاة المذهب المالكي والشافعي أجازوا ذلك ولهذا فإن الحاجة فاطمة بنت الحاج محمد المعروف بابن ناعورة قد أوقفت ما لديها على الإناث من ذريتها دون الذكور الدار الكائنة بمدينة حلب الشهباء المعروفة بتعريف السيد مصطفى بن أحمد بشه وسليمان بن عبد الله تعريفاً بمواجهة فخر العلماء الأعلام صدر المدرسين الكرام جناب السيد أحمد أفندي بن المرحوم السيد أبي السعود أفندي الكواكبي قائلة في تقريرها أن من جملة الوقف المذكور في محلة جلوم الصغرى .... الخ.

وبما أن الدار المذكورة قد آلت إلى الانهيار، وأنه لم يبق للدار الموقوفة غلة لإعمارها، وخوفاً من أن تصبح خرابا ً ومأوى للصوص، فهي تستأذن جناب السيد أحمد أفندي في استبدالها ببدل عامر أكثر غلة وإيراداً، وبعد المعاينة من قبل ثقاة المجلس الشرعي، وافق القاضي المذكور على إجراء الاستبدال من منطلق أن الدار الملك يمكن أن يؤجر سنوياً بـــ ٢٤ قرشاً يصرف منهم لجهة العوارض السلطانية ٤ قروش ونصف، ويصرف للزخرتين في كل سنة ستة قروش، فيبقى ستة قروش ونصف، وقد وافق الحاكم الشرعي على إجراء أصول الاستبدال بدار عامرة، غير أن المذكورة أرادت الرجوع عن هذا الاستبدال مدعية أن الواقفة فاطمة بنت الحاج بركات لم تشترط الاستبدال في كتاب وقفها، وأن الاستبدال غير لازم شرعاً وطلبت إرجاع الدار للوقف كما كانت ، فنازعها المستبدل مدعياً صحة الاستبدال وإن لم تشترط الواقفة، ولما تأكد القاضي من تحقيق المنفعة أعلم الوارثة المدعوة صفية بنت الحاج محمد صحة الاستبدال. نلاحظ من خلال هذه الوثيقة أن المجالس الشرعية كانت تجيز بعض الأمور التي لم تصدر أحكاماً شرعية واضحة فيها، وهل يجوز الاستبدال شرعاً.

لو أننا دققنا في الأملاك الموقوفة للأعمال الخيرية، لوجدنا أن هناك استبدالات كثيرة مثل استبدال دكان على الشارع العام بمحلة الميدان بدار في الميدان الجواني، وكذلك تم استبدال أرض في غوطة دمشق الشرقية أوقفت من قبل محمد سليم أفندي بدار قدمّها ورثة صالح بن محمد سليم. بعد أجراء دقيق نلاحظ أن الحاكم الشرعي وافق على الاستبدال من منطلق أن الدار الكائنة في منطقة باب الجابية وبعض إجراء ترميمها يمكن أن تصلح كمدرسة لتدريس الأيتام.

إن هذه الاستبدالات الوقفية جرت في سنوات ٩٨٠- ٩٨١هـــ/ ١٥٧٢- ١٥٧٣م وهي السنوات التي أوقفت فيها قرية منين التي تبعد عن دمشق قرابة ٢٠كم إلى السلطان سليم الثاني (١٥٦٦- ١٥٧٤) ونظراً لكتاب المجلس الشرعي بولاية الشام،

فإن هذا الوقف غير جائز، لأن إيراد خيرات تلك القرية لا يستفيد منها أهل الخير من الفقراء والمساكين، وحينما علم مفتي الإسلام في استانبول أمر بتحويل وقف السلطان سليم الثاني إلى ملك خاص بناء على نظام الإقطاعي الأرضي العسكري الذي يقسم الأراضي في ظل السيطرة العثمانية إلى ثلاثة أقسام: ملك تيمار وملك زعامات وملك خاص.

وبين يدينا وثيقة عن وقف أوقفه عبد الرحيم العاص من حماه الذي أوقف أملاكاً خيرية كثيرة وكبيرة من أراضٍ ونواعير ومحلات تجارية وهي (السرايا والجنينة المعروفة بالطيارة والجنينة القبلية على نهر العاصي وقد حددها بعد أن امتلكها بموجب حجج شرعية مخلده بيده قبلة بستان صهيون مابين جبل الباشورة شرقاً وكرخامه الدباغة غرباً) وقد اشترط الواقف عدم مساسها أو زراعة أشجار فيها. كما اشترط أن يرسل إلى مكة المشرفة ثلاثين قرشاً يدفع للناظر فيها أربعة قروش، وأن يدفع إلى أربعة قراء قرآن كريم على أن يقوموا بقراءة كل جزء من القرآن الكريم في كل يوم بعد صلاة الفجر، وأن يصلى على النبي محمد (ﷺ) مئة مرة وأن يعهد ثواب ذلك إلى أصحابه الكرام وأهل بيته والى صاحب واقف.

وقد اشترط واقف الملك أنه لا يجوز ببدله بأوسع أو بأنقص أو تغييره، ومن فعل ذلك فهو طليبه وحسيبه. وقد أسند وقفه إلى السيد الكامل والعالم الفاضل الشيخ موسى بن المرحوم الشيخ عبد الله الحوراني، غير أن الواقف أراد الرجوع عن وقفه وإعادته، ولكن القاضي الشرعي ثبته بحسب رأي الفقهاء والعلماء [٤٢].

وبين أيدينا وثيقة فحواها إقامة دعوى مابين الحاج بكر وعبد اللطيف ابنا خليل درويش مع ابن عمهما محمود الدرويش على عمهم عمر بن الدرويش بيرام المتولى تكيه بابامیرو بحلب الكائنة بظاهر حلب وقالوا في دعواهم إن المرحوم أوزون خصَ من مدة سبعمائة سنة وقف ما يحصل من السمك الموجود في بحيرة يفرا الكائنة بناحية العمق الجاري ماؤها إلى البحر على جدهم الأعلى الذي لا يعرفون أسمه،

بحسب الوثيقة يوزع ريعها على أنسابه، وأن عمهم المدّعى عليه وضع يده في هذه السنة على ما يحصل من السمك، ولم يدفع لهم حصتهم، وأنهم الآن يطلبون محاسبته على ما قبضه ودفع مايظهر بذمته.. الخ.

وبين أيدينا وثائق كثيرة تثبت أن وقف النقود جائز، شريطة ألا يعطى المبلغ الموقوف لإنسان متوسط الحال لتشغيله، بغية رد جزء من مدخوله على ألا يحدد وأن يُسمى سماحة النفس[٤٣].

لقد اختلف العلماء الدينيون بشأن وقف النقود ومعظمهم عدّها غير مقبولة شرعاً، علماً بأنه لا يوجد نص واضح بهذا الخصوص، ولا يزال الجدال قائماً حتى تاريخه. لسنا معنيين بهذا الجدال، ما يهمنا أن هناك وقفاً حدث وتم، وأن علماء المرحلة أجاوزه، وتعامل أهله على هذا الأساس.

ولهذا فإن مجادلات حادة ونقاشات كثيرة أثيرت حول الوقف وتجنباً من الدخول في هذه المناقشات فقد آثرنا ترك الحديث للقراء من خلال الوثائق التي تم العثور عليها في دور المحاكم الشرعية في دمشق واللاذقية وطرابلس الشام وهناك وثائق كثيرة عالجت موضوعات اجتماعية من الصعب التعرض لها كونها تثير تساؤلات بين فقهاء المذاهب الإسلامية[٤٤].

وهكذا نرى أن الأماكن الموقوفة في صنجقي حمص وحماة شكلت دخلاً رئيساً من وارداتها، وتفيد المصادر التركية أن السلطان العثماني سليمان القانوني أصدر فرماناً في ٢٧ ذي الحجة لسنة ٩٨٤/١٥٤٠ يقضي بتوزيع واردات وقف صنجق حماة على فقرائها، أما الفائض من واردات صنجق حمص فيجمع ليوزع على القبائل البدوية التي كانت تهاجم مزارع الأهالي وذلك حسماً للسجال الدائر ما بين أصحاب المزروعات والقبائل البدوية التي تطلق مواشيها على تلك المزروعات وقد ظل معمولاً بفرمان السلطان سليمان حتى مطلع القرن الثامن عشر، لأن القبائل غدت مهاجمتها لمزارع حمص شبه نادرة[٤٥].

إن معظم أملاك وأراضي المسيحيين الذين فروا من الجيوش الإسلامية أو قتلوا في الحرب أوقفت أملاكهم إلى بيت المال، وهذه الوقفية بقيت لوقت طويل تذهب إلى بيت المال في الشام، بينما في العهد المملوكي كانت ترسل إلى القاهرة حيث يخصص قسم منها للخليفة العباسي.

واعتباراً من سنة ١٥٢٩م في عهد السلطان سليمان القانوني، خصص قسم من تلك الواردات إلى فقراء مكة والمدينة، وقسم كان يوزع على القبائل البدوية تحاشياً لهجماتها المفاجئة على المزروعات. ولم تتدخل الدولة العثمانية في شؤون الوقف ولا كيفية توزيع وارداته غير أنها كانت تطالب قاضي الصنجق بتخصيص عُشر الواردات لدائرة الإفتاء في استانبول لأن مصاريفها تزايدت بسبب إقامتها مدارس للأيتام والعجزة[٤٦].

لم يستمر الوقف في حالة صفاء بل تفنن القائمون عليه في تعدد أنواعه وأشكاله واعترت دخله ونظمه عوامل عدة، كادت أن تحول معظم أملاك المسلمين إلى أملاك أوقاف، وبالعودة إلى سجلات المحكمة الشرعية نجد أن ثلاثة أرباع الأملاك في الدولة العثمانية كانت وقفاً على الجوامع، ولم تحصل التكايا والزوايا على وقف يؤمن حتى للعاملين والمريدين فيهما دخلاً يكاد يسد رمقهم المعيشي، ولهذا اعتمدوا على زكاة الأموال وتفننوا في.... ؟

لم يقتصر التفنن في ابتداع أنواه متعددة، بل تفنن الواقفون في صدقاتهم ومبراتهم في الشروط التي اعتمدت سابقاً وحتى الشروط التي اعترفوا بها وأقروها أمام القاضي والشهود، وكثيراً ما لجؤوا إلى ذلك لإنقاذ أملاكهم من مصادرة الدولة، ونصّبوا أنفسهم أو مؤيديهم كراعٍ للوقف.

لم يكن العثمانيون على دراية بالوقف لبداوتهم وشدة تدينهم وعدم إقحام دولتهم في الشؤون الدينية قياساً بالدولة المملوكية، وإن القارئ للفتوحات العثمانية منذ المراحل الأولى يلاحظ أن بعض سلاطينهم لجؤوا إلى اعتماد مبدأ الإكثار من الأوقاف الدينية،

فقد ملئت بروصه وأدرنه وفيما بعد إستانبول وكوتاهية بأوقاف شملت صورة رئيسة المساجد والمدارس ولواحقها من خانات ودكاكين(٤٧).

إن ما أوردته السجلات الوقفية يكتنفه بعض الغموض بسبب عدم ذكر الكثير من المعلومات، وفي الوقت نفسه لم نتمكن من إحصاء جميع أوقاف صنجق حمص وحماة، وما قدمناه هو صورة دقيقة عن بعض الأوقاف، وركزنا بشكل رئيس على أوقاف حماه وحمص خلال القرن السادس عشر وضمن الأربعينيات والخمسينيات منه(٤٨).

وتفيد بعض الوثائق أن الولاة يلجؤون إلى اقتطاع جزء من واردات الأوقاف، لأن بعضهم قام ببناء جوامع باسمه، وبالطبع فقد أخذ قسماً من التكاليف من أموال الأوقاف. ويذكر محمد كرد علي في مؤلفه ما قام به جنجي خوجه الذي جمع ما يربو عن ألف كيس وكل كيس يحتوي على ٥٠٠ قرش يوم كان القرش الواحد يساوي أربعين بارة.

إن نظرة فاحصة لبعض الأملاك التي أوقفت يدرك القارئ أن هذه الأوقاف أوقفت خشية المصادرة، وبالنظر لما أوقفوه نجد أنها أوقفت على الجوامع والمدارس وعلى أبناء السبيل، وهنا ربما للمال الحلال نصيب فيما أوقف، وهذا ما ذكره الغزالي بالقول: أرباب الأموال والمقترون منهم فرق ....).

هوامش وحواشي البحث

(١) محمود أبو زهرة. **محاضرات في الوقف**. جامعة الدول العربية، ١٩٥٩، ص ٩.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٠.

(٠) أحمد الكردي. **الأحوال الشخصية**، الأهلية، النيابة والشرعية. دمشق، ١٩٨٦، ص ١٩٩.

(٣) المرجع **السابق نفسه**، ص ٢٠٥.

(٥) أحمد الحجي الكردي. **مرجع سابق**، ص ١٩٩.

(٦) محمد مصطفىشلبي. **الوقف والوصية بين الفقه والقانون**

(٧) أحمد الحجي الكردي. **مرجع سابق**، ص ٢٠٢.

(–) محمد كرد علي. **خطط الشام**، ج٥، ص ١٢.

(٨) الشيخ برهان الدين إبراهيم الطرابلسي. **الإسعاف في أحكام الأوقاف**. ص ٢٢.

(١٩) أحمد كوندوز. **تطبيقات الوقف العثماني**، ص ١٥٦.

(١١) سجل ١٤٢، **وثيقة** ٢٧٩، ص ١٣١.

(١٢) سجل ١٤٩، **وثيقة** ٩٩، ص ٤٠.

(١٠) سجل ١٥٦، **وثيقة** ٤١٩، ص ٢١٥.

(١٣) سجل ١٥٦، **وثيقة** ٤١٩، ص ٢١٥.

(١٥) محمد كرد علي. **خطط الشام**. ج٥، ص ١٢.

(١٦) سجل ١٦٨، **وثيقة** ٢٨٨، ص ١٥٢.

(١٧) سجل ١٣٩، **وثيقة** ١٨١، ص ١٦٩.

(–١) سجل ١٦١، **وثيقة** ٢٢٣، ص ١٦١.

(١٨) مجلة الوقف العدد ١٣٨.

(٢٩) عبد الجليل عبد الرحمن عشوب. **كتاب الوقف**. ص ١٠٠- ١٠١.

(٢١) المرجع **السابق نفسه**، ص ١٢٨.

(٢٢) المحكمة الشرعية، سجل ١٥٧، **وثيقة** ٤٧٩، ص ٢٢٣.

(٢٠) سجل ١٦٤، **وثيقة** ٢٨٤، ص ٢٨٠.

(٢٣) سجل ١٤٦، **وثيقة** ٢٨٤، ص ٢٨٣.

(٢٥) **المرجع السابق**، ص ٢٨٥.

(٢٦) سجل ١٤٢، **وثيقة** ٢٧٢، ص ٥٦٥.

(٢٧) سجلات المحكمة الشرعية: **مشوش دفتري**، رقم ١٤٤، وثيقة ٢٤٠، ص ٢١٠.

(–٢) سجلات المحكمة الشرعية: **مشوش دفتري**، رقم ١٧٣، وثيقة ٧٧، ص ٤٨.

(٢٨) القرآن الكريم السور التي وردت فيها كلمة الأنعام هي ، آل عمران ، الأعراف، النحل الحج المؤمنين ، الفرقان ، الشعراء ، فاطر ، الزمر غامر محمد.

(٠٩) سجل ١٤٩، **وثيقة** ١١٢، ص ٤٤.

(٠١) سوق السباهية ، وهو الجزء الغربي من سوق الحميدية .

(٠٢) انظر **مخطوط وقف السادة** لمؤلفة الفضل أحمد بن مالك التنوخي مكتبة الطوب قابي ٧٨٦٢.

(٠٠) السلطاني يساوي أربعين قطعة فضة، وقد عرفت فيما بعد بالمرية لأنها ضربت في مصر.

(٠٣) رهن منقول ، يساوي حُلي، جوخ، صابون وما شابههم.

(٠٥) جامع الحشر هو جامع السنجقدار وكان يعرف سابقاً باسم أرغون شاه.

(٠٦) محكمة الشرعية استانبول. سجل ٢٦٠، وثيقة ٥٢٦، ص ٢١– ٢٢.

(٠٧) وثيقة وقفية دار الوثائق الشرعية رقم ٧٨٥ص ٥٠–٥٥.

(–٠) سجل ١٦٨، وثيقة ٣٣٨، ص ١٥٢.

(٠٨) المكوك يعادل صاغ ونصف والبعض يقول صاغين ونصف ، وكما نعلم فإن الصاغ يساوي أربعة أمداد للمزيد ، انظر محمود عامر ، المكاييل والأوزان .

(٣٩) شنايل مفردها سنبل ويساوي ١٠ مسحات والمسحة سعتها ٧– ٨ كغ.

(٣١) دار الوثائق الشرعية بدمشق مشوش دفتري، رقم ١، ص ٣٣٣.

(٣٢) سجل ١٤٣، **الوثيقة** ١٤، ص ٢٥.

(٣٠) سجل ١٧١، **الوثيقة** ٧١٧، ص ٣٥٧.

(٣٣) سجل ١٥٨، **الوثيقة** ٢٣٦، ص ١٢٨.

(٣٥) محكمة شرعية استانبول ، **أناضولك دفتري** رقم ٢٤٣ ص ١١٣.

(٣٦) سجل ١٢٢، **الوثيقة** ٤٨، ص ١٠٥.

(٣٧) سجل ١١٣، **الوثيقة** ٨٠، ص ٩٧.

(–٣) سجل ١١٨، **الوثيقة** ٩٤، ص ٦٢.